

السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذي معه

صالح الحارثي

عبد محمد جودة البخار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في الثروة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ .

(قرآن كريم)

أنفاس المدينة تسبح ، شهيقها وحي السماء وزفيرها شكر وحمد
 لله رب العالمين ، وسمعها قرآن مجيد ، وبصرها ابتهاج لبديع
 السماوات والأرض العزيز الحكيم ، وقوادها أنوار قدسية أضاءها نور
 النور ، وروحها طاهرة قد تحررت من دنس الأرض فصارت مجنحة
 قادرة على أن تسمو لتتصل بروح الروح ، وعزيمتها ماضية زاداها مضاء
 أنها توكلت على الحي الذي لا يموت .

وكان ثوب الليل حالك السواد ، قد هجع الوجود إلا أعين المؤمنين
 كانت شاخصة إلى السماء قد تحركت ألسنتهم بالدعاء واطمأنت
 قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب . وكان رسول الله في
 داره قانتا آناء الليل ساجدا وقائما يناجي ربه حاضر القلب دافع العين ،
 حتى إذا ما انتهى من المناجاة ذهب إلى فراشه ، وكانت عباته قد
 ثبتت ثبوتين ، فنامت عيناه ولم يعرف قلبه النوم فقد كان متصلا بالملاء
 الأعلى على الدوام .

ورأى عليه السلام في النوم أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين
 محلقيين رعوسهم ومقصرين ، وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه وطاف
 هو وأصحابه مع الطائفين . وفي السحر قبل أن يؤذن بلال بالفجر خرج
 إلى المسجد متطلق الوجه تغمره سعادة عارمة ، فدخل مكة والطواف
 بالبيت العتيق وزيارة مراتع الصبا والشباب كانت أمنية من أعز أمانيه

وأمانى المهاجرين من أصحابه .

كانت قلوبهم تهوى إلى الحرم وإلى الصفا وإلى الحجون وإلى زيارة قبور الأحياء من المسلمين الذين ماتوا فى مكة قبل الهجرة ، فإذ طالما استرجعت خيالاتهم ذكريات الجنة وذى المجاز وعكاظ وزمزم وأبى قبيس ودار الندوة وحجر إسماعيل ، وإذ طالما رأوا أنفسهم بأعين الأمانى يحطمون الأصنام التى دنست أول بيت وضع للناس ليكون منارة التوحيد .

وارتقى بلال حجرة حفصة وراح يرعى السماء حتى إذا ما حان الفجر تجاوب الأذان فى جنبات المدينة فخرج الناس من الدور من العالية ومن السافلة ليصلوا خلف الرسول . وجاء أبو بكر وعمر وعثمان وكبار المهاجرين إلى المسجد فلما قضيت الصلاة اجتمعوا عند أسطوانة المهاجرين ، فأقبل عليهم رسول الله — ﷺ — بآدى البشر ثم أخذ مكانه بينهم وجعل يقص عليهم رؤياه وقد ألقوا إليه سمعهم مستبشرين فرحين بما أتاهم الله ، فقد صاروا جميعا موقنين أن الفتح قريب ، وأن مكة ستفتح لهم أبوابها إن طوعا أو كرها ، فرؤيا الأنبياء حق وما رأى نبي الإسلام عليه السلام رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . وأخبر عليه السلام أصحابه أنه يريد الخروج للعمرة فخفضت القلوب بالسرور وتهللت الوجوه بالفرح وقاموا ليتجهزوا للسفر ، وبعث عليه السلام يستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ممن أسلم ، غفار ومزينة وجهينة وأسلم ، خشية من قريش أن يحاربوه وأن يصدوه عن البيت فتناقل كثير منهم وقالوا : — أنذهب إلى قوم قد غزوه فى عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه

فَنَقَاتْلَهُمْ !

واعتلّوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم من يقوم بذلك ،
فأنزل الله تكذيبهم في اعتذارهم بقوله : ﴿ يقولون بالسنتهم ما ليس
في قلوبهم ﴾ (١) .

وخرج — ﷺ — بعد أن اغتسل بيته وليس ثوبين وركب راحلته
القصواء من عند بابه ، وخرج معه أم سلمة وأم عمارة وأم منيع وأم عامر
الأشهلية ، وخرج معه المهاجرون والأنصار ومن لحق بهم من
العرب ، وقد استعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي وساق معه
الهدى سبعين بدنة فيها جمل أبي جهل الذي غنمه رسول الله —
ﷺ — يوم بدر .

وصلى عليه السلام الظهر بأصحابه بذى الحليفة ، ثم أحرم بالعمرة
وأحرم معه أغلب أصحابه وأشعر من الهدى عدة وهي موجعات للقبلة
في الشق الأيمن من سنامها ، ثم أمر — ﷺ — ناجية بن جندب ،
وكان اسمه ذكوان فغير عليه السلام اسمه وسماه ناجية لما نجا من
قريش ، فأشعر ما بقى وقلدهن نعلا نعلا ، وأشعر المسلمون بدنهم
بجرح صفحة سنامها وقلدوها بأن وضعوا في أعناقها قطعة جلد أو نعل
بالية ليعلم أنه هدى فيكف الناس عنه .

كان الناس سبعمائة فكانت كل بدنة عن عشرة ، وليس معهم
سلاح إلا السيوف في القرب . وقال له عمر بن الخطاب :
— أتخشى يا رسول الله من أبي سفيان وأصحابه ولم تأخذ للحرب

عدتها ؟

— لست أحب أن أحمل السلاح معتمرا .

وخرج عليه السلام معتمرا في ذي القعدة ليأمن أهل مكة ومن حولهم من حربته ويعلموا أنه — عليه السلام — إنما خرج زائرا للبيت ومعظما له . وكان مع المسلمين مائتا فرس هي مدخراتهم التي كونوها ليرهبوا بها عدو الله وعدوهم . كانوا يملكون يوم بدر فرسا واحدة فلما أمرهم الله أن يعدوا ما استطاعوا من رباط الخيل راح — عليه السلام — يعنى بتربية الخيول ، وتكوين فرق فرسان المسلمين الخفيفة حتى استطاع أن يخرج إلى مكة معتمرا في مائتي فارس من خيل المسلمين .

وقدّم عليه السلام عباد بن بشر أمامه طليعة في عشرين فارسا ، وبعث بشر بن سفيان الكعبي إلى مكة عينا له ليتحسس أخبار قريش ليكون على بينة من أمر أعدائه ، وإنساب المسلمون في الصحراء وقد ارتفعت التلبية من أعماق القلوب :

— لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

وانشروحت الصدور وانهمرت من الأعين الدموع فهم في الطريق إلى بيت الله الحرام ، وقد طهر الله قلوبهم من الشرك والضلال تداعبهم أمال الطواف بالبيت العتيق والسعى بين الصفا والمروة وإطفاء الظمأ من ماء زمزم ميراث أبيهم إسماعيل ، وما خطر لهم على قلب أن تصدهم قريش عن البيت فالكعبة بيت الله لا يصد عنها أحد من عباد الله ، فإليها يحج العرب من موحدين ونصارى ومشركين .

وبلغ رسول الله — عليه السلام — والذين معه عسفان فجاء إليه بشر بن

سفیان فقال :

— يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بخروجك واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش وأجلبت ثقيف معهم ومعهم النساء والصبيان وقد لبسوا جلود النمر ، وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم أبدا . وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم . كانت خيل خالد مائتى فرس وقد صفت إلى جهة القبلة ، فأمر — عليه السلام عباد بن بشر فتقدم فى خيله فقام بازاء خالد وصف أصحابه ، وحانت صلاة الظهر فأذن بلال وأقام فاستقبل رسول الله — عليه السلام القبلة وصف الناس خلفه فركع بهم وسجد ثم سلم فقال خالد بن الوليد :

— قد كانوا على غرة لو حملنا عليهم أصبنا منهم ، ولكن تأتى الساعة صلاة أخرى هى أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم .

فنزل جبريل بين الظهر والعصر بقول الله تعالى : ﴿ وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يقتلكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا . وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا ﴾ ^(١)

وحانت صلاة العصر فصلى رسول الله ﷺ — بأصحابه صلاة الخوف ، فلما جعل المسلمون يسجد بعضهم وبعضهم قائم ينظر إليهم قال المشركون :

— لقد أخبروا بما أردنا بهم .

كانت حركات قريش تدل على أنها تريد منعه ومن معه عن البيت ، فالتفت عليه السلام إلى أصحابه وقال :

— أشيروا على أيها الناس . أتريدون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه

قاتلناه ؟

فقال أبو بكر :

— يا رسول الله خرجت عامدا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حربا

فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه .

— يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو دخلوا بيني

وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا . وإن

أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم

قوة ؟ فما تظن قريش ؟ والله لا أزال أجاهد على الذي بعثنى الله به حتى

يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة .

ثم قال عليه السلام :

— هل من رجل يخرج بنا عن طريق غير طريقهم التي هم بها ؟

فقال ناجية بن جندب :

— أنا يا رسول الله .

فسلك بهم طريقا وعرا فانطلقوا يضربون فيه حتى نال منهم

الجهد ، فلما خرجوا منه وقد شق عليهم ذلك وأفضوا إلى أرض سهلة

قال — ﷺ :

— قولوا نستغفر الله ونتوب إليه .

فارتفعت أصوات المسلمين بالاستغفار والتوبة ، فقال عليه السلام :

— والله إنها للحطة التى عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها .

قبل لبنى إسرائيل : ﴿ ادخلوا الباب سجدا وقلوا حطة نغفر لكم خطاياكم ﴾ ^(١) ، فبدلوا وقالوا : حنطة استهزاء وجراعة على الله .

ولم يشعر بهم خالد بن الوليد إلا وقد نزلوا بذلك المحل فانطلق نذيرا لقريش ، ثم أمر — ﷺ — الناس أن يسلكوا طريقا تخرجهم على مهبط الحديدية من أسفل مكة فسلكوا ذلك الطريق ، وأصبح المسلمون على حدود الحرم وإن هى إلا خطوات حتى يصبحوا فى الأرض الحرام التى يأمن فيها الطير ، فثارت الدماء فى العروق وارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير وخفقت الأفتدة وجدا ، وكان المهاجرون يتلفتون فى تأثر وقد غمرتهم إحساسات الشوق بعد أن شموا عبير الأرض التى تفتحت عليها أعينهم أول ما تفتحت والتى التصقوا بها التصاق الأبناء بالأم الرعوم حتى أترجهم منها الظالمون بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ ^(٢) .

(١) البقرة ٥٨ .

(٢) الحج ٤٠ .

وانطلق الرسول عليه السلام على ناقته القصواء والمسلمون من حوله على خيلهم وإبلهم حتى إذا سلك ثنية المرار ولاح له سهل الحديدية ولم يبق إلا أن يتقدم بضعة أميال ليطوف بالبيت ويتحقق كل ما رآه في رؤياه ، إذا بالقصواء قد بركت فاحفل الناس إليها وقالوا :

— حل حل .

فألححت وتمادت على عدم القيام وطس الناس أنها قد حرنت فقالوا :

— خلأت القصواء .

وعادوا يقولون لها :

— حل حل .

فقال — ﷺ :

— ما حل ؟

— خلأت القصواء .

— ما خلأت حرنت ، وما هو لها مخلق ، ولكن حبسها حابس

القبيل عن مكة .

علم رسول الله — ﷺ — أن ذلك صد له من الله عن مكة أن

يدخلها قهرا ، فقال عليه السلام :

— والذي نفس محمد بيده لا تدعونني قريش إلى حطة يعطمون بها

حرمات الله وفيها صنة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

كان خالد بن الوليد قد صف فرسانه عند كراع الغميم وهو يحسب أن المسلمين لن يستطيعوا أن يصبوا إلى مكة إلا إذا شقوا طريقهم في فرسانه الذين كانوا في عدة القتال وكان واثقا أن ذلك لن يكون ، فالمسلمون قد حاءوا محرمين ليس معهم إلا السيوف في الغرب ولن تعنى سيوفهم شيئا إذا ما عمدوا إلى العف ، ولكن لما ملك المسلمون ذات اليمين في طريق يحررهم إلى ثنية المرار في غلة مه وأصبحوا على بعد تسعة أميال من مكة ولم ير إلا عيار الحيش ، تيقن أنه قد جدع وأصبح بقاؤه في موضعه بلا معنى ، فركض راجعا إلى قريش يذرهم أن محمد بن عبد الله والذين معه قد بلغوا الحديبية وأنهم في طريقهم إلى الحرم .

كان أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وكثير من سادات قريش في سوق بصرى في تحارة قريش ، وكان أمر مكة لسهيل بن عمرو . فراح خالد يقص على سهيل وحويطب بن عبد العرى وبديل بن ورقاء سيد بني حراة ومكرر بن حرب أحى بنى عامر والحليس بن علقمة سيد الأحابيش وعروة بن مسعود الثقفى ما كان من المسلمين ، فرأى بو كعب وسو عامر أن ياجروا محمدا عليه السلام والذين معه ، ورأى بديل بن ورقاء سيد بني حراة أن يمشى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يسأله عما أقدمه إلى مكة في أصحابه ، فظفر إليه سادات قريش في ربة

فخزاعة مسلمها ومشرکها لا يحفون عليه — عليه السلام — شيئا كان بمكة بل يحبرونه به وهو بالمدينة ، وكانت قريش ربما تفتن ذلك .
وسار بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة حتى أتوا رسول الله عليه السلام وهو بالحديبية فقال :

— إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد نزلا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطاعيل ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت .
فقال النبي — عليه السلام :

— إنا لم نأت لقتال أحد ولكن حثا معتمرين ، وإن قريشا قد بهكتهم الحرب وأصرت بهم فإن شاعوا ماددناهم ^(١) مدة ويخلوا بيني وبين الناس ، فإن أظهر فإن شاعوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد حموا ^(٢) ، فوالله لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تعرد سالفتي أو لينفذن الله أمره .

قال بديل :

— سنبلغهم ما تقول .

فانطلق حتى أتى قريشا فقال :

— إنا قد حثناكم من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولا فإن شئتم أن نعرض عليكم فعلنا .

فقال سفهاؤهم :

— لا حاجة لنا في أن تحدثنا عنه بشيء .

(١) ماددناهم مدة * جعلنا يساويهم مدة ترك الحرب فيها

(٢) حموا ، استراحوا

وقال ذوو الرأى منهم :

— هات كما سمعته يقول .

فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ ، وقال لهم :

— إنه لم يأت لقتال إنما جاء رائرا لهذا البيت .

فاتهموه ولقوه بما يكره وقالوا :

— إن كان قد جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عوة أبدا ولا

تحدث بذلك عما العرب ، أريد محمد أن يدخلها علينا في جوده

معتمرا تسمع العرب أنه قد دخل عليها عوة وبسا وبسه من الحرب ما

ببسا ؟ والله لا كان هذا أبدا وبها عين تطرف .

ثم بعثوا إليه — ﷺ — مكرر بن حفص أبا بى عامر ، فلما رآه

رسول الله عليه السلام مقبلا قال :

— هذا الرجل غادر .

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ — وكلمه قال له رسول الله —

عليه صلوات الله وسلامه ، نحوا مما قال لبديل ، فرجع إلى قريش

وأحضرهم بما قال له رسول الله عليه السلام ، ثم بعثوا إليه — ﷺ —

الحليس بن علقمة وكان سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله عليه السلام

قال :

— إن هذا من قوم يأنهون (أى يتعدون) ويعظمون أمر الإله .

ابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه .

فما رأى الهدى يسيل عليه بقلائد من عرص الوادى قد أكل أوباره

من طول الحبس عن محله الذى يحرقه من الحرم ، واستقبله الناس

يلبسون قد شعثوا صاح وقال :

— سبحانه الله ! ما يسئ لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، أئى الله أن يحج لحم وخدام ويهد وحمير ويمسح ابن عبد المطلب . هلك قريش ورب الكعبة ، إنما القوم أتوا عمارا .

فقال رسول الله — ﷺ :

— أجل يا أخا بنى كنانة .

ورجع إلى قريش فقال لهم :

— إئى رأيت ما لا يحل منه ، رأيت الهدى^(١) فى قلائده قد أكل أوباره والرجال قد شعثوا .

فقالوا له :

— احلس فإنما أنت أعرابى ولا علم لك

فعند ذلك غضب الحليس وقال :

— يا معشر قريش والله ما على هذا حالناكم ولا على هذا عافدناكم بصد عن بيت الله من جاء معظما والذى نفس الحليس يده لتحلن بين محمد وما جاء له أو لأتفرن بالأحاييش نفرة رجل واحد . كان الأحاييش بى الهون بن حزيمة وبى الحارث بن عبد مناف بن كنانة وبى المصطلق بن خزيمة تحالفوا تحت جبل بأسفل مكة يقال له حُبش هم وقريش على أنهم يد واحدة على من عاداهم ما سحابل ووضح بهار ومارسا حش ، فسموا أحاييش قريش . فلما رأى سادات قريش غضب سيد الأحاييش قالوا له :

(١) الهدى : ما أهدى إلى مكة من الإبل ، والقلائد : ما يعلق فى أعناقها كدلالة على أنها هدى .

— مه يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .
ثم بعثوا إلى رسول الله — ﷺ — عروة بن مسعود الثقفي ، إنه
سمع قريشا توبخ بذيلاً ومن معه من حزاعة فقال :
— يا معشر قريش إنني رأيت ما يلقي منكم من بعثتموه إلى محمد
إذا جاءكم من التبعين وسوء النعم ، وقد عرفتم أنكم والد وأنسى
ولد — وكان عروة لسبعة بنت عبد شمس — وقد سمعت بالذي
أنكم جمعتم من أصابعي من قومي ثم حثكم حتى آسيتكم بنفسى .
— صدقت ما أنت عندنا بمتهم .

فخرج حتى أتى رسول الله — ﷺ — فجلس بين يديه ثم قال :
— يا محمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيصنك
لتفرضها بهم ؟ يا محمد أرايت إن استأصلت قومك فهل سمعت بأحد
من العرب اجتاحت أصبه قبلك ؟ وإياها قريش قد حرحت معها العود
المطافيل^(١) قد لسوا حلود السمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عوة
أبدا . وإني لأرى وحوها وأوشابا^(٢) من الناس حليف أن يمسروا
ويدعوك ، وإيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشعوا عدا عك .

وأبو بكر حابس حلف رسول الله — ﷺ — فقال له .
— اعصم بغير آلات ، ألحق بنكش عه ؟
وعصب عروة فاللات إلهة الطائف وهو سيد بني ثعلبة ، وإياها
لكلمة تحط من شأنه وشأن معبوده فقال في حق :

(١) المطافيل جمع مضطرب وهي دت الفرس

(٢) أوشاب : الأوباش والأحلاط .

— من هذا يا محمد ؟

— هذا ابن أبي قحافة .

فقال عروة لأبي بكر :

— لولا يد كانت لك عدى لكافأنتك بها .

هم عروة بأن يقول لأبي بكر كلمة غليظة بحية بها عن كلمته التي قذفها في وجهه . ولكنه لما علم أن القائل أبو بكر الصديق أمتك فقد كانت لأبي بكر يد عده لم يحزه بها ، فقد استعان عروة في حمل دية فأعانه الرجل بالواحد من الإبل والرجل بالاثني وأعانه أبو بكر بعشرة إبل شواب^(١) ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله — ﷺ — وهو يكلمه وهذه عادة العرب أن الرجل يتناول لحية من يكلمه عند الملاطفة .

وكان المعيرة من شعبة واقفا على رأس رسول الله — ﷺ — وقد لس درعه وعطت حودته ووجهه ولم يكن يبدو منه إلا عيابه — إنه يرى عروة وهو يتناول لحية رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه — ولا يرى عليه السلام يصنع الطير بالظير ، فحعل يقرع يد عروة إذا تناول لحية رسول الله — ﷺ — بنعل سبمه ويقول :

— اكفف يدك عن مس لحية رسول الله — ﷺ — فإنه لا ينبغي لمشرك ذلك .

فالتفت إليه عروة وقال :

— ويحدث ما أفصت وما أغلظت ، لبت شعري من هذا الذي آداني

(١) شواب : جمع مفردة شابة .

من بين أصحابك ؟ والله إنى لا أحسب فيكم أئماً مه ولا شر منزلة .

فبسم — ﷺ — وقال :

— هذا ابن أحمك المغيرة بن شعبة .

— يا عذر والله ما غسلت عك عذرتك بعكاظ إلا بالأمس ، وقد أورشنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر .

كان المغيرة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بنى مالك من ثقيف صحبهم إلى مصر فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء إلى المدينة فأسلم ، ولما قتلهم المغيرة تهايج الحيان من ثقيف رهط القنلى ورهط المعيرة ، فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية وأصلح ذلك الأمر . وراح رسول الله — ﷺ — يخبر عروة بن مسعود أنه لم يأت لحرب . ورأى عروة ما يصنع به أصحابه إذا تكلم خفضوا أصواتهم وإذا سقطت منه شعرة أسرعوا وأخذوها ولا يحدون إليه النظر تعظيماً له ، فلما عاد عروة إلى قريش قال لهم :

— يا معشر قريش إنى جئت كسرى فى ملكه وقىصر فى ملكه والحاشى فى ملكه ، والله ما رأيت ملكاً فى قومه قط مثل محمد فى أصحابه . ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم فإنه عرض عليكم رشداً ، فاقبلوا ما عرض عليكم فإنى لكم ناصح مع أبى أخاف أن لا تنصروا عليه .

— لا تتكلم بهذا يا أنا يغفور ولكن ترده عاماً هذا ويرجع إلى قابل .

— ما أراكم إلا متصيين قارعة^(١) .

(١) القارعة : الناعية المماثلة .

ثم انصرف عظيم القريتين الذي عنده قريش بقولها ، ﴿ لولا نزل
هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ ^(١) ، ومن معه إلى
الطائف ودعا رسول الله — ﷺ — خراش بن أمية الخزاعي فبعثه
إلى قريش ، وحمله — ﷺ — على بعير له يقال له الثعلب ليبلغ
أشرافهم عه ما جاء له ، فعقر عكرمة بن أبي جهل جمل رسول الله عليه
السلام ، وأراد القوم قتل خراش فمنعه الأحابيش فحلوا سبيله حتى أتى
رسول الله — ﷺ — وأخبره بما لقي .

وبعث قريش أربعين رجلا معهم وأمروهم أن يظفروا بعسكر رسول
الله — ﷺ — ليصيروا لهم من أصحابه أحدا ، فأحدوا وأتى بهم
رسول الله — ﷺ — فعما عنهم وحلى سبلهم وكانوا رموا في
العسكر بالحجارة والنبل .

لم يقدم المسلمون لحرب بل جاءوا لزيارة أول بيت وضع للناس ،
فلم يحملوا معهم عتاد الحرب اللهم إلا السيوف في القرب ، وقد قال
عليه السلام لكل من جاءه من قبل قريش أنه لم يأت لقتال وإنما جاء
زائرا لبيت . وقد بعث إليهم خراش بن أمية الخزاعي على جمل له
ليقول لقريش إنه عليه السلام لم يأت لقتال فعقروا الحمل وأرادوا قتل
خراش لولا أن منعه الأحابيش ، فو أنه جاء بغني الهجوم على مكة
لوحد سببا للحرب هي عقر حمل رسوله ولكنه كان صادقا في التماس
السلام ، فرأى أن يبعث إلى سادات قريش عمر بن الخطاب صغيرهم
في الحاهلية فدعاه ليلع عه أشراف قريش ما جاء له ، فقال عمر :

(١) الرخرف ٣١ .

— يا رسول الله إني أخاف قريشا على نفسي وما بمكة من بي
عدى بن كعب أحد يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي إياها وعلقتني
عليها ، ولكن أدلك على رجل أعز بها مني : عثمان بن عفان .

كان بنو أمية بنى عم عثمان وكانت لهم الكلمة العليا في مكة ، فإن
كان عثمان قد أسلم وأصبح ذا الوريث لرواجه من ابني رسول الإسلام
فالعصية القليلة لم تسمح بقتل عثمان وإلا لحق عار ذلك بنى أمية ،
فدعا رسول الله ﷺ — عثمان بن عفان إلى أشرف قريش يخبرهم
أنه لم يأت لحرب وأنه لم يأت إلا رائرا لهذا البيت ومعظما لحرمة ،
وأمر عثمان أن يأتي رجالا من المسلمين بمكة ونساء مسلمات ويدخل
عليهم ويشرهم بالفتح ويحبرهم أن الله وشيك أن يصهر ديه بمكة حتى
لا يستخفى فيها بالإيمان .

واطلق عثمان إلى مكة ، وجاء عشرة من الصحابة إلى رسول الله
ﷺ — يستأذنيه في الدخول إلى مكة فيروا أهلهم فأذن لهم ،
ولاحظ لعثمان جمال مكة واستشقى عبير الأرض المقدسة فحقق قلبه
شوقا . ولقيه قبل أن يدخل أم القرى إنان بن سعيد بن العاص فأجاره
حتى يبلغ رسالة رسول الله ﷺ .

وانقضى اليوم الأول والمسلمون في الحديدية يترقبون سفارة
عثمان . وقال بعضهم :

— قد حصص عثمان إلى البيت فضاف به دوننا .

فقال رسول الله ﷺ :

— ما أظنه طاف بالبيت وحن محصورون .

— وما يمنعني يا رسول الله وقد حلتص إليه ؟

— ذلك ظنى به أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف ، لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف به حتى أطوف .

(٣)

كان سهيل بن عمرو وسادات قريش جالسين فى ظل الكعبة وتقدم عثمان بن عفان بين يدى إبان بن سعيد بن العاص ، فلما رأوه مندوا إليه أعيهم وقد لاح فى الوجوه تساؤل فقال إبان :
— إني قد أجرته حتى يطلع رسالة محمد .

واريد وجه عكرمة بن أبى جهل فهو لا يريد سلاما بل حربا لرسول الله ﷺ — ومن جاء معه من المهاجرين والأنصار ، وشرذ خالد ابن الوليد يفكر فى تلك الصلاة التى صلاها المسلمون بالعصر بعد أن قال لما شهد صلاة الظهر : « قد كانوا على غرة ، لو حملنا عليهم أصبا منهم ولكن تأتى الساعة صلاة أخرى هى أحب إليهم من أنفسهم وأسائهم » . وأتت الساعة وصلى أبو القاسم بأصحابه صلاة الحوف وقال المشركون : لقد أحمرأ بما أردنا بهم ، ومذ ذلك الوقت حفر ذلك القول فى وجدان خالد وجعله يفكر فى كل ما قاله محمد بن عبد الله فانتضحت لعين بصيرته بعض جواب الحقيقة حتى كاد يصدق أن أبا القاسم يأتيه الخبر من السماء .

وراح عثمان بن عفان ينفعهم عن رسول الله ﷺ — ما أرسله به وحالد يصفى فى انتباه وأصوات تصيح :
— إن محمدا لا يدخلها عليا أبدا .

فيضيق بتلك الأصوات ويهرف السمع إلى قول عروة بن مسعود قبل أن يصرف ومن معه إلى الطائف : « يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه وقبصر في ملكه والحدشي في ملكه ، والله ما رأيت سكا في قومه مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسمونه لشيء أبدا فمروا رأيكم فإنه عرص عليكم رشدا فاقبلوا ما عرص عليكم فإني لكم ناصح ، مع أنني أخوف ألا تصروا عليه » .

إن صراعا قد نشب في خوف خالد ، ولو أصاخ السمع لصوت العقل لهب من مجبسه ولأعلن على الملأ أنه يرى رأى عروة بن مسعود وأنه من الظلم أن يصد إنسان عن بيت الله الحرام ما دام لم يأت إلا رائرا بسيت ومعظما له ، ولكنه أشاح عن صوت عقله لما فرع عثمان بن عفان من تليع رسالة أبي القاسم ولما ارتفع صوت إبان بن سعيد من العاص يقول لعثمان :

— إن شئت أن تطوف بالبيت فطع .

وألقي خالد سمعه إلى عثمان فلما سمعه يقول :

— ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله — ﷺ .

فعاد خالد بن الوليد يفكر في الإسلام وبني الإسلام فيستشعر كأن أنوارا تنداح في عين ذاته تبدد ما ران عليها من ظلمات .

ومرت أيام ثلاثة ولم يعد عثمان بن عفان من سفارته ، فانتاب المسلمين قلق وراح المهاجرون والأنصار يتسائلون عما أصاب عثمان ، وكان الحد بن قيس في الأنصار وكان سيد بني سلمة في الجاهلية ، فلما هاجر رسول الله عليه السلام إلى المدينة قال عليه السلام لبني سلمة :

— من سيدكم ؟

قالوا :

— الجد بن قيس على بخل فيه .

— وأى داء أدوا من البخل ؟

ثم قال — ﷺ :

— بل سيدكم عمرو بن الجموح .

وراض الجد بن قيس قلبه على النفاق فكان يمدى بلسانه ما ليس فى قلبه ، وكان عبد الله بن أبي بن سلول فى القوم فكان يحاول فى دهاء أن يفت فى عضد المسلمين وأن يجعلهم يتمضون من حول رسول الله عليه السلام ، لقد بعث قريش إلى أبي بن سلول :

— إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل .

فقال له ابنه عبد الله :

— يا أبت أدركك الله أن لا تفضحنا فى كل موطن . تطوف ولم

يطف رسول الله — ﷺ ؟ !

فأبى حينئذ رأس المنافقين وقال :

— لا أطوف حتى يطوف رسول الله .

ومر بالمسلمين ناس من المشركين يريدون العمرة فقال المسلمون :

— نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم .

فأمر الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَتَوْنَ فَصْلًا مِنْ رِبِهِمْ وَرَضْوَانَا وَإِذَا حُلِلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَحْرِمَكُمُ شَتَاؤُكُمْ أَنْ

صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴿١﴾ .
فركبهم ينطلقون إلى بيت الله حتى إذا ما أذن بلال بصلاة الظهر توجهوا إلى القبلة يصلون خلف رسول الله — ﷺ ، فلما قضيت الصلاة ذهبوا يلتمسون الظل ، وتعدد رسول الله تحت شجرة الطلح وإذا برجل جاء إليه يسمى ويقول :

— قتل عثمان بن عفان .

فهب رسول الله — ﷺ — من رقاذه وقال :

— لا تبرح حتى تناجز القوم .

والتفت عليه السلام إلى من عنده وقال :

— إن الله أمرني بالبيعة .

فيا الناس جلوس قتلون إذ نادى عمر بن الخطاب :

— أيها الناس البيعة نزل بها روح القدس ، فاحرخوا على اسم الله .

فساروا إلى رسول الله — ﷺ — وهو تحت شجرة فد قام على رأسه

عبد الله بن معقل وفي يده غصن من السحرة^(٢) يذب عنه ، ولم يتحنف

مهم أحد إلا الجذ بن قيس فقد التصق بإبط ناقله يستتر بها من الناس !

وكان أول من بايعه — ﷺ — سنان بن أبي سنان الأسدي ،

فوضع يده على يده عليه السلام وقال :

— أباعك على ما في نفسك .

(٢) السحرة : شجر الطلح .

(١) المائدة ٢ .

— وما فى نفسى ؟

— أصرب بسيفك بين يديك حتى يظهر لك الله أو أقتل .

وصار الناس يقولون له :

— نبأعتك على ما نبأعتك عليه سنان .

وبأيعهم عليه السلام على ألا يفروا ، وبأيع عن عثمان فوضع يده

اليمنى على يده اليسرى وقال :

— اللهم إنا عثمان ذهب فى حاجة الله وحاجة رسوله فانا أبأيع

عه .

وراح الناس يتحدثون عن قتل العشرة الذين دخلوا مكة بإذن رسول

الله عليه السلام حتى حوّل الليل وقام محمد بن مسلمة على حرس

رسول الله — ﷺ ، فبعثت قريش خمسين رجلا عليهم مكرّر بن

حفص وهو الذى بعث قريش له — ﷺ — ليسأله فيما جاء وقال —

ﷺ — فى حقّه : هذا رجل غادر ، فراحوا يطوفون بعسكر رسول الله

رجاء أن يصيبوا منهم أحدا ويحدثوا منهم غرة ، فلم يجدهم محمد بن

مسلمة إلا مكررا فإنه أفلت ، وأتى بهم إلى رسول الله صلى الله عليه

وسلم — فحبسوا .

وبلغ قريش حين أصحابهم فجاء جمع منهم حتى رموا المسلمين

بالبل والحجارة ، وقتل من المسلمين ابن زيم رمى بسهم فأسر

المسلمون منهم اثني عشر رجلا . وبعد ذلك بعثت قريش إلى رسول

الله — ﷺ — جمعا على رأسهم سهيل بن عمرو فعلم أن عثمان قد

حسن وكذلك العشرة الرجال ، فاطمأن المسلمون على أصحابهم

وقال رسول الله — ﷺ — لمن حسوا عده :

— سهيل أمركم ؟

فقال سهيل :

— يا محمد إن الذي كان من حبس أصحابك وما كان من قتال من قاتلك لم يكن من رأى دوى رأيا ، بل كما كارهين له حين بلغنا ولم نعلم به وكان من سفهائنا ، فابعث إليا بأصحابا الدين أسرت أولا وثانيا .

— إني غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابي .

— نعم .

فبعث سهيل ومن معه إلى قريش بذلك فبعثوا برس كان عندهم وهم عثمان والعشرة الرجال ، وأسرع المسلمون إلى عثمان يستقبلوه بالترحاب وقالوا له :

— طفت بالبيت ؟

فقال عثمان في عتاب :

— بشما طمتم بي ، دعنى قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت .

والذى نفسى بيده لو مكثت بها معتمرا سنة ورسول الله — ﷺ — مقيم بالحديبية ما طفت حتى يطوف رسول الله — ﷺ — .

وأنزل الله تعالى : ﴿ إيا الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما ﴾ (١) .

وعلمت قريش بهذه البيعة فخافوا وراحوا يتشاورون في أمرهم

وتمسوا لو أن أنا سفيان بن حرب كان فيهم ليرجعوا إليه ، ولم يحدوا خيرا من الصلح فقالوا سهيل بن عمرو :
— إيت محمدا فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عما عامه هذا .

فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله ﷺ — قال :
— قد سهل أمركم ، القوم مأتون إليكم بأرحامهم وسائلوكم الصلح ، فابعثوا الهدى وأظهروا التنبية لعل ذلك يلين قلوبهم .
فلما من نواحي العسكر حتى ارتجت أصواتهم بالتلبية ، وانهى ابن سهيل عمرو ومكرز بن حفص وحويطب بن عبد العري إلى رسول الله ﷺ — وجئا سهيل على ركبته بين يديه — ﷺ — والمسلمون حوله جلوس وتكلم فأطال ، وقال له — ﷺ :
— تحلوا بيننا وبين البيت فنطوف به .

فقال له سهيل :
— والله لا تتحدث العرب بما أنا أحدا ضغطة (أى مأساة) والإكراه) .

ثم جرى الصلح بينهما ، فلما التأم ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب إلى أبي بكر الصديق فقال :
— يا أبا بكر أليس برسول الله ﷺ — حقا ؟

— بلى .

— أولسنا بالمسلمين ؟

— بلى .

— أوليسوا بالمشركين ؟

- بلى .
- فعلام يعطيهم الدية^(١) في ديننا ؟
- أيها الرجل إنه رسول الله وليس نعصى رأيه فاستمسك بعزره^(٢) حتى نموت ، فوالله إنه لعلى الحق .
- أوليس كان يحدثنا أنا سأتى البيت مطوف به ؟
- بلى ، أفأحبرك أنك تأتیه العام ؟
- لا .
- فإنك آتیه ومطوف به .
- ثم جاء عمر إلى رسول الله ﷺ — فقال :
- أأنت رسول الله ؟
- بلى .
- أألسا على الحق وعدونا على الباطل ؟
- بلى .
- فلم تعطى الدية في ديننا إذا ؟
- إني عهد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يصيغى .
- أأنت تحدثنا أنا سأتى البيت فمطوف به ؟
- بلى ، هل أحبرتك أنك تأتیه العام ؟
- لا .
- فإنك آتیه ومطوف به .

(١) الدية : الحصلة الحميسة .

(٢) فاستمسك بعزره : أى تمسك بأمره فلا تحالعه . والعز ليليل بمرلة
الركاب للفرس .

كانت قريش تأبى أن تلقى أسماعها إلى محمد ﷺ ، إنها اضطهدته منذ جاء إليهم من عار حراء يقول لهم إنه رسول الله إليهم . نال منه الرجال وآذوه واضطهدوا أصحابه أشد الاضطهاد وأرغموه أن يرحل من مكة هو وغلame زيد بن حارثة فلجأ إلى الطائف فراحوا يرضحون رحليه بالحجارة حتى سالت الدماء في طريق الآلام .

إنه ما عاد إلى مكة إلا في حوار سيد من ساداتها ، ولم يطل مكثه بها فقد اضطر إلى أن يهاجر إلى المدينة وأن يترك أم القرى وهي القلب لوعة فهو يغادر أحب أرض الله إليه . ولم ترص قريش عن هذه الهجرة مشب القتال بينها وبين المهاجرين والأنصار لا يخو له أوار ، وقد كان أمل قريش أن تقضى على انتها الذي سعه أحلام الآباء .

كانت قريش تطلب رأسه وإذا بها اليوم تقبل أن تجلس معه لتهادنه ، إن الفرق بين اليوم والأمس فرق معجز ، وإنه لصبر عظيم أن تفر قريش بزعامته على المدينة ولكن المسلمين المعتزين بإسلامهم ما كانوا يرون في معاهدة قريش نصرا .

تم الاتفاق شفاهة على ألا يدخل المسلمون مكة هذا العام ويعودوا من حيث أتوا إلى العام القابل ، وعلى أن تخلى لهم قريش مكة ثلاثة أيام يظوفون فيها بالبيت الحرام ، وعلى أن لا يحملوا معهم سوى سلاح الراكب السيوف في القرب ، وعلى أن يتهادن الطرفان ويكف عن

الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

وأمر رسول الله — ﷺ — أوس بن خولة أن يكتب فقال له سهيل :

— لا يكتب إلا ابن عمك أو عثمان بن عفان .

فدعا عليه السلام على بن أبي طالب فأمره فقال :

— اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل بن عمرو :

— لا أعرف هذا ولكن اكتب : باسمك اللهم .

قال المسلمون :

— والله لا يكتب إلا باسم الله الرحمن الرحيم .

وصح المسلمون فقال رسول الله — ﷺ — :

— اكتب باسمك اللهم .

فكتبها ، ثم قال عليه السلام :

— اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو .

فقال سهيل :

— والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا

قاتلناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— والله إني لرسول الله ولو كذبت موسى .

ثم قال لعلي :

— اصح رسول الله .

— والله لا أمحوك أبدا .

وأخذ أسيد بن حضير وسعد بن عبادۃ بيد على كرم الله وجهه ومعه أن يكتب إلا محمد رسول الله وإلا فالسيف بيننا وبينهم . وصحت المسلمون وارتفعت الأصوات وجعلوا يقولون :

— لم نعطي هذه الدنيا في ديننا ؟

فجعل رسول الله ﷺ — يحفضهم ويؤمىء بيده إليهم أن اسكتوا ، ثم قال لعلى :
— أرنيه .

فأراه إياه فمحا رسول الله ﷺ — بيده وقال :

— اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطالحا على وضع الحرب عن الناس عشر مسين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجا أو معتمرا أو يتغى من فضل الله فهو آمن على نفسه وماله ، ومن قدم المدينة من قريش محتارا إلى مصر أو الشام يتغى من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، وعلى أنه من أتى محمدا من قريش بعير إذن ولية رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه .
فاشتد ذلك على المسلمين وقالوا :

— سبحان الله ! كيف برد للمشركيين من جاء مسلما ؟

وعسر عليهم شرط ذلك ، وقال عمر في انفعال :

— يا رسول الله أتكتب هذا ؟ أترضى بهذا ؟

فتبسم — ﷺ — وقال :

— من جاءنا منهم فردناه إليهم سيحعل الله له فرجا ومخرجا ،

ومن أعرض عنا وذهب إليهم فلما سمعوا في شيء وليس ما بل هو
أولى بهم .

فبينا رسول الله ﷺ — هو وسهيل بن عمرو يكتبان الكتاب إذ
جاء أبو جدل بن سهيل بن عمرو إلى المسلمين يرسف في الحديد
متوشحا سيفه ، أنه كان قد أسلم وحسنه أبوه فلما سمع بأن المسلمين
في الحديبية فر من سجنه وجاء إلى رسول الله ﷺ — ورمى بنفسه
بين أظهر المسلمين ، فحف إليه أخوه عبد الله بن سهيل بن عمرو من
صفوف المسلمين وراح يحتضنه ويقبضه ، وهرع المسلمون إليه
يرحون به ويهتفون . فلما رأى سهيل أنه أبا جدل قام إليه وأخذ عصا
من شجرة به شوك وضرب به وجه أبي جدل صرنا شديدا حتى رق
عليه المسلمون وبكوا ، وأخذ سهيل بتلايب ابنه وقال :

— يا محمد هذا أول ما أقاصيك عليه أن تردده إلي ، لقد لحت
القضية بيني وبينك قل أن يأتيك هذا ؟

— لم نفرض الكتاب بعد .

— بل لقد لحت القضية بيني وبينك (أى تم العقد) .

— صدقت .

فجعل سهيل يحرقه ليرده إلى قريش وجعل أبو جدل يصرح بأعلى
صوته :

— يا معشر المسلمين أريد إلى المشركين يعتوبى عن دى ، ألا
ترون ما لقيت ؟

ورأى المسلمون آثار التعذيب ، إنه اضطهد ليرجع عن الإسلام
وإن رسول الله ﷺ — يقل أن يردده إلى قريش ليعذبه ، فراد

الناس ذلك إلى ما بهم ودخلهم من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون ، فقال رسول الله ﷺ :

— يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك وللمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيسا وبين القوم صلحا وأعطيناهم ذلك وأعطينا عهد الله ألا نعدر بهم .

وقال النبي ﷺ : — سهيل :

— فأجره لى .

— ما أنا مجير ذلك لك .

— بلى فافعل .

— ما أنا بفاعل .

فقال مكرز وحويطب :

— قد أجرناه لك ، لا نعدبه .

وقال حويطب لمكرز :

— ما رأيت قوما قط أشد حيا لمن دخل معهم من أصحاب

محمد ، أما لى أن أقول لك : لا تأخذ من محمد نصما أبدا بعد هذا اليوم حتى يدخلها عوة .

فقال مكرز :

— وأنا أرى ذلك .

وعند ذلك وثب عمر بن الخطاب ومشى إلى حبس أبى جندل وأبوه

سهيل بحبه يدفعه ، وصار عمر يقول لأبى جندل :

— اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم كدم

كلب .

وراح يدنى قائم السيف منه وهو يرجو أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، ففطن الرجل بأبيه .

ودخل أبو جندل مكة في جوار حويطب ومكر ، وعاد سهيل ليستأنف كتابة الهدنة فقال السى — ﷺ :

— وإن بيننا عية^(١) مكفوفة ، وإنه لا إسلال ولا أعلال^(٢) . وإنه من أحب أن يدحل في عقد محمد وعهده دحل فيه .

فتواثت خزاعة فقالوا :

— نحن في عقد محمد وعهده ونحن على من وراءنا من قوما .

وتواثت بنو بكر فقالوا :

— نحن في عقد قريش وعهدهم .

وهمس حويطب في أذن سهيل :

— بادأنا أحوالك بالعداوة وكانوا يستترون ما قدحلوا في عهد محمد وعقده .

وفهم سهيل أنه يقصد خزاعة فقال في صوت خافض :

— ما هم إلا كغيرهم . هؤلاء أقاربنا ولحمنا قد دخنوا مع محمد .

قوم احتاروا لأنفسهم أمرا فما تصنع بهم ؟

— تصنع بهم أن نضر عليهم حلفاءنا بنى بكر .

— إياك أن تسمع هذا منك بنو بكر فإبهم أهل شؤم فيسبوا خزاعة

فيعصب محمد لحلفاءه فيقص العهد بيننا وبينه .

فقال رسول الله — ﷺ :

(١) أى أمورا مطوية في صدور سبعة (٢) أى لا سرقة ولا حيانة

— وعلى أن تخلوا بيننا وبين البيت فطوف به .

فقال سهيل :

— والله لا تتحدث العرب أنك أخذتنا ضعطة ولكن لك ذلك من العام المقبل .

فكتب : وعلى أن ترجع عما عامك هذا فلا تدخل عليها مكة ، فإذا كان عام قابل خرجنا عنها لك فدخلتها بأصحابك فأقامت بها ثلاثا ، ولا تدخلها بالسلاح إلا السيوف في القرب وسلاح الراكب .

ولقي عمر من تلك الشروط أمرا عظيما ، وجعل يرد على رسول الله ﷺ — الكلام حتى قال أبو عبيدة بن الجراح :

— ألا تسمع يا بن الحظاب رسول الله ﷺ — يقول ما يقول ؟ تعود بالله من الشيطان الرجيم .

فجعل يعود بالله من الشيطان الرجيم حتى قال له رسول الله ﷺ —

— يا عمر إني رضيت وثأبي !

وفرغ رسول الله ﷺ — من الصلح وأشهد عليه رجالا من المسلمين : أبا بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسعدة ورجالا من فريش حويطيا ومكرزا .

وقال سهيل بن عمرو :

— يكون هذا الكتاب عندي .

وقال رسول الله ﷺ — :

— بل عندي .

فأخذه رسول الله ﷺ ، ثم كتب محمد بن مسلمة لسهيل نسخة أخذها عنه .

كان حمل أبي جهل في الهدى في رأسه حلقة من ذهب ، ففر من الحديبية ودخل مكة وانتهى إلى دار أبي جهل . وحرص في أثره عمرو ابن غنمة الأنصاري فأخذ ، سفهاء مكة أن يعطوه حتى أمرهم سهيل بن عمرو بدفعه ، قال :

— إن تردوه فاعرضوا على محمد مائة من الإبل فإن قبلها فأمسكوا هذا الجمل ، وإلا فلا تتعرضوا له .

فعرضوا عليه ﷺ — ذلك فأبى وقال :

— لو لم يكن هذا الجمل للهدى لقببت المائة .

كان أصحاب رسول الله ﷺ — حرجوا وهم لا يشكون في الفتح بعد أن قص عليهم رؤياه ، فلما انتهى الأمر بالهدنة دخل الناس أمر عظيم ، فلما قال عليه السلام لأصحابه :

— قوموا فأنحروا ثم احلقوا .

لم يقم منهم أحد فعاد يقول :

— قوموا فأنحروا ثم احلقوا .

إبهم يسمعون ويرونه ولكمهم أبوا أن يطيعوا أمره ، فقال :

— قوموا فأنحروا ثم احلقوا .

فلم يقم منهم أحد ، فدخل رسول الله ﷺ — عني أم سلمة وهو شديد العصب فاصططحع فقالت :

— مالك يا رسول الله ؟

— عجباً يا أم سلمة ، ألا تترين إلى الناس ! أمرهم بالأمر فلا

يفعلونه ، قلت لهم : اخلقوا وانحروا وحلوا مرارا فلم يحبني أحد من الناس إلى ذلك وهم يسمعون كلامي ويظنون وجهي .

— يا رسول الله لا تلمهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح . يا نبي الله اخرج ولا تكلم معهم أحدا كلمة حتى تشر بدنك وتدعو حالقتك فيحلقك .

وأحد عليه السلام الحربة وقصد هديه وأهوى بالحربة إلى البدن رافعا صوته :

— باسم الله والله أكبر .

ثم دخل — صلى الله عليه وسلم — قبة له من آدم^(١) أحمر ودعا بخراش بن أمية ابن الفضل الخزاعي فحلق رأسه .

فلما رأى الناس ذلك قاموا فحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا عما ، وحلق رجال وقصر رجال وهم يقولون :

— لعلنا نظوف بالبيت .

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : —

— يرحم الله المحلقين .

قالوا :

— يا رسول الله والمقصرين ؟

— يرحم الله المحلقين .

— يا رسول الله والمقصرين ؟

· (١) آدم : المجلد .

- يرحم الله المحققين .
- يا رسول الله والمقصرين ؟
- يرحم الله المقصرين .
- يا رسول الله فلم ظهرت الترحم على المحققين دون المقصرين .
- لأنهم لم يشكوا .

(٥)

عابت الشمس في الأفق العربي وراح الليل يجر جر أذياله على الحديدية ، وقبل أن يؤذن بلال بالعشاء أصابهم مطر نهم ييل أسفل نعالهم فقال عبد الله بن أبي بن سلول :

— هذا نوء الخريف مطرنا بالشعري .

وحان أوان العشاء فارتفع صوت بلال بالأذان فأمر — ﷺ — مباديه أن يبادى ألا صلوا في رجالكم ، فصلى عليه السلام في قبته وصلى الناس في حيامهم وقد توجهوا إلى البيت الحرام وفي القلوب أشواق وفي النفوس أحران . فقد خرجوا من المدينة لا يشكون لحظة هي أنهم سيظفون بالبيت فإذا رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يقبل ذلك الشرط الذي اشترطته قريش من أن يرجع عنهم عامه هذا فلا يدخل عليهم مكة ، فإذا كان عام قابل خرجوا عنها له فدخلها بأصحابه فأقام بها ثلاثا .

كان عزيزا عليهم أن يصلوا إلى الحديدية وأن يشموا غير الحرم ثم

يدوروا على أعقابهم راجعين دون أن نكتحل أعيثهم بتراب مكة وأن يطوفوا بالبيت وأن يشربوا من زمزم وأن يسعوا بين انصفا والمروة ، فكانوا على يقظتهم وفي مامهم يحلمون باسلام الححر والظروف والتكبير والتهليل .

وفي الفجر جلجل صوت بلال بالأذان فخرجوا من رحالهم واصطف خيف رسول الله — ﷺ — حتى إذا قضيت الصلاة قال : — أتدرون ما قال ربكم ؟

— الله ورسوله أعلم .

— قال الله عز وجل : (أصبح من عبدي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مطرنا برحمة الله وفضله فهو مؤمن بي وكافر بالكواكب ، ومن قال مطرنا بحكم كذا فهو مؤمن بالكواكب كافر بي) .

وأحس عبد الله بن أبي وخزأ يخز روحه ولكنه لم يضطرب ، فإيا طالما نافع وإيا طالما قال لرسول الله — ﷺ — استعمر لي فيستعفر له .

وأمر رسول الله عليه السلام بالرحيل فحملت الخيام على ظهور الإبل ورفعت النساء في الهوادح ، وانطلق جيش المسلمين قاصدا المدينة وقد حلف وراءه شجرة الرضوان ودكريات أليمة على القوس ، وقد كان أقسامها أنهم طووا ملابس الإحرام دون أن يطوفوا بالبيت العتيق .

وطل الناس صامتين في وجوههم أسى ، فقد حيل بهم وبس نسكهم فهم بين الحزن والكآبة حتى سقط الليل ، ودنا عمر بن الخطاب من رسول الله — ﷺ — فسأله عن شيء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فحرك عمر بعيره حتى تقدم أمام الناس وحشى أن يكون نزل فيه قرآن .

وبلغ رسول الله ﷺ — كراع الغميم فوقف على راحته فراح
الناس يشطون رواحلهم بالحداء ، فقال بعض الناس لبعض :

— ما بال الناس ؟

— أوحى إلى رسول الله ﷺ .

فخرجوا يعدون^(١) السير فوجدوا اسي — ﷺ — واقفا على
القصواء ، فلما اجتمع إليه الناس قرأ :

﴿ إنا فتحا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما
تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وبصرك الله نصرا
عرييا . هو الذي أرسل السكينة في قلوب المؤمنين ليردادوا إيماننا مع
إيمانهم والله جود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما . يدخل
المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها
ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما . ويعذب
الماضقين والمساقيات والمشركيين والمشركات الظانين بالله ظن السوء
عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم ومساءت
مصيرا . والله جود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما . إنا
أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . لتؤمنوا بالله ورسوله وتعرووه وتوقروه
وتسبحوه بكرة وأصيلا . إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق
أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله
فسيؤتيه أجرا عظيما . سيقول لك المحضون من الأعراب شعلنا أموالنا

(١) أعد السير : أسرع فيه .

وأهلوا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك
لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما
تعملون خبيرا ، بل طئتم أن لن يقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم
أبدا وزين ذلك فى قلوبكم وطئتم ظل السوء وكنتم قوما بورا • ومن
لم يؤمن بالله ورسوله فأبنا أعتدنا للكاافرين سعيرا • والله ملك السموات
والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما •
سيقول المحلفون إذا انطلقتم إلى معانم لتأخذوها دروبا تشعكم يريدون
أن يدلوا كلام الله قل لن تشعوا كذلك قال الله من قل فسيقولون بل
تحسدونا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا • قل للمخلفين من الأعراب
ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن طغيوا
يؤتكم الله أحرا حسبا وإن تتولوا كما توليت من قل يعذبكم عذابا
أليما • ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض
حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن
يتول يعذبه عذابا أليما • لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت
الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا •
ومعانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما • وعدكم الله معانم
كثيرة تأخذونها فغفل لكم هذه وكف أبدي الناس عنكم ولتكون آية
للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما • وأحرى لم تقدروا عليها قد أحاط
الله بها وكان الله على كل شيء قديرا • ولو فأنلكم الدين كفروا لولوا
الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا • سئ الله التى قد خبت من قل ولن
تحد لسئ الله تبديلا • وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم
بظن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا • هم

الدين كفروا وصلوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوا أن يبلغ
 مجله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطهروهم
 فتصيبكم منهم مفرّة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو ترونوا
 لعديبا الدين كفروا منهم عذابا أليما • إذ جعل الدين كفروا في قلوبهم
 الحميّة حميّة الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين
 وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء
 عليما • لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن
 شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تحافون فعلم ما لم تعلموا
 فجعل من دون ذلك فتحا قريبا • هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين
 الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا • محمد رسول الله
 والدين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سحداً يتتغون
 فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم
 في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستعظم
 فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وغد الله الدين آموا
 وعملوا الصالحات منهم مفرّة وأجر عظيم ﴿١﴾ .

فقال عمر :

— أفتح هو يا رسول الله ؟

— نعم والذي نفسى بيده إنه لفتح .

وتكلم بعض الصحابة وقال :

— ما هذا بفتح لقد صدونا عن البيت وصد هدينا .

فقال — ﷺ — لما بلغه ذلك :

— بئس الكلام بل هو أعظم الفتح . لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم وسألوكم القضية ويربحوا إليكم في الأمان ، وقد رأوا معكم ما كرهوا وأطعركم الله عليهم وردكم الله سالمين مأجورين فهو أعظم الفتح .

أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أحراكم ؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ راعت الأبصار وبلغت القلوب الحاسر وتطون بالله الظنون ؟

فقال المسلمون :

— صدق الله ورسوله فهو أعظم الفتح ..

وقدم رسول الله — ﷺ — المدينة ، وما كاد يستقر بها حتى هاجرت إليه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أسلمت بمكة وبايعت قبل أن يهاجر رسول الله — ﷺ . إنها عرفت أن رسول الله عليه السلام أمر بقتل أبيها يوم بدر فلم تحقد على نسي الإسلام فقد كانت تعرف أنه على الحق وأن أباهما علي الباطل ، فتم تأخذها العرة بالإثم بل طلقت وفيه لدينها الذي انشرح له صدرها واطمأن له فؤادها .

إنها سمعت بالمسلمين في الحديبية فهرها الشوق إلى الحروح إلى إخوانها المسلمين فخرحت من مكة لتتبع بالأحبة ، ولكنها بلغت الحديبية بعد أن تركها رسول الله عليه السلام ، فلم ترص بالعودة إلى المشركين بل راحت تشتد على الطريق وحدها وقد تورمت قدمها من المشي ولكنها كانت تقاوم التعب ، فكل خطوة كانت تديها من البور

الذى شاع من المدينة ليغمر العالمين .

إنها أحت عثمان بن عفان لأمه ، فلما بلغت المدينة لم تمكر فى أن تذهب إلى دار أخيها بل اتجهت إلى بيع النور إلى دور الرسول عليه السلام ، ودخلت على أم سلمة وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة وراحت تبثها محافوها أن يردها رسول الله — ﷺ .

فما دخل — ﷺ — على أم سلمة أعلمته بها فرحب بأمر كلثوم ، فحرح أحوها عمارة بن عقبة والوليد بن عقبة بن أبى معيط فى ردها بالعهد ، فلما دخل على رسول الله عليه السلام قالا :
— يا محمد أوف لنا بما عاهدتنا عليه .

ودخل عليه السلام على أم سلمة وعدها أم كلثوم فأحرها أن أحوها بصلبان ردها بالعهد الذى يسه وبين قريش ، فقالت بنت عقبة :
— يا رسول الله أنا امرأة وحال النساء إلى الصعب فتردنى إلى الكفار يفتونى ولا صبر لى .

وخرج رسول الله — ﷺ — من عندها وهو فى حيرة من أمره أيردها إلى الكفار ليفتنوها ولا صبر لها على إيدائهم أم يحبسها عنهم ، وفيما هو يكر نزل عليه الروح الأمين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاثْبُوهنَّ اللَّهُ أَعْلَمَ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لِهِنَّ وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَكَفُوهُنَّ إِذَا أَتَيْنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ بِعَصَمِ الْكُفَّارِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يُحْكِمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَانُوا الَّذِينَ دَهِبَتْ أَرْوَاجُهُمْ مِثْلُ مَا أَنْفَقُوا

وانتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ﴿١﴾ .

ودخل عمر بن الخطاب ليمتحن أم كثنوم بنت عقة فحلفها بالله ما خرجت رعة بأرض عن أرض ، وبالله ما خرجت من بعض روح ، وبالله ما خرجت لالتماس ديا ولا رحل من المسلمين ، وبالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله .

وحملت أم كثنوم فقطعت كل أمل يداعب أحويها فى ردها فعادا إلى مكة وأجبرا قرىشا بذلك فرضوا أن تحبس النساء ، ولم يكن لأُم كثنوم روح بمكة . فلما قدمت المدينة زوجها عليه السلام ريد من حارثة ولم تثر هذه الريحه روية بين المؤمنين ، بعد أن زوج نسي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه مولاة من امة عمته الشريفة السب ريب ست حشش . فقد قضى الإسلام على عادة استهجان زواج المولى من الحرة وعرس فى القوس أن الناس سواسية وأن لا فصل لعربي على عجمي إلا بالتقوى .

أمر الله المسلمين بالآل يمسكوا بعصم الكوامر . فلما نزل بهي المسلمين عن الفاء على نكاح المشركات طلق الصحابة كل امرأة كاهرة فى نكاحهم ، حتى أن عمر بن الخطاب كان له امرأتان فطلقهما فتروح إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية . وحاءت إلى رسول الله — ﷺ — جماعة من النساء المؤمنات مهاجرات من مكة من حملتهن سيعة بنت الحارث ، فأقل زوجها وهو مسافر المحرومى طالبا لها ، فاستحلف — ﷺ — سيعة

محلفت أنها ما هاجرت ناشرة ولا هاجرت إلا لله ولرسوله ،
فأعطى — عليه السلام — روحها مسافرا ما أعق عليها فتزوجها عمر بن
الخطاب ، فما كانت تترك امرأة مؤمنة في المدينة دون أن تحصى .

(٦)

حرج — عليه السلام — على أصحابه فقال .
— أيها الناس إن الله بعثني رحمة وكافة فأدوا عني رحمكم الله ،
ولا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم عليه
السلام .

فقال أصحابه :

— وكيف اختلف الحواريون على عيسى عليه السلام يا رسول
الله ؟

— دعاهم لمثل ما دعوتكم له ، فأما من بعثه معثا فرييا مرضى
وسلم ، وأما من بعثه معثا بعيدا فكره وأبى .

وكتب — عليه السلام — كتابا إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام فقيل له :
— يا رسول الله إهم لا يقرءون كتابا إلا إذا كان محتوما .
فاتخذ رسول الله — عليه السلام — خاتما من فضة ، وكان نقش خاتمه
ثلاثة أسطر محمد سطر ورسول سطر والله سطر . وبعد أن حتم
الكتاب قال :

— من يظن بكلامي هذا فيسير إلى هرقل وله الحبة ؟
فتقدم دحية الكلبي وأخذ الكتاب ثم أطلق إلى بصرى فإذا بالرومان

والعرب يموح بعضهم فى بعض فى الأسواق وفى الطرق وفى كل مكان ، فإن هرقل قد انتصر على فارس وقد جاء ماشيا إلى بيت المقدس وفاء لندره الذى بذره لربه إذا ما بصره الله .

كان السر الرومانى يرفرف على الدور وعلى الحوايت وعلى مائى الحكومة ، وكانت الأسواق غاصة بالسلع التى جاءت من القسطنطينية ومصر وسورية واليمن ، وكان أبو سميان بن حرب وحكيم بن حرام وسادات قریش فى عزة عاكفين على شراء الحنطة والخمور والحرير وأوانى الذهب والمفضة بعد أن باعوا الخور وما جلبوه من اليمن فى رحلة الشتاء .

وانطلق دحية إلى الحارث ملك غسان عظيم بصرى والتمس مقابلة قيصر ، فأرسل معه عدى بن حاتم ليوصله إلى قيصر فاطلقا إلى القيصر العظيم بيت المقدس ، فلما دخلوا على رجال القصر قالوا لدحية :
— إذا رأيت الملك فاسجد له ثم لا ترفع رأسك أبدا حتى يأتى لك .

— لا أفعل هذا أبدا ولا أسجد لعير الله .

— إذا لا يأخذ كتابك .

وشردوا يفكرون فقال رجل منهم :

— أنا أدلك على أمر يؤخذ فيه كتابك ولا تسجد له .

— وما هو ؟

— إن له على كل عتة مسرا يجلس عليه ، فضع صحيفةك تحاه

السر فإن أحدا لا يحرکها حتى يأخذها هو ثم يدعو صاحبها

فدحل دحية إلى قاعة العرش حيث ينظر هرقل المظالم ، فوضع

كتاب رسول الله ﷺ — تجاه المير وعيه عليه لا تعارفه ، فلما جاء قيصر ومن حلفه من عظماء مملكته ورأى الكتاب تناوله وراح يقلبه ويطرف فيه فوجد عليه عنوان كتاب العرب ، فدعا صاحبه فتقدم دحية الكندي وقال إنه كتاب من محمد رسول الله ﷺ — إلى قيصر العظيم .

فدعا هرقل الترجمان الذي يقرأ بالعربية فقرأ الرجل الرسالة وأحد يترجمها ودحية الكندي يصر إلى قسمات وجهه فيبصر وقد حبست أنفاسه ، حتى إذا ما انتهى الترجمان من الرسالة قال هرقل . — انظروا لنا من قومه أحدا نسأله عنه .

كان أبو سميان بن حرب وحكيم بن حزام ورجال من قريش في غرة فاتاهم وإلى شرطة قيصر فانطلق بهم حتى قدموا عليه في بيت المقدس ، فإذا هو جالس وعليه ألتاج وعظماء الروم حوله ، فلما رأوه حروا له ساجدين ولم يرفعوا رءوسهم حتى أدن لهم . ودعا قيصر ترجمانه وأمره أن يقرأ كتاب السي ﷺ — فراح الرجل يقرأ :

— بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين (فلاحى القرى) ، ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بينا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتحد بعضنا بأربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ^(١) .

وقال قيصر لترجمانه :

— سلهم أيهم أقرب نسبا لهذا الرجل الذي غرح بأرض العرب
يزعم أنه نبي ؟

فقال أبو سفيان :

— أنا أقربهم نسبا إليه .

— ما قرأته منه ؟

— هو ابن عمي .

— ادن .

ثم أمر أصحابه فحملوا حلف ظهره ، ثم قال لترجمانه :

— قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل
الذي يزعم أنه نبي وإنا جعلتكم حلف ظهره لتردوا عليه كذبا إن قاله .
كان حكيم بن حزام ممن جلس حلف أبي سفيان وكان قد عزم
عبي أن يرد كذب أبي سفيان إذا لحا إلى الكذب ، فمحمد بن عبد الله
زوج عمته خديجة الأثيرة عنده . فإن كان قلبه قد عمى عن التور الذي
جاء به ابن عبد الله فقد أبي صميره أن يسمع عنه كذبا ثم يلزم
الصمت . وحاف أبو سفيان أن يؤثر عنه الكذب ، ولولا أن يقل عنه
الكذب إلى قومه ويتحدثوا به في بلاده لكذب عليه لبعضه إياه ومحجته
نقصه .

ثم قال هرقل لترجمانه :

— كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟

— هو ما ذو نسب .

— قل له هل قال هذا القوم أحد منكم قلبه ؟

— لا .

— قل له هل كتمت تهمونه بالكذب على الناس قل أن يقول ما قال ؟

— لا .

— هل كان من آباءه ملك ؟

— لا .

— كيف عقله ورأيه ؟

— لم نعب عليه عقلا ولا رأيا قط .

— فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

— بل ضعفاؤهم .

— فهل يزيلون أم يقصون ؟

— بل يزيلون .

— فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟

— لا .

— فهل يغدر إذا عاهد .

— لا ، ونحن الآن منه في ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها .

— فهل قاتلتموه ؟

— نعم .

— فكيف حرككم وحربه ؟

— دول وسجال ، ندال عليه مرة ويدال عليها أخرى .

— فما يأمركم به ؟

— يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ، وبينها عما كان

يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والزكاة والعفاف ، ويأمرنا بالعهد وأداء الأمانة .

فقال لثرجمانه :

— قل له إنني سألتك عن سببه فرعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك هل هذا القول قاله أحد منكم قبله فرعمت أن لا ، فلو كان أحد منكم قال هذا القول قبله لقلت هو يأثم بقول قبله ، وسألتك هل كنتم تنهونهم بالكذب قل أن يقول ما قال فرعمت أن لا ، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك هل كان من آباءه ملك فقلت لا ، فلو كان من آباءه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ، فقلت ضعفاؤهم وهم أشاع الرسل ، وسألتك هل يريدون أو ينقصون فرعمت أنهم يزيدون وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل يرتد أحد منهم سحطة لديه بعد أن يدخل فيه ، فرعمت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب إذا حصل به إشراح الصدور والفرح به لا يسحطه أحد ، وسألتك هل قاتلتموه قلت نعم وإن حربكم وحره دول وسجال يдал عليكم مرة وتداولوا عليه أخرى وكذلك الرسل تبلى ثم تكون لها العاقبة ، وسألتك ماذا يأمركم به فرعمت أنه يأمركم بالصلاة والصدقة ، والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك هل يعذر فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر لأنها لا تطلب حظ الدنيا الذي لا يمانه طالبا إلا بالعذر فعلمت أنه نبي ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أظن أنه فيكم . وإن كان ما حدثتني به حقا فيوشك أن يملك موضع قدمي .

وشرد هرقل لحظة تذكر خلالها تلك البوّة التي قالها له المجمعون وهم يرتجفون فرقا : سيرت ملكك شعب مختون . كان يظن أن اليهود ذلك الشعب فصب عليهم سوط عذاب ، وما دار بحلده أبدا أن العرب هم ذلك الشعب فقد كانوا أهون من ذلك لولا أن شرفهم الله بالرسالة التي رفعتهم من الحصيصة إلى دروة المجد .

ثم قال قيصر في تواضع :

— ولو أعلم أنني أخلص إليه لتجشمت مع المشقة لقيه ، ولو كنت عبده لغسلت عذ قدميه ولا أطلب منه ولاية ولا منصبا .

وعلت أصوات الدين حوله وكثر لعظهم ، وأكثر ابن أخي قيصر الغيظ الشديد . إنه قل لعمه يوم أن جاءه كتاب رسول الله عليه السلام :

— قد ابتدأ بنفسه وسماك صاحب الروم ، ألق به .

فقال له هرقل وكان رجلا متديا حارب العرس ليعيد الصليب المقدس إلى بيت المقدس ، وحب ماشيا من القسطنطينية إلى المدينة المباركة :

— والله إنك لضعيف الرأي ، أرمى بكتاب رحل يأتيه الساموس الأكبر وهو أحق أن يبدأ بنفسه ! ولقد صدق أنا صاحب الروم وما أملكهم ولكن الله سحرهم لي ولو شاء لسلطهم عليّ كما سلط فارص على كسرى .

وطل الصخب مدة وأبو سفيان والذين معه لا يدرون ما يقولون ، ثم أمر هرقل بانزال دحية الكلبي وإكرامه وأمر بإخراج أبي سفيان وأصحابه . وبينما أبو سفيان والذين معه ينسحبون دون أن يولوا قيصر

طهورهم قال قيصر لقومه :

— يا قوم أَلستم تعلمون أن بين يدي الساعة ميا بشركم به عيسى
ابن مريم ترحون أن يجعله الله فيكم ؟
قالوا :

— بلى .

— فإن الله قد جعله في غيركم وهي رحمة الله عز وجل يصعها
حيث يشاء .

وحرص أبو صفيان وأصحابه من القصر وهم صامتون تدور في
رعوسهم تلك المناقشة التي دارت بين هرقل وشيخ بني أمية وقد
تملكهم العجب . وتذكر حكيم بن حزام أحاديث عمته حديجة عن
زوجها الأمين وأقوال ورقة بن نوفل فراح يسأل نفسه : ترى أبوحم
عن التصديق خشية أن تذهب مفاحره في قريش ؟ إنه صاحب دار
النبوة وصاحب المكاية المرموقة في مكة ، أفيضحي بكل أمحاده
ليشبع أبا القاسم زوج سيدة نساء قريش ؟ !
ورفع أبو صفيان رأسه وقال :

— لقد أمر (عظم) أمر ابن أبي كشة . هذا ملك بني الأصفر
يحافه .

وحضر على قلبه أن أبا القاسم سيظهر ، فراحت الغيرة تهش صدره
وابتاه خوف شديد .

كانت بيت المقدس غاصة بالناس ، وراح الشعب يتدافعون بالمراكب ليصلوا إلى ميدان قصر قيصر ، فهرقل العظيم الذى جاء حاجا ماشيا على قدميه شكرا لله على أن نصره على أعدائه العرس سيعود اليوم إلى حمص ومها إلى القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية التى ترهبه بالنصر ، وإن كانت المذاهب المتنافرة قد قطعت أوصالها ولم تجعلها على قلب رجل واحد .

كانت الأعلام تحمق على القصر وقد اصطف الحوود أمامه وقد لبسوا الحوذ ، والدروع تتألق فى الشمس نهر الأبصار ، ووقف الناس على جانبي الطريق يمدون أعينهم إلى حيث سيخرج إمبراطورهم الظافر ، فلما نفخ فى الأبواق إيدانا تتحرك الركب العظيم ماح الناس بعضهم فى بعض واشترأت الأعناق وحست الأنفاس . ومس الأذان وقع حوافر الحيل فامتلأت العوس نشوة ، فعما قليل يرون العجل الذى امترد الصليب وأعادته إلى كنيسته المقدسة فرد إلى الأرواح الحرة بشرها ومسح عن كواهل شعبه دس العار الذى حللهم^(١) مس مرت عليهم كأشبع كابوس يمر على شعب .

وحرح الفرسان على ظهور الحياض يحملون رماحا بأعلامها رايات تحمق بالسر الرومانى ، ففعالت الأصوات بالهتاف حتى إذا ما ظهرت

(١) حللهم : عطى عليهم .

عربة الإمبراطور ضح الناس بالتصفيق وارتفعت هتافاتهم بحياة المقدس
تشق عيان السماء ، فحمل هرقل يرد تحياتهم بالنلويح إليهم بيده
وابتسامة عريضة رسمها على شفتيه .

كان الموكب فخما ينم عن الذخ والثراء ، ولكن هرقل كان يعرف
في قرارة نفسه أن حزنائه قد حلت وأن حرب العرس قد أدبت كل ما
عنده وأنه قد استدان من البابا ورجال الدين مبالغ ضخمة قد تدفعه إلى
فرص صرائب جديدة على رعاياه الذين أنقصت الصرائب ظهورهم .
وكان البشر يبدو على وجوه الناس ولكن هرقل كان يعرف أن بشر
اللحظة سرعان ما يغيص بعد أن يتعد عن أعيهم ، إمبراطوريته ممرقة
بين المؤمنين بذهب وحدة طبيعة المسيح والمؤمنين بأن للمسيح
طبيعتين منفصلتين ، فهو إنسان لما كان على الأرض وهو إله بعد أن
ارتفع إلى السماء . وقد حلفت الماطرات بين القائلين بوحدة طبيعة
المسيح وبين القائلين بدلاهور والناسوت صدعا في إمبراطوريته يهدد
بالانهيار .

وشرد ذهه يفكر في إمبراطوريته المترامية الأطراف فكانت سورية
ومصر أول ما شغل رأسه . فكيسة بيت المقدس على مذهب بحالف
مذهب القسطنطينية ، وكنيسة الإسكندرية تت الثورة في نفوس
رعاياها الرابدة المصطهدين المرفس بالضرائب .

واحتلت كل كياه تلك السوء اقائلة بأن شعبا محتوا سيترع مه
مدكه ، ولوى شفته السفلى سحرية من تصرفاته . لقد سام اليهود ألوان
الاصطهاد وما خطر له على قلب لحظة أن العرب هم ذلك الشعب ،
فلو تمت لهم الوحدة السياسية وامتشارهم الإلهام الديني فسيزعون مه

سورية ومصر ، فعقيدة الإسلام الدينية أقرب إلى عقيدتهم من عقيدة خلقيدونية^(١) .

إنه يجب أن يفور بصدقة المؤمنين بوحدة طبيعة المسيح ، وهذه الصداقة ستثير عليه البابا في القسطنطينية وأتباع الكنيسة المؤمنة باللاهوت والناسوت والأم مريم حامية القسطنطينية ، لئنه يستطيع أن يجد فكرة توحد قلوب المسيحيين المتناصرة .

واستولت على عين داته الأقوال التي قالها دحية الكلبي رسول نبي الإسلام عليه السلام ، إن دعوة محمد بن عبد الله تقضى على المتناقضات بين المذاهب السائدة في إمبراطوريته ، وهي قادرة على أن تؤلف بين قلوب القائلين باللاهوت والناسوت والقائلين بالطبيعة الواحدة ، وهو يستشعر في أعماقه أنه دين الفطرة الذي تغلبه العقول والنفوس ، فما دام المسيح قد بشر بفارقليط آخر يبقى مع الناس إلى الأبد ، فلماذا لا يكون نبي الإسلام هو ذلك النبي الذي بشرت به الأنبياء ؟

أصبح يؤمن أن ملكه لن يثبت إلا إذا اعتنق الإسلام .
وراح شبح السوء القائلة بأن شعبا محتونا سيسلبه ملكه يتحارب له فيرداد رعة في أن يدحل في الدين الجديد ليقتد عرشه ، فقد تركرت كن أمانيه في الإبقاء على ملكه ونات يرتحف فرقا من أن يذهب سلطانه أو يثور عليه قومه فيقتلوه .

(١) مدينة اجتمع بها المجمع المسكوبي الرابع وقد اعتر مذهب وحدة طبيعة المسيح زندقة .

إنه فى حيرة لن يخلصه منها إلا أن يعرض الأمر على عظماء الروم إذا ما بلغ حمص . وجعل يتمحل الزمن حتى إذا ما لاحت حمص لعينيه راح قلبه يحرق بين جيبه كجناح حمامة ، واستشعر رهبة لم يحس مثلها وهو يخوض غمار الحرب فهو مقل على أخطر عمل يواجهه فى حياته ، وهل هناك أخطر من أن يطلب من الناس الانسلاخ من دينهم لاعتناق دين جديد ؟

ودخل حمص بين هتاف الجماهير ، وراحت عربته تخترق أقواس النصر حتى القصر وهو غارق فى مخاوفه لا يكاد يحس بالشعب الذى خرج لتحيته ولا يكاد يسمع الهتافات التى هزت جانب المدينة هزا . ودخل القصر وهرع عظماء مملكته لتهنئته ، فأمر أن تعلق الأبواب ثم اطلع فقال :

— يا معشر الروم هل لكم فى الملاح والرشد وأن يثبت ملككم فنباعوا هذا النبى ؟

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب وهم يقولون :

— أئدعونا أن نترك المصرية ونصير عبيدا لأعرابى ؟

وأمر عظماء مملكته مناديا ينادى :

— ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعة .

فدخلت الأجناد فى سلاحها وطافت بقصره تريد قتله . فأرسل

إليهم :

— إنى أردت اختبار صلاتكم فى دينكم فقد رضيت .

وطلب من عظماء مملكته أن يعودوا ، فلما قمنوا راجعين قال لهم :

— إني قلت مقاتلى أختير بها شدتكم على دينكم فقد رأيت .

فسجدوا له ورضوا عنه وإن كان في قرارة نفسه يستشعر عدم رضا عما وصلت إليه الأمور ، فهو يرجو في قرارة نفسه أن يهتدى إلى فكرة توافق بين المذاهب المسيحية المشازعة في مملكته ، فإن كان عظماء الروم قد رفضوا اعتناق الإسلام فلا بد من العثور على فكرة ترصى أصحاب المذاهب جميعا ليستريح من ذلك الشقاق الذى يهدد ملكه بالزوال .

وراحت القسطنطينية تنأهب لاستقبال هرقل المطفر ، فأخذ رجال الدين يعدون كنيسة الحكمة المقدسة أيا صوفيا للترحيب بالبطل الذى أعاد الصليب المقدس إلى بيت المقدس ، وجعل رجال القصر يزيون التمثال الضخم المواجه للقصر وكان لثور يقاتل أسدا . وبين مدخل القصر وحلبة السباق أقيمت الزينات ورفعت الرايات ، وراح السر الرومانى يرمف على بوابة بيجاي التى تقود إلى حى الغايا .

وأصابت نوافذ المركز التجارى لسوق الحرير ليلا ، فحاء الناس إلى دار الأنوار يبطرون ثم يتدفقون إلى ساحة امتعاض الجيش التى غصت بكرائم البيزنطيات والشباب والغايا .

وكانوا أخلاطا من سورية ومصر والبلقان والرومان ، وكان نصيب البيزنطى من التحزب العصرى صبيلا قدماؤهم كانت مختلطة ، وما كانوا يهتمون بالأصول بل بالدين فكل من آمن بالعقيدة الأرثوذكسية المقولة فى البلاد واستطاع التحدث باليونانية يلقي مهم القول كأخ فى المواطنة ، وكان احتقارهم العميق للأجانب لأنهم كفرة ورياقنة وأجلافا غير ملمين بتهذيبات الحضارة الامراتورية ورفاهيتها ، أما كل أجسى يعتق ديانة الدولة ويحصل على جسيثها فله الحق فى الرواح من

بيزنطية مهما يكن أصله أو أصلها .

وكان هرقل يعرف شدة تعصب البيزنطيين لديهم فطرد من دمه فكرة عرض الإسلام عليهم كما فعل في حمص ، بل شعلته فكرة التوفيق بين المذاهب المتناحرة ليأمن عدواة أصحاب المذاهب المتعارضة مع مذهب القسطنطينية .

وأقبل الركب الملكي يتهادى في حى ريجما على القرن الذهبي وقد قدم في وسطه تمثال عظيم لأفروديت^(١) فإذا بالكتل البشرية قد اصططت على جانبي الطريق واعتلت التماثيل والأشجار ، وراح السوة يثرون الورود على الموكب ، وانهمرت الدموع تأثرا من أعين العجائز ، فالقائد المظفر عائد من بيت المقدس بعد أن قبل صليب المسيح .

وانطلق الركب إلى كنيسة الحكمة المقدسة ، وما إن نزل هرقل من عربته حتى استقبله البابا هونوريوس الأول بالبركات ، وتحاولت في أرجاء الكنيسة التراتيل وحرقت أندر أنواع البحور . وسار هرقل وهو شارد اللب يفكر في الصور والتماثيل التي زينت بها الكنيسة فقام في نفسه سؤال : أيمكن رسم ألوهية المسيح وتصويرها ؟ فإن لم يكن أليس من الوثنية عبادة صور له ؟

كان ما سمعه عن الإسلام ومحاربه للوثنية هو المحرك لهذه الأفكار ، إنه وهو يتلو صلاته في كنيسة أيا صوحيا قد اعتنق مذهب تحطيم الصور وإن طوى نفسه على أفكاره ، ولما انتهت المراسيم

(١) أفروديت . إنه الحب والجمال والاحصاب .

وعاد إلى قصره واسترد أنفاسه بحث إلى البابا هونوريوس الأول وراح الرجلان يكرران في تسوية لاهوتية توحد كلمة المسيحيين وترضى العقيدة والساطرة وتقضى على الخلاف المشبوب حول طبيعة السيد المسيح ، فهدهما فكرهما إلى أن للمسيح طاقة واحدة فقط فراح هرقل يدعو إلى فكرة وحدة الإرادة وراح البابا هونوريوس الأول يؤيدها . ولقيت الفكرة بعض النجاح بالقسطنطينية ولم ترض أصحاب مذهب وحدة الطبيعة . ولم يحجج هرقل في لم الشمل ورأى الصدع بل أضاف إلى المذاهب المسيحية التي يتعذر حصرها مذهبا جديدا فتح بابا واسعا للجدل والحوار .

كان أتباع وحدة الطبيعة يصيقلون بالظلم الواقع بهم وما يصلح صدورهم من كراهية مقيمة لمراسيم حلقيدونية جعلتهم متذمرين على اللوام ، يبحثون عن الخلاص^(١) .

وعاد دحية الكلبي إلى رسول الله — ﷺ — ومعه كتاب هرقل ، فقرأ عليه صلوات الله وسلامه عليه : (إني مسلم ولكنني مغلوب) . فقال عليه السلام .

— كذب عدو الله ليس بمسلم .

وقدم دحية إليه عليه السلام هدية هرقل فقسمها بين المسلمين . وشج هرقل بالملك فطلب الرياسة وآثرها على الإسلام : ﴿ قل يا أيها

(١) وقع هرقل الوثيقة المحتوية على الاعتراف الجديد (Euthesis) سنة ٦٣٦ م ، وفي نفس السنة وقعت معركة اليرموك بين العرب والروم وقد وجد السوريون الخلاص الذي كانوا يشغلونه .

الباس قد جاءكم انحق من ربكم فمن اهتدى فإيما بهتدى لنفسه ومن
ضل فإيما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل • واتبع ما يوحى إليك
واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴿١﴾ .

(٨)

حبست قريش أبا بصير بن أسيد بن جارية الشقي ومنعته من الهجرة
إلى رسول الله عليه السلام ، فانغلت بهم وانطلق إلى المدينة ليلحق
بإخوانه المسلمين . ولما علمت قريش بحروجه كتب في رده أُرهر بن
عوف عم عبد الله بن عوف والأحس بن شريق كتابا إلى رسول الله —
ﷺ — وبعثا رجلا من بني عامر بن لؤي ومعه مولى لهم وجعل هما
الأحس في طلب أبي بصير جعلًا . فقدم على رسول الله عليه السلام
بالحساب فقرأه أبي على رسول الله — ﷺ — فإذا فيه : « قد عرفت ما
شارطاك عليه من رد من قدم عليك من أصحابنا فابعث إليهم
بصحابنا » .

فقال النبي — ﷺ — :

— يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمت ولا يصلح لنا في
ديننا العذر ، وإن الله جاعل لك ولئن معك من المستضعفين فرجا
ومخرجًا فانطلق إلى قومك .

— يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتوسوني عن ديني ؟

— انطلق فإن الله سيجعل لك فرجا ومخرجا .
ودفعه إليهما والدموع في أعين المسلمين ، وصار المسمومون
يقولون له :

— الرجل يكون خيرا من ألف رجل .
يعرويه بالدين معه ، حتى إذا كانا بدى الحليفة على بعد ستة أميال
من المدينة سل أحد الرحلين سيفه ثم هره وقال :
— لأصربن بسيفي هذا في الأوس والخررح يوما إلى الليل .
فقال له أبو بصير :

— أو صارم سيفك هذا ؟

— نعم .

— ناولنيه أنظر إليه .

فأوله إياه ، فلما قبض عليه صر به حتى فارق الحياة ، ولما رأى
المولى مقتل صاحبه أطلق لساقيه الريح ، وراح أبو بصير يطلبه وفي يده
السيف وكانت مطاردة رهبة حيم عليها الموت ، المولى على دابته
يطوى الأرض وقد تملكه الرعب وأبو بصير على غير العامرى يجد في
أنره ، واستشعر المولى تعباً واشهرت أنفاسه وسال العرق حتى ملأ
عبيه ولكنه لم يستطع أن يهدىء من سرعة عدو دابته ، والموت قد
أصبح أدمى إليه من شراك بعده . ولاحت له المدينة فقوى الأمل من
روحه حتى إذا بلغ مسجد الرسول عليه السلام نزل عن دابته فوسع من
خطوه حتى أتى رسول الله — ﷺ — وهو جالس في المسجد ، فلما
رآه رسول الله — ﷺ — والحصا يطن تحت قدميه من شدة عدوه
قال عليه السلام :

— إن هذا الرجل قد رأى فرعا .
فلما انتهى إلى رسول الله — ﷺ — وهو جالس في المسجد
قال له :

— ويحك مالك ؟

— قتل صاحبكم صاحبي وأفلت منه ولم أكّد ، وإني لمقتول .
واستعاث برسول الله — ﷺ — فأُمه ، فإذا أبو بصير أباخ بعير
العامري بباب المسجد ودخل متوشحا السيف ووثب على رسول
الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله وقت دمتك وأدى الله عك ، استممتني بيد القوم وقد
امتنعت بدينى أن أقتل فيه ويفتن بى .
فقال له رسول الله — ﷺ :

— اذهب حيث شئت .

— يا رسول الله هذا سلب العامري رحله وسيفه وحمسه .
— إذا خمسته رأوى لم أوف لهم بالدى عاهدتهم عليه ، ولكن
شألك بسلب صاحبك وادهب حيث شئت .

فخرج أبو بصير معه خمسة نفر كانوا قدموا مسلمين من مكة حيث
قدم ولم يطلبهم أحد ، فقال رسول الله — ﷺ :

— ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال !

وسار أبو بصير والذين معه حتى نزلوا بين العيص وذى المروة من
أرض جهينة على طريق عبرات قريش مما يلي سيف البحر ، وجاءت
قافلة لقريش فانقضوا عليها انقضاض الأسود الكاسرة فقتلوا بعض
الرجال وفر الآخرون وسلبوا ما فى القافلة . فلما بلغ الخبر قريش نزل

هم هم ثقيل ، ولكهم راحوا يطمئنون أنفسهم أنها عارة من عارات قطاع الطريق .

وكان أبو جندل بن سهيل بن عمرو في مكة حزينا بعد أن رده المسلمون إلى أبيه تنفيذاً لصلح الحديبية ، فلما بلغه قول الرسول عليه السلام : (ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال) عزم على الخروج ليلحق بأبي بصير وليكون شوكة في جنب المشركين ، فراح يدور على المسلمين المحبوسين في مكة يري لهم اللحاق بأبي بصير فاتفق معه سبعون رجلاً على الخروج لإعلاء كلمة الله .

وفي حنح الليل أسل الرجال ، وما كادت الشمس تشرق في الأفق الشرق حتى كان سبعون راكباً يطلوون الصحراء حتى إذا بلغوا مكان أبي بصير وجدوه يوم أصحابه ويصلي بهم فصلوا خلفه ، فلما قصبت الصلاة أقبل الرجال على الرجال يتعانقون وقد انعكست أنوار القلوب على الوجوه .

وصار أبو جندل بن سهيل بن عمرو رعيم الفدائيين يؤمهم في الصلاة ويقودهم في العارات على قوافل قريش ، واجتمع إليه الناس من بني عمار وأسلم وجهينة وطوائف من الناس حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل وهم مسلمون . ولاحق في الأفق البعيد غير لقريش فامتطى الرجال صهوة الخيل ثم انقضوا على القافلة انقصاص النصور ، فدارت معركة بين المسلمين والحراس قعقع فيها السلاح وسالت الدماء وسقطت الحثث على الرمال وأصوات المسلمين تندوى بالتكبير فتزلزل قنوب الكافرين . وانغلت المعركة عن قتل أصحاب العير وسقوط القافلة غنيمة في أيدي أبي جندل وأبي بصير والذين معهما من المجاهدين .

وخرج رجال من مكة ينتسمون أحبار القافلة ، إنها عابت عن موعد أوتيتها والمحاف من أن يكون أبو بصير قد أحدها قد استولت على القلوب . وراح سادات قريش يتحدثون نحوى ، وأخذ أبو سفيان يلوم سهيل بن عمرو لأنه أعاد أنه عوة يوم الحديبية ولم يتركه يذهب مع المسلمين وقد ذهب أخ له من قبل ، فلو أن أزهري عوف والأحسن بن شريق لم يبعثا في طلب أبي بصير لما انتقلت إلى مكة ، ولو أن سهيل بن عمرو ترك أنه يذهب حيث شاء ما نزلت بقريش الككات التي أنزلها هم هؤلاء الرجال الذين قطعوا مادة قريش من طريق الشام .

وعاد الرجال الذين خرجوا من مكة للمحادث عن غير قريش القادمة من الشام مطأطي الرعوس قد عبرت قمات وجوههم عن البأس الفاجع ، ودقت الأتعدة فرعا في الصدور . ولاح المظع في الوحوه وبذت صيحات ونه من بين شواه السوة قل أن يفتح رجل من العائدين فمه ، فقد قرأ في أعينهم المأساة التي حاقت بأصحاب العير .

وتقدم أبو سفيان من الرجال والدماء تتدفق في عروقه كالنار من الغضب وقال :

— ماذا أصاب العير ؟

فراح رجل ينشد ما قال أبو جندل :

أنا بذي المروة بالساحل	أبلغ قريشا عن أبي جندل
بالبصر فيها والقنا الدبل ^(١)	في معشر تحقق راياتهم
من بعد إسلامهم الواصل	يأسون أن تنفى لهم رقة

(صلح حديبية)

(١) لدبل : الدفينة اللاصقة مقشر .

أو يجعل الله لهم مخرجاً والحق لا يغلب بالباطل
 فيسلم المرء بإسلامه أو يقتل المرء ولم يأتل^(١)
 وداع البأ في مكة فامتألت الدور بالروح ، وأسل سادات قريش إلى
 دار البدوة ليتشاوروا في ذلك البلاء الذي نزل بهم فهؤلاء الرك قد
 فتحوا على مكة باباً لا يصح إقراره .

(٩)

هرم هرقل كسرى بروجير واسترد الصليب المقدس من المدائن وأعادته إلى
 بيت المقدس ، ولكن ألقاب كسرى الثاني لم تهتز بل ظل الرجل الخالد
 بين الآلهة وإله الأعظم حدا بين الرجال صاحب الصيت الدائع الذي
 يصحو مع الشمس والذي يهب عينه لليل .

ولم ير كسرى المطهر المدائن منذ حوالي سنة ٦٠٤ م حتى زمن عرو
 هرقل سنة ٦٢٧ ، وذلك لأن المجمين والعافة بثوه بأنها شؤم عليه ، إنما
 كانت إقامته الخصة إلى نفسه دستكرد التي تقع على الطريق الحرثي الواسع
 الذي يذهب من المدائن إلى همدان .

وكان كسرى الثاني على الرغم من هزيمته يرتدى أحمر الثياب ،
 فملايسه قد زيت بأشرطة تتكون من ثوب ذي أكمام يتدل إلى ما تحت
 الركبتين وسروال واسع وكلها مرصعة بالخواهر . وأطراف الثوب
 والحماله وعمد السيف وكسك السروال مريية بمصوص كثيرة من

(١) يأتل : لم يقصر .

النُّؤْلُ ، وقد زين رفته بعقود من النُّؤْلُ .

ودخل كسرى بربوز قاعة العرش وحس تحت التاج وكان معلقا بسلسلة ذهب من الإيوان ذرعها سبعون ذراعا كيما يماس رأس الملك ولا يؤديه ولا يثقله ، وهو يرب واحدًا وتسعين ونصف كيلو جرام . وأحاط بالمظهر كبار رجال البلاط ، وامتدت إلى قاعة العرش أضواء أحادة من حلال الخمسين ومائة كوة التي في القبة والتي يبلغ قطر كل واحدة منها من اثني عشر إلى خمسة عشر ستيا .

وسمح لطالبي الثول بين يدي الرجل الخالد بين الآهة والإله العظيم حدا بين الرجال بالدخول . فدخل بعضهم فحروا ساحدين . فلما أذن لهم برفع رعو سهم أحدا منظر صاحب الصيت الدائع الذي يصحو مع انشمس مسردوا ما جاعوا من أجله وهم يرتحفون ، حتى إذا ما عادروا انرجل الخالد أخذوا يزفرون في ارتياح كأعنا يلفظون عن صدورهم عشا ثقيلا .

ودخل عبد الله من حذافة السهمى على كسرى ثابت الخطو ، فيا طامنا دخل عليه من قبل ولم يسجد له بل سار يتقدم حتى وصل إليه فدفع إليه كتاب رسول الله ﷺ ، فإذا به كتاب محتوم ، فحعل يقلبه لحظات بين يديه ثم دفعه إلى ترجمانه فراح يقرأ :

— بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله . أدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأبذر من كان حيا ويحق النقول على الكافرين . أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم الأخوس .

وعصب صاحب الصيت الذائع الذي يصحو مع الشمس والذي يهب عييه الليل ، فكيف بدأ محمد بنمه ؟ وصاح ومزق الكتاب وأمر بإحراق عبد الله بن حذافة فخرج ثابت الحدين فقعده على راحته وسار ، حتى إذا ما وصل إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أحمره الحفر فقال عليه السلام :

— اللهم مزق ملكه .

— غضب كسرى برويز عصا استوى على كل تكبره ، فقرأ ذلك الرجل الذي بعث إليه كتابا يدعو فيه إلى الإسلام قد وعد بصبر الروم : ﴿ أَلَمْ يَكُن لَّهُمْ فِي الْأَرْضِ حَكِيمٌ ﴾ . علمت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد عليهم سيعلمون . في بصع سبر الله الأمر من قل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ﴿ (١) ﴾ .

لقد انتصر هرقل على كسرى ولكن يسعى ألا يفرح محمد وأتباعه بهذا النصر بل يسعى اعتباره أثرا على الخووسة . فين العرب قبائل تدعى بالحوسية وإن عليه وهو رأس الدولة الحوسية أن يحمي تلك القبائل وأن يعين الحرب على محمد والمسلمين .

لم يعترف كسرى بمحمد رئيسا على الدولة الإسلامية بل كتب إلى بادن عامله على اثين : « إنه يلغى أن رجلا من قريش حرج بمكة يرغم أنه نبي فسر إليه فاستببه دون تاب وإلا فابعث إلى برأسه ، يكتب إلى هذا الكتاب وهو عبدى ؟ ! » .

فبعث بادن بكتاب كسرى إلى النبي ﷺ — مع قهرمانه وبعث

معه رجلا آخر من فارس وبعث معهما إلى رسول الله ﷺ — يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، فخرجا وقدما الطائف فوجدا رجلا من قريش في أرض الطائف فسألاه عنه فقال :
— هو بالمدينة .

فلما قدما عليه — ﷺ — المدينة قالوا له :
— شاهنشاه ملك الملوك كسرى بعث إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتي بك وقد بعثا إليك ، فإن أبيت هلكت وأهلك قومك وخربت بلادك .

إن فارس تعلن الحرب على المسلمين فإما أن يسلم رسول الله ﷺ — نفسه للرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال ، وإما يبعث الشاهنشاه جنده ليحارب المسلمين ويستولى على المدينة .
وقال لهما رسول الله ﷺ — في هدوء :
— أرجعا حتى تأتياي غدا .

عاد كسرى الثاني بعد أن هرب من دستكرد رافضا عروض الصلح التي قدمها هرقل إلى قصره في المدائن ، ثم لم يلبث أن تركه ليعبر دجلة ويقع مع عشيقته شيرين . وحيث ناز القواد المرس وكانوا ساحطين على إصرار كسرى على مواصلة حرب لا أمل فيها .

وعرف قائده شهربراز أن كسرى قد أمر قائدا ممن يرأسهم بقتله فأخذ حذره وتحلل من عهود الإخلاص له . ومرص كسرى بالزحار^(١) فنقلوه إلى المدائن ليترتب وراثته العرش وكان معه شيرين

الزحار : الصوت والعس بأبى واستطلاق البطن بشدة وتقطع في البطن (اندوستاريا) .

وولده مردانشاه وشهريار ، وكانت نيته تثبيت مردانشاه على العرش . ولما علم قياد الملقب بشيروه وهو ابن كسرى من ماريما بما حدث عزم على الدفاع عن حقوقه . واستوثق من مساعدة القائد العام الحديد كشسب اسباد وهو أخوه من الرصاعة وقد فاض هذا هرقل وأندى استعدادده للصالح مع العرس ، وانضم لشيروه عظماء آخرون ممن كانوا حائقين على الشاهنشاه .

وأمر شيروه ففتحت قلعة السيان وأفرج عن عدد كبير من مسجونى الدولة فانصموا إلى الأمير ، فلما جن الليل ترك الحرس القصر حيث كان ينام كسرى وشيرين وفي الصباح الباكر سمع الناس يصيحون فرحين : — قياد شاهنشاه .. قياد شاهنشاه .

وحينئذ هرب كسرى وقد أحذه الملح ، فاحتبأ في حديقة القصر حيث عثر عليه فأخذوه . وكان إسكافي يجلس في حانوت على الطريق فلما بصر بفريسان من الجند معهم فارس مقنع عرف أن المقنع كسرى فحذوه بقالب فعطف إليه رجل ممن كان مع كسرى من الجند فاحترط سيمه فضرب عتق الإسكاف ثم لحق بأصحابه .

وأنقى الرجل الخالد بين الآهة والإله العظيم جدا بين الرجال صاحب الصيت الدائع الذى يصحو مع الشمس والذى يهب عيبه لليل في عياهب السجن . وتردد شيروه في الإقدام على قتل أبيه ولكن العظماء حذروه بين أن يقتل كسرى فيكونوا حوله باحعين له بالطاعة وبين أن يخلعوه ويحطوا بالطاعة لكسرى . وقد حاول الملك الحديد أن يجد الفرصة فوجه إلى أبيه الاتهامات : قتل الملك هرمرد . قسوة كبرى على أبائه ، إساءته إلى من أودع السجون . سوء نظره في استخلاص النساء لنفسه

مع ترك العصف عليهن بالمودة وحبه إياهن قبله مكرهات ، ظلمه الرعية عامة في جباية الخراج وما انتهك منهم في عنطته وفظاظته عليهم وجمعه الأموال التي اجتباها الناس في عسف شديد ، تحميره من حر في ثعور الروم وغيرهم من الجنود وتمزيقه بينهم وبين أهلهم وعدره بموريق ملك الروم وكفره بأنعامه .

وفي خوف الليل قتل كسرى الثاني الذي لقب بالمظفر والذي لقب نفسه بالرحل الخالد بين الآلهة والآله العظيم جدا بين الرجال ، صاحب الصبب الدائع الذي يصحو مع الشمس والذي يهب عييه لليل .

وأشرقت الشمس على المدينة وحس رسول الله عليه السلام في المسجد فحاء إليه رسولا بادان ، إنه عليه السلام قال لهما بالأمس : (ارجعا عني يومكما هذا حتى تأتياني العد فأخبركما بما أريد) . فجاءاه العد فقال لهما :

— أبلعا صاحبكما أن ربي قد قتل ربه كسرى في هذه الليلة لسع ساعات مصت بها ، وأن الله تعالى سلط عليه ابنه شيرويه فقتله . فرجعا إلى بادان وقالاه :

— أمربا أن نبلعك أن ربه قد قتل ربك كسرى ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضى من حمادى الأولى (سنة سبع من الهجرة) . قال بادان :

— إن كان نبيا فسيكون ما قال : ثم جاء الخبر بأن كسرى قتل تلك الليلة فكرر المسلمون ، وقال — ^{صلى الله عليه} :

— لتفتحن عصابة من المسلمين كوز كسرى التي في القصر الأبيض

وكان عمر بن الخطاب يصفى إلى رسول الله عليه السلام ولم يدر
بجلده أن فتح فارس سيكون في خلافة وكان سعد بن أبي وقاص قد ألقى
إلى رسول الله عليه السلام سمعه وما خطر له على قلب أنه الأسد الذي
سيغود جيوش المسلمين وأنه القائد الذي سيبعث إلى المدينة كنسور
كسرى التي في القصر الأبيض .

(١٠)

قامت مصر بدور خطير في تاريخ المسيحية ، وقد احتارت كيسة
الإسكندرية منذ أن أصبحت الكلمة لكيسة القسطنطينية أن تقف في
حائب كل المذاهب المعارضة لكيسة الأباطرة ، وكانت بما ملأها من
نوارع البغضاء للحكومة الإمبراطورية تناصر الفتن والأمانى المحلية .
كان مذهب النالوث مذهباً عسيراً كما أن مذهب التجسد لا يزيده
يسراً ، فلا عجب أن كان الطريق السوى في علم البحث عن طبيعة
المسيح وشخصه من الخرج بصورة تجعل علماء اللاهوت أنفسهم مهما
بلغ من حسن قصدهم عرضة للانزلاق في هذا الاتجاه أو ذاك .
وقد انتصرت النصرانية على الوثنية وهي نخوص إحدى حروبها
الأهلية يوم كان أتباع أريوس يحاولون بإنكارهم الألوهية التامة للمسيح
أن يؤسسوا فكرة عن الربوبية تنطوي على قدر أكبر من التوحيد .
وأصدر أول مجمع مسكوني وهو مجمع نيقية قراراً باستئزال اللةة عليهم
وقد اتهموا بالزندقة .
كانت الربدقة تعرف من الناحية الرسمية بأنها نيد أى قانون يصدر عن

المجالس العامة للكنيسة ، ذلك أن القوم كانوا يرون أن أى مجلس مسكونى هو جمعية تعقد برئاسة الإمبراطور وتمثل فيها كل الكنائس المتجانسة التى يتم الاتصال بينها والتشاور هو الهيئة الملهمه التى تعد قراراتها ملزمة لعالم المسيحية .

ومد الأيام الأولى للمسيحية كان أسقف روما بوصفه الأسقف الأكبر يصدر تصريحات مذهبية ، كما أن يوستينانوس خلق للإمبراطور مركزا مماثلا لذلك ، ولكن كان لابد من قيام مجلس مسكونى عام لضمان قبول مثل هذه التصريحات .

وقد عقدت مجالس مسكونية سبعة فأصبحت قراراتها والكتب المقدسة أساسا للعقيدة الأرثوذكسية ، وقد ظل مذهب آريوس طوال القرن الرابع بأكمله يستمتع عمحة الدوائر الراقية بالقسطنطينية ، ولم يقض على ذلك المذهب ببلاد الشرق إلا بعد انعقاد المجمع المسكونى الثانى فى عام ٣٨١ ، وكان نصر الأرثوذكسية هو نفسه نصر الإسكندرية برئاسة أناناسيوس . وظلت الإسكندرية طوال القرن الخامس وهى تحاول أن تتابع نصرها بإرغام عالم المسيحية على الأخذ باللون الخاص الذى اتخذته للاهوتها .

وقد سحقت فرصتها المواتية عندما ذهب نسطوريوس بطريرك القسطنطينية إلى تقسيم طبيعة المسيح إلى شقين هما اللاهوتى والاسوتى ، وكانت تلك حركة بغضت إلى قلوب الناس لأنها تؤدى بصورة منطقية إلى مهاجمة مريم العذراء نصرة القسطنطينية وراعيتها المحبوبة التى كانت مهددة عندئذ بالخرمان من لقبها أم الرب ، فالتحمت ضده الإسكندرية مع روما وشعب القسطنطينية ، وتناست الإسكندرية مؤقتا غيرها بسبب

البطريركية الجديدة ، فالقسطنطينية التي أعطيت الرياسة عليها في المجلس المسكوني الثاني ، وأصدر المجمع المسكوني الثالث المعقد في أفسس قراره بأن سطوربوس الأنطاكي بطريرك القسطنطينية قد رل موقع في الزندقة حيث فرق بين الرب وبين الإنسان في شخص المسيح ، وقد كان لقوة شخصية كيرلس بطريرك الإسكندرية أثرها البالغ في صدور هذا القرار .

ولم يقف حصوم المذهب السطوري عند هذا الحد ، فقد أذاع قسيس مغمور يقال له أوطيخا (يوتيجوس) مدأ بقرر وحدة طبيعة المسيح اعترفت به الإسكندرية . ورعة في الست في المسألة جمع الإمبراطور مرقيانوس المجمع المسكوني الرابع في حلقيدونية في عام ٤٥١ م وكان مرقيانوس شعوباً من الناحية السياسية أن يكون على علاقة طيبة مع روما وكان البابا ليو يعارض تلك الحركة بشدة ، وعدد أدين مذهب وحدة طبيعة المسيح وكان ذلك نتيجة لصعظ الإمبراطور وعد المذهب زندقة من الرندقات .

وكان مجلس حلقيدونية نقطة تحول في تاريخ الإمبراطورية الرومانية بمصر وسورية ، فطرية وحدة طسعة المسيح تناسب المراح الشرق فما لشت أن انتشرت في كل الكائس المؤمة مذهب وحدة الطبيعة ، وقد جمعت بينها معارضتها مجمع حلقيدونية ، وصارت تلك الرندقة نقطة انتحج لأهالى الولايات الدين في صلورهم عل من السسطة المركزية للإمبراطورية فكانت وسيلة التعبير عن الرعات القومية والامصالية . وحملت الإسكندرية عثم الثورة على قرارات مجمع حلقيدونية ، فبطريقها ديوسقوروس أحد يعوص وراء نظرية أوطيخا عن مسيح . و

توافق روما على ذلك واتسعت هوة الخلاف بين روما والقسطنطينية من جهة أخرى .

وكانت المسائل اللاهوتية المختلف عليها في الخصومات المتعلقة بوحدة طبيعة المسيح صغيرة فهي تدور حول الفرق بين طبيعة واحدة وطبعيتين لا يمكن الفصل بينهما ، ولكن النتائج السياسية كانت هائلة ذلك أن مذهب وحدة طبيعة المسيح ظل مشكلة فرضت نفسها على تاريخ الإمبراطورية رهاء قربين من الزمان . وفي المجمع المسكوني الخامس المعقد بالقسطنطينية في عام ٥٥٣ م اعترف يوستيانوس بإخفاقه في نشر ميثاق يوفق بين الطرفين المتنازعين .

وفي عام ٥٧٠ م ولد رسول الله — ﷺ ، ومرت الأيام وبعثه الله رسولا نبشيرة جميعا يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وهاجر عليه السلام بنديه إلى المدينة وكان صلح الحديبية وكان أن بعث عليه اسلام رسولا بنى هرقل إمبراطور الروم يدعو إلى الإسلام ، ولم يؤمن هرقل بلدين الحديد ولكنه تأثر به فراح يحاول أن يوفق المذاهب المتناحرة عن هدى الإسلام ، فأعلن ميثاق التوفيق المسمى بوحدة إرادة المسيح ، ثم راح يتأهب لحرب الصور والتمائيل في انكائس .

كان المصريون على خلاف مع الرومان في المذهب الديني وكانوا يشون من وطأة الضرائب . وكانوا يتلعتون يبحثون عن الخلاص وما كانوا يدرون من أين تنهب عليهم ربح الحياة ، فلما انتصر هرقل على العرس استشر المصريون أسى فقد حسوا أن قصة انسر ستظل قابضة على أعناقهم ، فلما بلغهم بعد أن هبضة قد قامت في قلب جريسة العرب ، وحتى إن كانت قد وصفت إليهم أساؤها فما كان ليحظر لهم على

قلب أن العرب المتنافرين سيكون لهم دولة تستطيع أن تقضى على الإمبراطوريتين العظيمتين المتنافستين على سيادة العالم .

كان رسول الله — ﷺ — في مسجده بالمدينة ومن حوله أصحابه قد عاهدوا قريشا على السلم ، وما كان ذلك السلم ليجعل رسول الله عليه السلام يركن إلى الدعة والهنوء ، فأنه قد أمره أن يبلغ رسالته فيبعث عليه السلام رسله إلى ملوك الأرض وحكامها ، إنه أرسل إلى قيصر يدعو إلى الإسلام وأرسل إلى كسرى كتابا مرقه الملك المعروف فكنت الله على نفسه أن يرق ملكه وأراد أن يبعث بكتاب إلى مصر فقال : — أيها الناس أيكم ينطلق بكتابي هذا إلى صاحب مصر وأجره على الله .

فوثب إليه حاطب بن أبى بلتعة وقال :

— أنا يا رسول الله .

— بارك الله فيك يا حاطب .

فأخذ حاطب الكتاب وودع رسول الله — ﷺ — وسار إلى منزله ، وشد على راحلته وودع أهله ، وسار إلى مصر فهو يعرف الطريق وقد خرج إليها للتحارة أكثر من مرة ، ولكنه كان يستشعر طول الرحلة أنه خرج في تجارة لئلا تبور ، تجارة تنجيه من عذاب أليم .

كان على مصر حريج بن ميناء وقد لقب بالمقوقس ، والمقوقس لغة المطول للباء ، وكان مصريا صميما ولكنه كان يحكم مصر من قبل هرقل يجمع له الضرائب ثم يحملها إلى القسطنطينية ، وكان يحيا حياة الأباطرة الرومان . وكانت الإسكندرية مقر حكمه ليكون على مقربة

من عاصمة الإمبراطورية الرومانية .

ودهب حاطب إلى صف ولم يسر فيها وهو مهوور بمبانيها الضخمة وأبوابها المحممة فقد زارها كثيرا من قبل . وانطلق إلى قصر الحاكم فلم يجده فذهب إلى الإسكندرية فأخبر أنه في مجلس مشرف على البحر ، فركب حاطب سفينة وحادى مجلسه وأشار بالكتاب إليه ، فلما رآه أمر بإحضاره بين يديه ، فلما حىء به نظر إلى الكتاب وفضه وقرأه :

— (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط . ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا مشرك به شيئا ولا يتحد بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

والتفت إلى حاطب وقال له :

— ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه من قومه وأخرجوه من بلده إلى غيرها ؟

وصمت حاطب نادياً فأعاد المقوقس قوله لما رأى من الموجودين استحساناً :

— ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه من قومه وأخرجوه من بلده إلى غيرها أن يسلط عليهم ؟

فقال له حاطب :

— أألمت تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله ؟ فما له حيث أحده قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى حتى

رفعه الله إليه ؟

ونظر إليه المقوقس في إعجاب ، إنه قابل كثيرا من العرب قبل أن يبعث فيهم محمد بن عبد الله ، كانوا فصحاء ولكنهم ما كانوا يدرون ما الكتاب ولا الإيمان بل كانوا عبدة أوثان ، فقال :

— أحسست ، أنت حكيم حاء من عند حكيم .

— إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأحده الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتز بفيرك ولا يعتز عيرك به . وراح المقوقس ومن عنده يرمقون حاطب في دهشتهم ، إسم فهموا أنه يقصد فرعون موسى ، ولكن من أين لذلك العربى مثل هذا العلم ؟ واستمر حاطب يقول :

— إن هذا السى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له يهود وأقرهم النصارى ، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى عليهما الصلاة والسلام إلا كبشارة عيسى محمد — ﷺ ، وما دعاؤنا إليك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل سى أدرك قوما فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه ، فأنت ممن أدرك هذا السى ولنا نهاك عن دين المسيح عليه السلام ولكنا بأمرك به .

فقال المقوقس :

— إني قد نظرت في أمر هذا السى مرأته لا يأمر عزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب عنه ، ولم أحده بالساحر الصال ولا الكاهن الكذاب ، ووجدت معه آلة السوء بإحراج الخساء أى الشىء العائب المستور ، والإخبار بالنجوى ، وسأأنظر .

أكرم هرقل وفادة دحية الكلبي رسول السى العربى فلم يجد المقوقس

غضاضة في أن يكرم حاطب فدفع له مائة دينار وخمسة أثواب وأثرله في ضيافته ، فلما حان الرحيل دعا المقوقس كاتباً له يكتب بالعربية فكتب إلى النبي : « بسم الله الرحمن الرحيم . لحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك . أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت أن نبياً قد بقي وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام . وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين هما مكان في القبط عظيم وبثياب ، وأهديت لك هفلة لتركبها والسلام عليك » .

ما أقام حاطب عبد المقوقس إلا خمسة أيام حرح بعدها من قصره وفي رفقته مارية القبطية وأختها سيرين وطبيب وبعلة بيضاء وهدايا المقوقس ، وما انفصل الركب وانساب في الحقول حتى وقعت الأعين على جباة الضرائب الرومان يظلمون الفلاحين وينزلون بهم ألوان العذاب فلاح الأسى في الوجوه وارتفعت الرعوس تنظر إلى السماء كأنما يسألون رب الكون الخلاص وما دروا أن الخلاص قريب وأن حاطب بن بلعة رسول محمد بن عبد الله عليه السلام إلى عظيم القبط هو طلائع ذلك الخلاص .

وراح حاطب يفكر فيما قال له المقوقس وهو يودعه : « القبط لا تطاوعى على اتباعه وأنا أضن مملكى أن أفارقه » . أضحى إنسان بالحقيقة التى أشرقت لعين داته في سبيل ملك زائل ؟ ! أستمع بحبط في الظلمات وهو يعرف طريق النور ؟ أضحى بأحرته في سبيل دياه ؟

واستمع حاطب والدين معه يطوون الأرض في حراسة جند مصر إلى أن دخل جريرة العرب ، ووجد قافلة من الشام تريد المدينة فرد الجيش وارتفق بالقافلة حتى دخل على رسول الله عليه السلام وذكر له قول المقوقس : « القبط لا تطاوعى على اتباعه ولا أحب أن تعلم محاورنى

إياك وأنا أضرب بملكى أن أفارقه ، فارجع إلى صاحبك وارحل من عدى ولا تسمع منك القبط حرفا واحدا » فقال عليه السلام :

— ضمن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه .

وقال عليه السلام للطبيب :

— ارجع إلى أهلك ! نحن قوم لا نأكل حتى نخوع وإذا كنا لا

نشع .

وأحد عليه السلام مارية وعشرين ثوبا من قباطى مصر وهدايا العسل والبعنة البصاء وسماها دلدل ، وما كان العرب يعرقون البعال من قبل وما كان فيهم بعة غيرها ، وأهدى سيرين الحسان بن ثابت . وأعادت مارية ذكريات هاجر المصرية^(١) أم العرب فقال — عليه السلام — لأصحابه

— إنكم ستفتحون مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم دمة ورحما .

(١١)

كان اليهود في حبر يطوون أفئدتهم على العصاء محمد رسول الله عليه السلام ، وكانوا يتحسرون الفرص ليطعموا الإسلام طعمة في الصميم . فلما عاد أسلمون بعد صلح الحديبية إلى المدينة دون أن تسمح لهم قریش بدخول مكة والطواف حول البيت طس اليهود أن سى الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه — لم يقلل شروط الصلح المتحفة بالمسلمين إلا

(١) كانت زوجا لسيدنا إبراهيم عليه السلام .

نوهن دب في كيان ملكه ، فأرادوا أن يستعلوا ذلك الضعف فبعثوا إلى عطفان ليؤلولهم على حرب رسول الله — ﷺ .

وجاء الخبر إلى الرسول عليه السلام أن حبر تنأهب لقتاله فلم ينتظر حتى يحمأه اليهود وحلفاؤهم يحومهم ، فاستمر — ﷺ — من حوله من شهد الحديبية يعزون معه ، وجاءه انحنون عنه في غروة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة فقال :

— لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد فأما الغنيمة فلا .

ثم أمر ساديا ينادى بذلك هادى به ، وشق حروح المسلمين إلى حبر على من بقى بالمدينة من اليهود ، وخرج رسول الله — ﷺ — في المحرم افتتاح سنة سبع بعد أن أقام شهرا وبعض شهر من مرجعه من الحديبية واستحلف على المدينة سبع بن عرفة العفارى ، وخرج معه من نسائه أم سلمة ، وقال — ﷺ — في سيره لعامر بن الأكوع عم سلمة بن الأكوع :

— انزل فحرك بنا الركب .

فقال معتذرا :

— يا رسول الله قد تولى قولى .

لم بعد عامر يقول شعرا ، فقال له عمر :

— اسمع وأطع .

هرل يرتجز بقوله :

والله نولا الله ما اهتديا ولا تصدقا ولا صليا

إسا إذا قوم بعوا عليا وإن أرادوا فتنة أييا

فأرلس سكية عيبا وثبت الأقدم إن لاقيا

(صلح الحديبية)

فقال له رسول الله ﷺ :

— يرحمك ربك .

وما حص بها رسول الله ﷺ — أحدا قط إلا استشهد ، فقال

عمر :

— وحبب والله يا رسول الله ، لو متعتنا بعامر .

ولما حرح رسول الله ﷺ — من المدينة سلك على عصر (حل)

فبى له فيه مسحدا ، ثم على الصهاء ، ثم أقبل بحيشه حتى نزل بواد يقال

له الرجيع فرل بين حير وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل

حير وكانوا لهم مطاهرين على رسول الله ﷺ — ، فما سمعت غطفان

يمزل رسول الله ﷺ — من حير جمعوا ثم خرجوا ليظاهروا يهود

عليه ، حتى إذا ساروا مرحلة من مراحل السفر سمعوا حلفهم في أموالهم

وأهلهم حسا وظلوا أن القوم قد حانقوا إليهم فرجعوا على أعقابهم فأقاموا

في أهلهم وأموالهم وحلوا بين رسول الله ﷺ — وبين حير

كان المسلمون ألما وستائة مقاتل مجهزين تجهيرا حسا منهم مائتا

فارس ، وكان لكل مقاتل راحلته السريعة ، وقد حرح مع الحيش ساء

المقاتلين ليعتين بالحرحي وكان هذا يحدث لأول مرة في تاريخ الحروب

فقد كانت النساء يصاحب الحوش في العروات للترفيه أو لتحريض

الرجال على القتال .

وحمل الحيش الراية السوداء العظيمة المعروفة بالعقاب (السر

الأسود) وكانت من برد لعائشة ، ولما أشرف عليه السلام على حير قال

لأصحابه :

— قفوا .

ثم قال :

— اللهم رب السموات وما أظلم ، ورب الأرضين وما أظلم ،
ورب الشياطين وما أضل ، ورب الرياح وما أذرى ، إني أسألك خير
هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ويعود بك من شرها وشر أهلها وشر
ما فيها ، أقدموا باسم الله .

وأشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير .
— الله أكبر ، لا إله إلا الله .

فقال — ﷺ :

— أربعوا على أنفسكم (ارفقوا بأنفسكم) لا تالعوا في رفع
أصواتكم فإيكم لا تدعون أصم ولا عائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو
معكم .

وإذا نزل بساحتهم لم يحركوا تلك الليلة ، وكان رسول الله —
ﷺ — إذا عرا فوما لم يمر عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أذانا أمست وإذا
لم يسمع أذانا أعار ، فملوا حير ليل فأت رسول الله ﷺ — حتى إذا
أصبح لم يسمع أذانا ، فركب وركب المسلمون معه ، فركب أنس من
مالك حلف أني طلحة وإن قدمه قمم قدم رسول الله — ﷺ ، وأصبح
يهود وأقعدتهم تخفق وفتحوا حصونهم وغدوا إلى أعماطهم معهم المساحي
والعتوس والمكائل ، فلما نظروا إلى رسول الله — ﷺ — قالوا :
— محمد والخميس (١) .

فولوا هاربين إلى حصونهم وجعل رسول الله ﷺ — يقول .

(١) سمى الجيش خميسا لأنه حمى أقسام . المقدمة والسافة والميمه ، الميسرة
والقلب .

— الله أكبر ، حربت حير . إنا إذا رلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين .

ووعط رسول الله ﷺ — الناس وفرق قههم الرايات وارتفعت أصواتهم :

— يا منصور أمت . يا منصور أمت .

كان يهود في حصونهم ير تحفون ، إيهم عشرة آلاف مقاتل وكان عد الله ابن أبي بن سلول كبير الماقيين أرسل إليهم نهرهم بأن محمدا سائر إليهم وحدوا حذر كم وأدخلوا أموالكم حصونكم واجر جوا إلى قتاله ولا تحافوا مه . إن عددكم كثير وقوم محمد شر ذمة^(١) قليلون عزل لا سلاح معهم إلا قليل .

فكانوا يفرحون ويصطفون صفونا ثم يقولون مستهزئين :

— محمد يفرزونا ؟ هيات هيات .

كانوا واثقين من أنهم سيسرون إلى محمد عليه السلام ليحاربوه في المدينة ولكنهم أصبحوا فوجدوا محمدا عبه السلام وحيثه يتقدمون صوب الحصون .

كانت حصون حير حصونا دوات عدد منها البطاة وحصن الصعب ابن معاد وحصن ناعم وحصن قلعة الربيع — هذه الحصون البطاة ، والشق وبه حصون منها حصن أبي وحصن البرار ، وحصون الكتبية ومنها القموص والوطيح وسلام .

وبرل رسول الله ﷺ — قريبا من حصون البطاة فحاهه الحناب

(١) شر ذمة : جماعة قليلة العدد .

ابن المنذر فقال :

— يا رسول الله إنك نزلت منزلك هذا فإن كان عن أمر أمرت به فلا نتكلم ، وإن كان الرأي تكلمنا .
— هو الرأي .

— يا رسول الله إن أهل البطاة لى بهم معرفة ، ليس قوم أبعد مرمى سهم منهم ، ولا أعذل رمية منهم ، وهم مرتفعون عليا وهو أسرع لا غطاء يلهم ، ولا تأمن من يأتهم يدخلون فى حمرة النخل (السحل) المجتمع بعضه على بعض) ، تحول يا رسول الله .

— أشرت بالرأى ، إذا أمسينا إن شاء الله تحولنا
ودعا رسول الله — ﷺ — محمد بن مسلمة فقال :
— انظر لنا منزلا بعيدا .

فطاف محمد بن مسلمة وقال :
— يا رسول الله وجدت لك منزلا .
— على بركة الله .

وتحول عليه السلام لما أمسى إلى الصحرة ، وأمر الناس بالنحول فتحولوا إليها ، واتخذوا ذلك الموقع معسكرا ، وابتنى رسول الله — ﷺ — هناك مسجدا يصلى به طويلا مقدمه بحير .

وراح يهود يرمون المسلمين بالسهام والبال من حصون البطاة ، فأمر — ﷺ — بقطع نخيل أهل الحصون فوقع المسلمون فى قطعها حتى قطعوا أربعمائة نخلة ثم ساءهم عن القطع ، وهجم المسلمون على حصن ناعم وراحوا يرمون بالسهام ويهود تقاتل ورسول الله — ﷺ — على فرس يقال له الظرب وعليه درعان ومعفر وبیضة وفى يده

قناة ونرس ، وقد دفع — ﷺ — لواءه إلى عمر بن الخطاب وهب من هب مع من الناس فلقوا أهل حير ، فأكشف عمر وأصحابه فرجعوا إلى رسول الله — ﷺ — بحسب أصحابه وبحسبهم ، وكان رسول الله قد أحدثه الشقيقة^(١) فلم يجرح إلى الناس فأخذ أبو بكر راية رسول الله — ﷺ — ثم هب فقاتل قتالا شديدا ، ثم رجع فأحدها عمر بن الخطاب فقاتل قتالا شديدا أشد من القتال الأول ، ثم رجع وهمم الأضرار على الحصون ، كان الحر شديدا وكان محمود بن مسلمة يحارب بلا هوادة حتى أعياه الحرب وتقل السلاح فأنحار إلى ظل حصن ناعم ، مرفع مرحب وكناية بن الربيع ححر الرحي يسيما وألقياه عليه فهشم اليصة على رأسه وبرت حلدة جبينه على وجهه وندرت عيه ، فأدركه المسلمون فأتوا به إلى فسوى الجلدة إلى مكابها وعصبه بخرقه فمات من شدة الجراحة .

وحاء أخوه محمد بن مسلمة إلى رسول الله — ﷺ — فقال في غبط :

— إن اليهود قتلوا أحى محمود بن مسلمة .

كان محمد بن مسلمة يريد أن يثأر لأخيه وأن يدفع إلى حصون اليهود يشحن فيهم القتل ، فقال — ﷺ — :

— لا تموا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإنكم لا تدرؤ ما تنلون به منهم ، فإذا لقيتموهم فقولوا : اللهم أنت رسا ورسهم وبواصيها وبواصيهم بيدك وإنما نقتلهم أنت ، ثم الرموا الأرض حلوسا فإذا عشوكم

(١) السفيفة : نوع من صداع يعرض في مقدم الرأس وإلى أحد جانبيه

فانهضوا وكرروا .

وحرحت كتائب اليهود يتقدمهم ياسر ، فكشف الأنصار حتى انتهى إلى رسول الله — ﷺ — في موقعه ، فاشتد ذلك على رسول الله عليه السلام وأمسى مهموما .

(١٢)

القتال رهيب وأهل حصون الطاة يخرجون للقتال ثم يعودون إلى الحصون يرمون المسلمين بالحجارة والسهام ، ورسول الله — ﷺ — يذهب كل يوم مع محمد بن مسلمة للقتال ويحلف على محل العسكر عثمان ابن عفان ، فإذا أمسى ورجع إلى ذلك المحل ومن حرح من المسلمين يحمل إلى ذلك المحل ليداوى جرحه .

وكان — ﷺ — يارب بين أصحابه في حراسة الليل ، فلما كانت الليلة السادسة استعمل عليه السلام عمر بن الخطاب فطاف عمر بأصحابه حول العسكر وعرّفهم ، فأوتى برحل من يهود حير في خوف الليل فأمر به عمر أن يضرب عنقه فقال :

— اذهب بي إلى نبيكم حتى أكلمه .

فأمسك به وانتهى به إلى النبي — ﷺ — فوجده يصلي ، فسمع — صلوات الله وسلامه عليه — كلام عمر فسلم وأدخله عليه ، فدخل اليهودي فقال رسول الله — ﷺ — لليهودي :

— ما وراءك ؟

— تؤمنني يا أبا القاسم ؟

— نعم .

— خرجت من حصن البطاة من عدد قوم يتسللون من الحصن في هذه الليلة .

— فأين يذهبون ؟

— إلى الشق يعملون فيه دراريهم وينهتون للقتال ، وفي هذا الحصن الذى هو الحصن الصعب من حصون البطاة في بيت فيه تحت الأرض مسحيق ودبابات ودروع وسيوف فإذا دخلت الحصن عدا وأنت تدخله .

قال رسول الله عليه السلام :

— إن شاء الله .

قال اليهودى :

— إن شاء الله أوقفك عليه فإنه لا يعرفه عبرى ، وأخرى .

— ما هى ؟

— يستخرج المنحيق^(١) وينصب على الشق ويدخل الرجال تحت الدبابات فيحفروا الحصن فتفتحه من يومك وكذلك تفعل بحصون الكتيبة .

وراح اليهودى يتلفت بعينى رائعتين ثم قال :

— يا أبأ القاسم احقن دمي .

— أنت آمن .

— ولى زوجة فيها لى .

(١) المنحيق : آلة حربية ترمى بالحجارة وتهدم الحصون .

— هي لك .

ثم دعاه إلى الإسلام فقال :

— أنظرني أيأما .

ثم قال عليه السلام لمحمد بن مسلمة :

— لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، لا

يولى الدبر يفتح الله على يديه فيمكنه من قاتل أخيك .

وعند ذلك لم يكن من الصحابة أحد له منزلة عند النبي — ﷺ —

إلا يرجو أن يعطاها . وتنبى عمر بن الخطاب أن يكون ذلك الرجل فما

أحب الإمارة إلا ذلك اليوم ، وبات الناس يذكرون لينتهم أيهم يعطاها ،

فلما أصبحوا غدوا على رسول الله — ﷺ — كلهم يرجو أن يعطاها ،

فقال رسول الله — ﷺ — :

— أين على بن أبى طالب ؟

— هو يا رسول الله يشكى عييه .

— من يأتيه به ؟

فذهب سلمة بن الأكوع فدعاه ، فجاء على بعير له حتى أتاه قريبا

من رسول الله — ﷺ — وهو أرمد قد عصب عييه بشقة برد قطري ،

فراح سلمة يقوده إلى رسول الله — ﷺ — فقال له رسول الله عليه

السلام :

— ما لك ؟

— رمدت .

— ادن مني .

فوضع رأسه في حجره عليه السلام وفتح له عييه فدلكهما فبرأ حتى

كان لم يكن بهما وجع ، وألسه عليه السلام درعه وشد سيفه ذا الفقار
في وسطه وأعطاه الراية وقال له :

— امش ولا تلتفت .

مسار شيئا ثم وقف ولم يتنمت ، فصرح :

— يا رسول الله علام أقاتل الناس ؟

— قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإذا

فعلوا ذلك فقد سمعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله
تعالى : وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فوالله لأن يهدي الله بك
رجلا واحدا خير من أن يكون لك حمر النعم .

فاطلق عليّ بالراية وعليه حلة أرجوان حمراء يهول حتى ركزها

تحت الحصن ، فاطلع عليه يهودي من رأس الحصن فقال :

— من أنت ؟

— علي بن أبي طالب .

وخرج إليه أهل الحصن وكان أول من خرج الحارث أخو مرحب ،
وكان معروفا بالشجاعة ، والتقى الجمعان ودار القتال ومشى الرجال إلى
الرجال فانكشف المسلمون وثبت على كرم الله وجهه ، وهجم على
الحارث فتضاربا فقتله ، فلما رأى المسلمون ثبات علي كروا على أعدائهم
الدين رلر مقتل الحارث قلوبهم فاهرم اليهود إلى الحصن وأصوات
المسلمين مزمز خير :

— يا منصور أمت .. يا منصور أمت .

وخرج مرحب صاحب الحصن وعليه مغفر معصفر وحجر قد ثقبه

مثل البيضة على رأسه وهو يرتجز :

قد علمت خير أبي مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

أطعن أحياءا وحيا أصرب إذا المحروب أقبلت تلهب
كأن حماي كالخمي لا يقرب

فيرز له على بن أبي طالب فقال :

أنا الذي سميتي أمي حيدرَة كليث غابات شديد قسورة^(١)

أكيلكم بالسيف كيل السدرة^(٢)

وحمل مرحب عليه وصره صريرة اتقاها بترسه ، ثم بدره على كرم
الله وجهه فصره فقد اعجز والمعمر وقلق رأسه حتى أحد السيف في
الأضراس .

وأراد عامر بن الأكوع أن يضرب بسيفه ساق يهودى فرجع إليه
سيفه وجاءت دبابته في ركبته فسقط يتلوى من الألم ، فحمله المسلمون
إلى معسكر رسول الله — ﷺ .

ثم حرح بعد مرحب أخوه ياسر وهو يرعرع :

قد علمت حبير أني ياسر شاكي السلاح بطل معاور
إذا الليث أقبلت تبادر إن حماي فيه موت حاصر
وقال :

— هل من مارز ؟

فخرج له الزبير بن العوام وأمه صفية بنت عبد المطلب عمه رسول
الله — ﷺ — تنظر وقد استولى عليها خوف شديد فهي تعلم أن ياسر

(١) قسورة : اسم من أسماء الأسد .

(٢) السدرة : مكيال كبير .

من مرسان اليهود وشجعانهم ، ولم تستطع أن ترقب المارزة بأعين مفتوحة وعصف بها الخوف فقالت :

— يا رسول الله إنه يقتل ابنتي .

— بل اهلك يقتله إن شاء الله .

وراح الزبير يرتجز :

قد علمت خير ألى زُبَار

قرم^(١) لقرم غير نكس^(٢) فرار

أبمن حماة المجد أبمن الأخيار

ياسر ، لا يفررك جمع الكفار

فجمعهم مثل السراب الخنار^(٣)

وراح الزبير وياسر يتبادلان الصربات ثم ضرب الزبير اليهودى ضربة قاتلة فتركه كأمس الدابر ، فارتفعت أصوات المسلمين بالتكبير ورفت على شفتى صعية بسمة اطمشان وإن اغرورقت عيناها بالدموع ، وقال رسول الله عليه السلام :

— فذاك عم ونخال ، لكل نبي حوارى وحوارى الزبير .

وجاء ياسر وكان عبدا حبشيا إلى رسول الله ﷺ — وكان أحيرا

لرحل من اليهود كان يرعى غنمه وقال :

— إن أسلمت فماذا لى ؟

— الجنة .

(٢) النكس : الصعيف الحبان .

(١) القرم هنا : السيد .

(٣) الخنار : الخناص .

فأسلم ، فلما أسلم قال :

— يا رسول الله إني كنت أجيرا لصاحب هذه العم فكيف أصنع بها ؟ إنها أمانة وهي للناس الشاة والشاتان وأكثر من ذلك .

كان رسول الله عليه السلام يحارب اليهود وكانت العم لليهود فلم يأمر بمصادرتها بل أمر برد الأمانة إلى أصحابها ، فقال له عليه السلام :

— اضرب في وجهها فإنها سترجع إلى ربها .

فقام يسار فأخذ حصاة من حصباء هرمي بها في وجهها وقال :

— ارحمني إلى صاحبك فوالله لا أصحبك

فخرجت محتمة كأن سائقا يسوقها حتى دخلت الحصن ، ثم تقدم

يسار إلى الحصن منشرح الصدر قد غمرته سعادة لأنه هدى إلى الصراط

وراح يقاتل مع المسلمين فأصابه حجر فقتله ولم يسجد لله سجدة ، فأقْبى به إلى رسول الله ﷺ — ومعه يمر من أصحابه فقال — ﷺ :

— لقد كرم الله هذا المد وساقه إلى خير ، وقد كان الإسلام من

نفسه حقا .

وراح عامر بن سلمة يتلوى من الألم وعمر بن الخطاب يرنو إليه وهو

على ثقة من أنه يجود بأنفاسه ، فعامر كان يرتجر لرسول الله عليه السلام

فقال له : يرحمك ربك . فقال له عمر : وجهت يا رسول الله لولا أمتعتنا

به . لأنه — ﷺ — ما قال ذلك لأحد في مثل هذا الموضع إلا استشهد .

ومات عامر بن سلمة وحاص الناس في موته فمن قاتل : قتلته

سلاحه ، ومن قاتل : قتل نفسه فليس بشهيد . فانطلق سلمة يس

الأكوع إلى رسول الله ﷺ — وقال وقد غمركه إشفاق أن لا يكون

أخوه شهيدا :

— يرعم أسيد بن حصير وجماعته من أصحابك أن عامرا أحبط عمله
إذ قتل بسيفه .
فقال عليه السلام :
— إنه لشهيد .

وصلى عليه — عليه السلام — والمسلمون .

(١٣)

دار القتال رهيا عد حصن باعم ، على بن أفي طالب يتقدم ويضرب
سيفه لا يلتفت خلفه ، وأصوات المسلمين تدوى في آذان يهود كأنها
صواعق مندرة بالموت .
— يا مصور أمت أمت .

وبلغ على كرم الله وجهه باب الحصن فاجتذبه وحمله على ظهره
فراح المسلمون يصعدون عليه يبارزون يهود الذين كانوا بأعلى الحصن .
ولاحت هزيمة يهود فانسل نفر منهم إلى حصن صعب ليتحصنوا به ،
وقتل من قتل وأسروا من أسروا وتم فتح أول حصن من حصون اليهود فأخذ
المسلمون يكبرون وقد غمرهم السرور .

وأصاب المسلمين جماعة ، وأرسلت أسلم إلى رسول الله — عليه السلام —
أسماء بن حارثة وأمرته أن يقول له — عليه السلام — إن أسلم يقرئوك السلام
ويقولون أجهدنا الخوع . فلامهم رجل وقال :
— من بين العرب تصنعون هذا ؟

فقال أخو أسماء بن حارثة :
 — والله إنى لأرجو أن يكون البعث إلى رسول الله — ﷺ —
 مفتاح الخير .
 فعاده — ﷺ — أسماء وبلعه ما قالت أسلم ، فقال :
 — اللهم إنك قد عرفت حاجهم وأن ليس بهم قوة وأن ليس بيدى شيء
 أعطيهم إياه .

ولم يجد المسلمون غير الحمر الإسيية فذبحوها ووضعوها في القدور
 على النار . وبينما القدور تقور بها جاء داعي رسول الله — ﷺ — ينهى
 المسلمين عن أكل لحوم الحمر الأهلية فكفوا القدور على وجوهها .
 وقام فيهم رسول الله — ﷺ — فقال :

— لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى مائه زرع غيره
 « يعنى إيتاء الحثالى من السبايا » ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم
 الآخر أن يصيب امرأة من السبي حتى يستترئها^(١) ، ولا يحل لامرئ
 يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنا حتى يقسم ، ولا يحل لامرئ يؤمن
 بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها^(٢)
 ردها فيه ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع ثوبا من فيء
 المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه .

وأشرقت الشمس وعاد رسول الله — ﷺ — وقد أسلم فدعاهم :
 — اللهم افتح أكثر الحصون طعاما وودكا^(٣) .

(١) يستبرئها : يتأكد من براءة رحمها من الحمل ، وذلك بالحيلص .
 (٢) أعجفها : هزلها وأضعفها .
 (٣) الودك : الدسم .

ودفع اللواء للحباب بن المندر وندب الناس فخرج مع الحباب صاعدين المهاجرين والأنصار واطلقوا إلى حصن الصعب وهم يكبرون ، وخرج من الحصن رجل يقال له يوشع مبارزا فخرج له الحباب بن المندر وقد كثر عن أنيابه وقال :
— يا منصور أمت أمت .

وتبادلا ضربتين فبدره الحباب قائد جيش المسلمين بضربة أردته قتيلًا فكبر المسلمون ، وقرع التكبير آذان يهود في الحصن فزاعت أعينهم واهبرت أنفاسهم ونزل بهم هم ثقيل واستولى عليهم يأس مرير ، فقد أطلت من سيوف المسلمين ريب الموت .

وخرج آخر مبارزا يقال له الديال فبرز له عمارة بن عقة العفاري فمشى كل منهما إلى صاحبه مشى الودعول ، اليهودي في الدروع على رأسه خوذة تتألق في الشمس وفي يده رمح ذو ثلاث شعب كان في فخامة جالوت لما حارب الصبي داود عليه السلام^(١) ، وكان عمارة في يده ترس وفي الأخرى سيف يمسى ، وصرب الديال عمارة صربة انتقاها بالترس وفي مثل لمح البصر هوى بسيفه على هامة اليهودي فقتله وقال له :
— حذها وأنا الغلام العفاري .

فقال الناس في أسي :

— حط جهاده .

لم يكتر عمارة وهو يصرب اليهودي ولم يهتف بشعار المسمين بل دعا بدعوة الجاهلية فساء ذلك الناس . وحملت اليهود حملة مكرة

(١) القصة في سورة البقرة الآية ٢٤٦ — ٢٥١ .

فأكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ — وهو واقف قد نزل عن فرسه ، فثبت الحجاب بن المدر ، فحرض رسول الله عليه السلام المسلمين على الجهاد فأقبلوا وزحف بهم الحجاب فراح الرجال الصاديد يلعبون بالسيف يضربون الهامات ويطعنون في القلوب . فاختلطت صرخات الفزع بأبائ الألم بصوت ارتطام الأجساد بالأرض بأصوات التكبير بالهتاف بشعار المسلمين ، وسالت الدماء في اليهود المنهزمين .

ورلرل اليهود رلرالا شديدا وراعت الأبصار وبلعت القلوب الحاحر وراحوا يولون الأدبار لا يلوون على شيء حتى دخلوا الحصن وأغلقوه عليهم . ولم يقف الحصن في وجه الثبوت الدين أمدهم إيمانهم بالنصر المين بقوة جعلتهم يتسلقون الحصن دون أن يفتر في عزيمتهم الحجارة التي تلقى عليهم والسهم التي تصوب إلى صدورهم .

وتمكن نفر من المسلمين من أن يتسلقوا الحصن وأن يثبتوا أقدامهم فوقه فدارت معركة رهية بين الفاتحين وبين الذين يدافعون عن أعناقهم وأعراسهم وأموالهم ، وتمكن فريق من المسلمين من أن يصلوا إلى باب الحصن ففتحوه فتدفق المسلمون كالسيل الجارف لتدور معركة فاصلة بينهم وبين الخصم مقاتل الدين كانوا في حصن الصعب ، ولما أصبحت الدائرة على اليهود اسل فريق منهم إلى حصن قلة وهو قلة جبل ليستأنفوا القتال إذا ما تحول المسلمون للهجوم على ذلك الحصن .

وأحد المسلمون يقتلون ويأسرون حتى وقع الحصن في أيديهم فوجدوا في ذلك الحصن من الشعير والتمر والسمن والعسل والسكر والزيت والودك شيئا كثيرا ، وراح الرجال يحملون ما تصل إليه أيديهم (صلح الحديبية)

فنادى رسول الله ﷺ :

— كلوا واعلفوا ولا تحملوا .

كان يمر من الحارثيين يريدون أن يخرجوا بما غنموا إلى بلادهم فبهى رسول الله ﷺ — عن ذلك وأباح الأكل والعلف في المعسكر ، وقد أصاب عبد الله بن مغفل من قـ ، حير جراب مشحم فاحتمله على عنقه يريد رحله فلقبه صاحب المغنم الذى جعل عليها فأخذ بناصيته وقال :

— هلم بهذا حتى نقسمه بين المسلمين .

— والله لا أعطيكه .

فجعل أبو اليسر كعب بن عمرو بن زيد الأنصارى صاحب المغنم يحاذيه الجراب ، فرآهما رسول الله ﷺ — وهما يصعدان ذلك فتبسم ضاحكاً ثم قال لصاحب المغنم :

— لا أبالك ، خل بينه وبينه .

فأرسله فانطلق به عبد الله بن مغفل إلى رحله وأصحابه فأكلوا .
وراح اليهودى الذى أمته رسول الله ﷺ — ووهب له روحه يفود المسلمين في سراديب تحت أرض الحصن حتى وصلوا إلى بيت تكدست فيه متجيق ودبابات ودروع وسيوف ، فأخذوا يحملوها إلى حيث كان رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه .

وذكر الناس ما كان من عمارة بن عقبة العفارى لما صرب الدبال وقال له : حذها وأنا الغلام العفارى وقول الناس حبط جهاده ، فقال — ﷺ :

— يؤجر ويحمد .

وراح المسلمون يحاصرون حصن قلة وهو آخر حصون البطاة ،

فراح اليهود يسددون إليهم السهام ويلقون عليهم الحجارة دون أن يخرجوا لل مبارزة من حصصهم . وانقضى اليوم الأول من الحصار وما نال المسلمون من الحصن شيئا .

وامتدح الحصار واليهود يرقون ما يحرق أمام الحصن على نيران المسلمين حتى إذا ما صلوا الصبح وأشرقت الشمس وارتفعت أصوات المسلمين بشعارهم :

— يا منصور أمت أمت .

وشدت الأقواس وأطلقت السهام فسقطت أحساد من فوق الحصن تهوى كالشهاب . ولكن اليوم الثاني مر دون أن يال المسلمون من الحصن شيئا فهو على قمة حل يسيطر على كل الطرق التي تقود إليه . وجاء اليوم الثالث وحاول المسلمون أن يزحفوا صاعدين إلى الحصن ولكن اليهود أمطروهم بوابل من السهام فمجزوا عن التقدم ، ورأوا أن يحاصروا الحصن حتى يال الجوع والعطش من المحاصرين فينزّلوا على حكم المسلمين .

وجاء الليل فانسل يهودى تحت جناح الطلام إلى معسكر المسلمين وكان محمد بن مسلمة يحرسه ، فالتقى اليهودى مقاتلة رسول الله ﷺ — فقاده ابن مسلمة إلى حيث كان عليه السلام فقال :

— يا أبا القاسم تؤمننى على أن أدلك على ما تسترّج به ؟ فإنك لو مكثت شهرا لا تقدر على فتح هذا الحصن فإن به دُبولا^(١) تحت الأرض يخرجون ليلا فيشربون منها ، فإن قطعت عنهم شربهم أهلكتهم .

(١) الدبول : جمع دَبَل : النهر الصغير .

وسار عليه السلام إلى دبرهم فقطعها فلم يجد اليهود مفرا من أن يخرجوا من الحصن ليقاتلوا دفاعا عن حياتهم التي أصبحت مهددة بالبور من العطش ، ودارت معركة رهيبة بين أهل الكتاب الأول الذين تكبروا لكتائبهم وبين الذين يريدون أن يحققوا الحق وأن تكون كلمة الله هي العليا . ورهقت أرواح نمر من اليهود وسقط من المسلمين شهداء وحمل المسلمون على اليهود حملة رجل واحد وأصواتهم تفعّل في أعدائهم ما تفعّله السيوف الثارة ، فما أن يدوى بين السماء والأرض شعار المسلمين « يا منصور أمت أمت » حتى تتحلحل مفاصل أعدائهم ويكادوا أن يموتوا رجا قبل أن تصل إلى أهدتهم السهام أو تقطف رعوهم السيوف .

ورأت السوءة من الحصون هزيمة الرجال فأخذت في الولولة والعيول ورحن يحرصهم على القتال ولكن أصواتهم ذهبت أذراع الرياح . فقد كان انقاتلون اليهود داهلين عن كل شيء إلا الحرص على الجساة بجلودهم .

ودخل اليهود الحصن وانسلمون في أثرهم ، ودارت معركة داخل الحصن وأصوات الملع تعطى على قعقة السلاح . وجزى السوءة في رعب في أرجاء الحصن يفوق سرعة كر الرجال وفرهم .

وحفنت أصوات السيوف وارتفع الصراح فقد كان المسلمون يأسرون الرجال والنساء والولدان ويحملون الغنائم إلى معسكر المسلمين .

ولاح في الأفق البعيد رك قادم من المدينة فاتجهت إليه الأنظار حتى إذا ما دنا من المعسكر عرف الناس القادمين ، إسم سبعون بيتا من دوس

على رأسهم الطفيل بن عمرو الدوسي وعيهم أبو هريرة . كان الطفيل قد أسلم قبل أن يهاجر رسول الله عليه السلام وعاد إلى قومه فأجابه أبو هريرة وحده وأبطأ عليه قومه ، فعاد إلى رسول الله ﷺ — وأحره بإبطاء قومه وقال له :

— ادع عليهم .

فقال — ﷺ :

— اللهم اهد دوساً وآت بها .

ثم قال له :

— اخرج إلى قومك فادعهم وارفق بهم .

فخرج إلى قومه فلم يرل بأرض دوس يدعوها حتى هاجر رسول الله ﷺ — إلى المدينة ومصت عروة بدر وأخذ والخنق ، ثم قدم على رسول الله ﷺ — بمن أسلم من قومه حتى نزل المدينة ، فصرى أبو هريرة الصبح خلف سباع بن عرفة فقرأ في السجدة الأولى بسورة مريم وفي الآخرة ويل للمطففين .

فقال أبو هريرة في نفسه :

— ويل لأني !

وتذكر أبو هريرة رجال الأرد قتل رحل كان بأرض الأزدي إلا وكان له مكيالان : مكيال لنفسه وآخر يحس به الناس .

ويرل الطفيل بن عمرو والذين معه في معسكر المسلمين ينتظرون النهار ليدخلوا على رسول الله عليه السلام ، فضل علام لأني هريرة فحمل يشد :

يا ليلة من طولها وعائها على أنها من دائرة الكفر نجت

وأذن بلال بالنفح فهض كل من في المعسكر وصلوا خلف رسول الله عليه السلام ، فلما قضيت الصلاة دخل سادات الأرد على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فقال الطفيل بن عمرو :

— يا رسول الله اجعلنا ميمتك واجعل شعارنا مبرور .

وطلع غلام أبى هريرة الذى كان ضل في الليلة الماضية فقال له عليه السلام :

— هذا غلامك يا أبأ هريرة ؟

فقال أبو هريرة وهو متفرح في الله :

— هو حر لوجه الله .

(١٤)

فتح رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — حصون البطاة الثلاثة وخرج حصن قلة في سهم الربيع بن العوام فعرف بقلة الزبير ، وسار المسلمون إلى حصار حصون الشق وقد صار الأرد ميمية جيش المسلمين وصار شعارهم مبرور . وبدأ المسلمون بحصن أبى فقاتل أهله قتالا شديدا ، وخرج رجل مهم يقال له عزوال يدعو إلى البراز هرب له الحباب وحمل عليه فقطع يده اليمنى ونصف ذراعه فيادر راجعا منهربا إلى الحصن ، فنبه الحباب فقطع عرقوبه فوق فدمغ عليه ، فخرج آخر مبارزا فحرق له رجل من المسلمين فقتل اليهودى المسلم فارتفعت صيحات الفرح من فوق الحصن .

فقام اليهودى مكانه للبرار وقد انتفخت أوداجه^(١) غرورا فخرج له أبو دحانة وعصب رأسه بعصابة حمراء . فاستبشر المسلمون ، فما خرج أبو دحانة يتبختر وقد عصب رأسه بعصابته إلا أداق خصمه المنون .
 وضرب أبو دحانة اليهودى فقطع رجله ثم دَفَفَ^(٢) عليه فتركه حثّة هامدة فزل الرعب في قلوب اليهود فأحجموا عن البراز ، فكبر المسلمون وتحاملوا على الحصن ودخلوه يتقدمهم أبو دحانة فوجدوا فيه أثنا ومتاعا وغما وطعاما . وهرب من كان فيه ولحق بحصن يقال له حصن البرىء وهو الحصن الثانى من حصى الشق فتمنعوا به أشد التمتع وكان أهله أشد رميا للمسلمين بالبل والحجارة حتى أصاب السل ثياب رسول الله ﷺ — وعلقت به .

وثارت الدماء في عروق المسلمين فحملوا على الحصن حملة رجل واحد ، ونصبوا المنجنيق الذى وجدوه في حصن الصعب وجعلوا يصوبون القذائف إلى الحصن حتى أوجدوا به ثقباً فراحوا يتدفقون منه ويقاتلون المدافعين .

وسقط حصن أمى فوجدوا فيه فيما وجدوا آية من نحاس وفحار كانت اليهود تأكل فيها وتشرب ، فقال عليه السلام :
 — سحنوا فيها الماء ثم اطحوا بعد وكبوا واشربوا .

واهزم من سلم من يهود تلك الحصون إلى حصون الكثيبة وهى ثلاثة حصون : القموص والوطيح وسلام ، فراح المسلمون يحاصرون

(١) الأوداج : جمع مفردة ودَج وهو عرق يظهر في صمغتى العنق .

(٢) دَفَفَ عليه : أجهز عليه .

القموص عشرين ليلة وكان ميمًا ، إنه حصن أنى الحقيق وفيه صفة بت
حيى بن أخطب وكرام نساء اليهود .

وقد على بن أنى طالب هجوم المسلمين فانطلق لا يلوى على شيء لا
يهاب السيل الذى تساقط على المسلمين كالطر ، فلما رأى اليهود تقدمه
أوحسوا منه خيفة وراحوا يرمونه بالحجارة وهو كاللثيث يعدو إلى
الحصن لا يفتت خلفه . واندفع الرجال في أثره وشعار الناس يا مصور
أمت أمت ، وشعار ميمته من الأزرد مبرور .

وتداعى الحصن تحت هجمات على كرم الله وجهه وصاديد
المسلمين . وسُيت صفة بت حيى وبنت عم لها وجاء بلال بهما فمر
على قتلى يهود ، فلما رأتهم بنت عم صفة صاحت وصكت وجهها
وحشت التراب على رأسها ، فلما رآها — عليه السلام — قال :
— اغربوا عنى هذه الشيطانة .

والتفت إلى بلال وقال :

— أنزعت منك الرحمة يا بلال حتى تمر بامرأتين على قتلى وجافعا ؟
ودهب بلال بهما إلى حيث جمع السبي فحاء دحية الكنسى فقال :
— يا نبي الله أعطني جارية من السبي .
— اذهب فخذ جارية .

فأخذ صفة بنت حيى ، فحاء رجل إلى السبي — عليه السلام — فقال :
— يا رسول الله أعطيت دحية صعية ميلدة قريظة والضمر ، لا
تصلح إلا لك .
— ادعوه بها .

فحاء بها : فلما نظر إليها النسي — عليه السلام — قال :

— خذ جارية من السبي غيرها .

ودهب دحية إلى حيث جمع السبي وأخذ جارية أخرى هي أخت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق روح صفية .

وحاصر المسلمون حصن الوطيط وحصن السلام ومكثوا على حصارهما أربعة عشر يوما فلم يخرج أحد منهما ، فهم — ﷺ — أن يعمل على من فيها المحنق ، فلما أبقوا بالهلكة سألوا رسول الله — ﷺ — الصلح في حقن دماء المقاتلة وترك الذرية لهم ويخرجون من حير وأرضها بذراريهم وأن لا يصحب واحد منهم إلا ثوبا واحدا على ظهره ، فصالحهم على أن ذمة الله ورسوله بريئة منهم أن يكتموه شيئا من متاعهم يسألهم عنه .

ووجد في الحصين مائة درع وأربعمئة سيف وألف رمح وخمسمائة فرس عربية ، ووجدوا في أثناء العنينة صحائف متعددة من التوراة فحات يهود تطلبها فأمر — ﷺ — بدفعها إليهم ، وعبوا الخلد الذي كان فيه حلى بنى النصر وعقود الدر والجوهر الذين جلوا به ، فإنهم لما حلوا كان سلام بن أبي الحقيق رافعا له ليراه الناس وهو يقول بأعلى صوته : « هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها » فقال رسول الله — ﷺ — لكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق .

— أين مسك (جلد) حبي بن أخطب ؟

إن رسول الله يسأل عن كنز حبي عظيم بنى النصر فمحمد أن يكون يعلم مكانه وقال :

— بعد في النفقة والحروب .

فقال رسول الله — ﷺ —

— كان أكثر من ذلك .

ثم جاء رجل من يهود إلى رسول الله — ﷺ — فقال :
 — يا رسول الله إني رأيت كساة يطيف هذه الحربة كل غداة .
 فقال رسول الله — ﷺ — لكساة :
 — رأيت إن وجدناه عندك أقتلك ؟

— نعم .

فأمر رسول الله — ﷺ — بالحربة فحمرت فأحرق منها بعض
 كنزهم ، ثم سأله عما بقى فأبى أن يؤديه ، فأمر رسول الله — ﷺ —
 الزبير بن العوام به فقال :

— عدته حتى نستأصل ما عنده .

فراح الزبير يقدح بزيد في صدره حتى أشرف على نفسه ، وحيء
 بكر بن أبي الصير فإذا به أساور ودماخ وحلاخيل وأقرطة وحوائم الذهب
 وعقود الجوهر والزمرد وعقود أظفار محرع بالذهب ، إنها الخيل التي كان
 أعيان مكة يستعبرونها من بني الصير إذا كان لأحدهم عرس .

ودفع رسول الله — ﷺ — بكساة محمد بن مسلمة فصرب عنقه
 بأخيه محمود ، وقال — ﷺ — لأصحابه :

— يقدم عليكم قوم هم أرقى منكم قلوبا .

وراح المسلمون يتطلعون صوب المدينة فإذا ركب يشند على
 الطريق ، إنه جعفر بن أبي طالب ومعه الأشعريون أبو موسى الأشعري
 وأخوه أبو رهم وأبو بردة وسعدون رجلا عليهم ثياب الصوف ، منهم
 اثنتان وستون من الحبشة وثمانية روميون من أهل الشام . وراح المسلمون
 لقادمون من الحبشة يقولون في شوق :

- غدا نلقى الأحبة ، محمدا وحزبه .
 وأقبل عليه — ﷺ — جعفر فقام عليه السلام إلى جعفر وقبله بين
 عينيه وقال :
 — جعفر أشد الناس بى تحلقا وتحلقا .
 فانتشى جعفر هذا القول ورقص من نشوة الخطاب ، وراح —
 ﷺ — يخدم وفد النجاشى بنفسه فقال له أصحابه :
 — نحن نكفيك يا رسول الله .
 — إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإنى أحب أن أكافئهم .
 واستمر رسول الله عليه السلام يخدم وفد النجاشى بنفسه ويظهر إلى
 جعفر بن أبى طالب فى عدوه ورواحه وهو مسرور ثم قال :
 — لا أدرى بأيهما أنا أسر ، بهتج خير أم بقدوم جعفر .

(٩٥)

أمر رسول الله — ﷺ — بالعالم فجمعت واستعمل عندها فروة بن
 عمرو البياصى ، وأمر بذلك فحزى خمسة أجزاء وكتب فى سهم منها
 لله وسائر السُّهُمان أعمال ، فكان أول ما خرج سهم النسي — ﷺ — ،
 وأمر ببيع الأربعة الأثمان خمس يزيد فباعها فروة وقسم ذلك بين
 أصحابه .

وكان الذى ولى إحصاء الناس ريد بن ثابت فأحصاهم ألفا وأربعمائة
 رجل ، والحبل مائتى فرس ، فكانت السُّهُمان على ثمانية عشر سهما
 لكل مائة سهم ، وكان الخمس الذى صار إلى رسول الله — ﷺ —

يعطى منه على ما أراه الله .

وكانت المقاسم على أموال حير على الشق ونطاة والكتيبة فكانت الكتيبة خمس الله وسهم السى — عليه السلام — ودوى القرى واليتامى والمساكين ، وطعم أرواح السى — عليه السلام — وطعم رجال مشوا بين رسول الله صلى الله عليه وآله ، وبين أهل فذك بالصلح . فإنه لما أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله — على خير ودما بها بعث محبة بن مسعود إلى أهل فذك يدعوههم إلى الإسلام ويخوفهم فجاءهم محبة فحملوا يترصون ويقولون :

— إن بخير عشرة آلاف مقاتل فيهم عامر وياسر والحارث وسيد اليهود مرحب ، ما نرى أن محمدا يقرب إليه .

فمكث محبة عندهم يومين ثم أراد الرجوع فقالوا :

— نحن نرسل معك رجالا ما يأخذون لنا الصلح .

كانوا يظنون أن رسول الله صلى الله عليه وآله — لا يقدر على فتح حير حتى جاءهم أناس من حصص ناعم وأحبروهم أن رسول الله صلى الله عليه وآله — فتحه ، فأرسلوا رجلا من رؤسائهم يقال له بون بن يوشع في مر يصاحون رسول الله صلى الله عليه وآله — أن يحق دمائهم ويحبليهم ويحبوا يسه وبين الأموال ، فكانت فذك لرسول الله صلى الله عليه وآله — لأنها لم تؤخذ نقاتلة فكان عليه السلام يثق بها ويعود بها على صعيبر بنى هاشم ويزوج منها أئمتهم .

وأعطى عليه السلام من أموال حير محصة بن مسعود أعطاه ثلاثين وسقا^(١) من شعير وثلاثين وسقا من تمر . وكانت الشق والنطاة في

(١) الوسق : ستون صاعا أو حمل بعير .

سُهِمان المسلمين . وقسمت حير على أهل الحديدية من شهد منهم ومن غاب ولم يعب عنها إلا حابر بن عبد الله فقسم له رسول الله ﷺ — كسهم من حضرها .

وقسم رسول الله ﷺ — من الكتبة — وهو وادى خاص — لعاطمة ابنته مائتي وسق . ولعل بن أبي طالب مائة وسق ، ولأسامة بن زيد مائتي وسق وخمسين وسقا بوى ، ولعائشة أم المؤمنين مائتي وسق ، ولأبي بكر الصديق مائة وسق ، ولعقيل بن أبي طالب مائة وسق وأربعين وسقا ، ولأبي جعفر خمسين وسقا ، واستمر عليه السلام يقسم السهمان فقد جاء الله بالفرح

وكانت عطفاً قد أرادت وسيدهم عيبة بن حصص أن يعينوا أهل حير وكانوا أربعة آلاف ، فإن يهود حير لما سمعوا بمحيته — ﷺ — إليهم أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق وهودة بن قيس في أربعة عشر رجلاً إلى عطمان يستمدوا بهم وشرطوا لهم نصف ثمار حير إن علوا المسلمين ، فجمعوا ثم حرقوا ليظاهروا يهود حير فلما ساروا قليلاً سمعوا صوتاً : — أيها الناس أهليكم خولفتم إليهم .

فألقي الله الرعب في قلوبهم فرجعوا على الصعب والندلول فأقاموا في أهلهم وأموالهم وحلوا بين رسول الله ﷺ — وبين أهل حير . وقدمت عطمان عليه — ﷺ — حير ، قال عيبة بن حصص لرسول الله عليه السلام وقد وجده فتح حصونها :

— أعطى مما عنمت من حنفاً فإني امتعت عبك وعن قتالك فقال رسول الله ﷺ :

— كدبت ولكن الصياح اندى سمعت أمعذك إلى أمعذك ، ولكن لك

ذو الرقية .

قال عيبة في دهش :

— وما ذو الرقية ؟

— الخبل الذى رأيت في منامك أنك أحدثه .

لما سمع عيبة بن حصص الخليل المطاع الذى تنعه ألف امرأة الصوت ورجع إلى أهله ولم يجد شيئا رجع بعد ذلك بمن معه إلى حير ، فلما كانوا بالقرب منها نزلوا ليقصوا لبيتهم فقام عيبة وانتبه وقال لقومه :

— أنشروا فإنى رأيت الليلة في النوم أنى أعطيت ذا الرقية (وهو

جبل بحير) لقد والله أحدث برقة محمد

وقدم حجاج بن علاط السلمى وأسلم ، وكان الحجاج مكررا من

المال فقال :

— يا رسول الله إن مالى عند امرأتى بمكة ومتفرقة في تجارة مكة ،

فأذن لى أن آتى مكة لأخذ مالى قبل أن يعلموا بإسلامى فلا أقدر على

أخذ شيء منه .

فأذن له رسول الله — ﷺ — فقال .

— يا رسول الله لا بد أن أقول .

كان الحجاج يلتبس من رسول الله عليه السلام أن يقول وأن يذكر

خلاف الواقع وأن يقول ما يفتن به لما يوصله إلى أحد ماله ، فقال له

ﷺ :

— قل .

وحمل رسول الله — ﷺ — صغية عبد أم سبيع التى هي أم أنس

خادمه لتصلح من شأنها حتى تظهر من الحيض فلما اطمأن رسول

الله — ﷺ — أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية وقد سألت :

— أى عصو من الشاة أحب إلى رسول الله — ﷺ ؟
فقبل لها :

— الذراع .

فأكثرت فيها من السم ، ثم صحت سائر الشاة ثم جاءت بها ، فلما وصعتها بين يدي رسول الله — ﷺ — تناول الذراع فلاك منها مصفحة فلم يسعها ، ومعه بشر بن الرءاء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله — ﷺ . فأما بشر فأساعها وأما رسول الله — ﷺ — فلعظها ثم قال :

— إن هذا العظم ليحرقن أنه مسموم .

ثم دعا بها فاعترفت فقال :

— ما حملك على ذلك ؟

— بلغت من قومي ما لم يحف عليك ، فقلت إن كان ملكا استرحت منه وإن كان نبيا فسيُخبر .

فتحاور عنها رسول الله ﷺ ، ومات بشر من أكلته التي أكل .
وركب الناس وانطلقوا وكل حاجة فيهم تشكر الله على ما آتاهم من نصر ، ولما قطع عليه السلام ستة أميال من خير وأراد أن يعرض بصعية فأت فوحد^(١) النبي — ﷺ — في نفسه ، فلما سار ووصل الصهاء مال إلى دومة هالك ودخل على صافية وما من الناس أحد أكره إليها مه ،

(١) واحد : حزن .

قتل أباهما وزوجها وقومها ، فقال — ﷺ :

— أما إني أعتذر إليك مما صنعت بقومك ، إنيهم صنعوا كذا وكذا .
وما رال يعتذر إليها حتى ذهب ذلك الكره من نفسها ، وحيرها عليه
السلام بين أن يعتقها فترجع إلى من بقى من أهلها أو تسلم فيتجدها
لنفسه فقالت :

— أختار الله ورسوله .

ورأى عليه السلام بأعلى عينا حصرة فقال :

— ما هذه الحصرة ؟

— كان رأسي في حجر اس أف الخقيق وأنا عروس وأنا نائمة ، فرأيت
كأن القمر وقع في حجري فأحترته بذلك فطمس فقال .
— والله ، ما تحمين إلا ملك العرب .

وأعرس بها رسول الله — ﷺ — بعد أن طهرت من الحيض في
قبة ، فما قامت من مقعدها ومن الناس أحد أحب إليها منه — ﷺ .
وباتت تلك الليلة أبو أيوب الأنصاري متوشحا سيفه يحرسه ويظوف
بتلك القبة حتى أصبح رسول الله — ﷺ — فرأى مكان أبي أيوب
فقال :

— مالك يا أبا أيوب ؟

— يا رسول الله خعت عليك من هذه المرأة قتلت أباهما وزوجها
وقومها وهي حديثة عهد بكمر ، فبت أحفظك .
— اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني .
فأصبح السى — ﷺ — عروسا فقال :
— كل من عده شيء فليحيى به .

وبسط نطعا فحمل الرجل يحيى ، فالتزم وجعل الرجل يحيى بالسمن
وجعل الرجل يحيى بالأقط^(١) والسويق^(٢) وخلط السمن والتزم والأقط
والسويق وصنع الحيس ، وقال عليه السلام لأئس بن مالك :
— آذن من حولك .

وأولم عليه السلام على صعية ، فلما انتهى الناس من الويلمة قالوا :
— إن لم يحجب فهي أم ولد وإن حجبها فهي امرأته .
وأقام عليه السلام بذلك الغل ثلاثة أيام ، وحدث أن الرجل
فوصع — عليه السلام — ركبته لتركب صعية عندها هانت أن تضع قدمها على
ركبته ووضعت فحلدها على ركبته وركبت على عجز ناقه ، فجاء الليل
فجعلت تمس فتضرب رأسها مؤخرة الرجل فيمسها بيده ويقول :
— يا هذه مهلا .

ووجدت مه رقة وكياسة ولطفا فقالت :
— ما رأيت أحدا قط أحسن حيفا من رسول الله — عليه السلام .
وحجبها عليه السلام فأصعبت صفيه ست حي بن أحطط أم
المؤمنين .

(١) الأقط : سجد من المس الخفيض يطحن ثم يترك

(٢) السويق : صمغ يصنع من الحطة والشعر .

بلغ قريش أن رسول الله — ﷺ — سار إلى حبير فأظهر جماعة منهم السرور وقالوا إنها قرية الحجار ريفاً ومعة ورجالا ، وأن محمد بن عبد الله سيدوق الهزيمة عند حصون خبير ، وقال حويطب بن عبد العري إن رسول الله يعصب أهل خبير ، ووقع بين الفريقين مراعاة على مائة بعير ، وخرجوا يتحسسون الأخار ويسألون الركبان . فلما رأوا الحجاج قالوا :

— الحجاج بن علاط عبده والله الحر .

وحصوا إليه وقالوا :

— أخبرنا يا حجاج فإنه بلغنا أن القاطع قد سار إلى حبير وهي بلد

يهود وريف الحجاز .

— قد بلغني ذلك وعندي من الخبر ما يسركم .

فعدوا إلى ناقته وطافوا بها يقولون :

— إليه يا حجاج !

— هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله

قط وأسر محمد أسرا وقالوا : لا يقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين

أظهرهم ممن أصاب من رجائهم .

فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا :

— لقد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل

بين أظهركم .

وقال حجاج :

— أعينوني على جمع مالى بمكة على عزماني فإنى أريد أن أقدم خير فأصيب من قل^(١) محمد وأصحابه قل أن يسقى التجار إلى ما هنالك .

فقاموا فجمعوا له ماله كأحث جمع سمع به . وجاء صاحبه فقال : — مالى لعلنى الحق بحير فأصيب من فرص البيع قبل أن يسبقنى التجار .

وأظهر المشركون الفرح والسرور وانكسر من كان بمكة من المسلمين ، وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب فحمل لا يستطيع أن يقوم ، ثم بعث إلى حجاج غلاما وقال : — قل له يقول لك العباس الله أعلى وأجل من أن يكون الذى حدث به حقا .

فقال له الحجاج :

— اقرأ على أبى الفضل السلام وقل له ليخل لى بعض بيوته لآتيه بالخبر على ما يسره وأكرم عنى .

فأقبل الغلام فقال :

— أبشر أبا الفضل .

فوثب العباس فرحا كأن لم يمسه شيء وأخبره بذلك ، فأعنته العباس وقال :

(١) الفل : الجمع .

— لله على عتق عشر رقاب .

وتم سبع مائة منه الفرج إلى حيث كان حجاج حتى وقف إلى جنبه وهو في حيمة من حيام التحار فقال

— يا حجاج ، ما هذا الخبر الذي جئت به ؟

— وهل عندك حفظ لما وضعت عندك ؟

— نعم

— فاستأخر عني حتى أفرغ .

فلما فرغ حجاج من جمع كل شيء كان له ثمكة وأجمع الخروح لقي العباس فقال :

— احفظ علىّ حديثي يا أبا العفضل فإن أحشى الطلب ثلاثاً ثم قل ما شئت .

— أفعل .

— إني قد أسلمت وإن لي مالا عند امرأتى ودياً على الناس ، ولو علموا بإسلامي لم يدفعوه إلى إني تركت رسول الله — ﷺ — قد فتح حير وحرث سهام الله وسهام رسوله فيها وتركته عروسة يابسة ملكهم يحيى بن أخطب وقتل ابن أبي الحقيق .

فما أمسى حجاج خرج وطالت على العباس تلك الليالي الثلاث ، فلما مضت الثلاث عمد العباس إلى حلة فلبسها وتخلق بخلوق وأخذ يده قضياً ثم أقبل ينظر حتى أتى محالس قريش وهم يقولون إذا مر بهم :

— لا يصيبك إلا خير يا أبا العفضل . هذا والله التجلد بحر المصيبة .

فقال العباس في هدوء ليحفي شماتته :

— كلا والله الذي حلعت به لم يصنني إلا خير بحمد الله ، أحيرني

حجاج أن خير فتحها الله على يد رسول الله — ﷺ — وجرت فيها سهام الله وسهام رسول الله ، واصطفى رسول الله صفية بنت ملكهم حبي بن أخطب لنفسه وأنه تركه عروساً بها . وإنما قال ذلك لكم ليخلص ماله وإلا فهو ممن أسلم .

فرد الله الكأبة التي كانت بالمسلمين على المشركين ، فقال المشركون :

— انفلت عدو الله ، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن .

ولم يلبثوا أن جاءهم الخير بذلك وأن رسول الله لما فرغ من خير انصرف إلى وادي القرى فرل به مع غروب الشمس ومعه غلام له يقال له مدعم أهداه إليه رفاعه بن زيد الجذامي ، فينا هو يصع رحل رسول الله — ﷺ — أتاه سهم غرب فقتله فقال الناس :

— هنيئاً له الجنة .

فقال رسول الله — ﷺ :

— كلا والذي نفس محمد بيده ، إن قتلته لتحترق عليه في النار .

كان غلها من فيء المسلمين يوم حير ، فسمعها رحل من أصحاب رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله أصبت شركيين لعين لي .

— يقد لك مثلهما من النار .

كانت يهود وادي القرى قد ثوى إليها ناس من العرب ، فلما نزل المسلمون استقبلوهم بالرمي حيث نزلوا ، ولم يكن المسلمون على تبعة وهم يصيحون من آطامهم ، فعياً رسول الله — ﷺ — أصحابه وصفهم للقتال ودفع لواءه إلى سعد بن عباد وراية إلى الحباب بن المنذر

وراية إلى سهل بن حنيف وراية إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحققوا دماءهم وحسابهم على الله ، فبرر رجل منهم فبرز إليه الربيع بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه علي بن أبي طالب فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه أبو دجاجة الأنصاري فقتله ، حتى قتل منهم اثنا عشر رجلا كلما قتل رجل منهم دعى من بقي إلى الإسلام .

ولقد كانت الصلاة تحصر فيصلى عليه السلام بأصحابه ثم يعود ويدعو أهل وادي القرى إلى الله ورسوله ، فقال لهم — صلى الله عليه وسلم — حتى أمسى ، وعدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا بأيديهم وفتحها عوة وغنم أموالهم وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا ، فأقام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بوادي القرى أربعة أيام وقسم ما أصاب على أصحابه وترك الأرض والمخل بأيدي اليهود وعاملهم عليها . فلما بلغ يهود نيماء ما كان من أمر حير وفدك ووادي القرى صالحوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على الحزبة .

وشرد سلمان الفارسي يفكر ، إنه يرى نفسه وقد انتهت رحلة البحث عن الحقيقة إلى عمورية بلاد الروم ، إنه سمع هناك أنه قد أطل رمان سي يبحث يدي إبراهيم حيفا يهاجر إلى أرض ذات جبل بين حرتين ، وممر به ركب ذات يوم فسألهم عن بلادهم فعلم أنهم من جزيرة العرب مبعث ذلك النبي الأمي ، فأعطاهم بقراته وعسمة على أن يحملوه معهم إلى أرضهم . واصطحبوه معهم حتى قدموا به هذا الوادي وادي القرى ، وتذكر سلمان كيف ضموه وباعوه إلى رجل من يهود فإدا بالدموع تظفر إلى عيني الباحث عن الحقيقة وراح يقلب عيبيه في

النخيل ، إنه طمع في ذلك اليوم أن تكون هي البلدة التي وصفت له
والتي ستكون مهاجر النبي المنتظر .

وانتالت الذكريات على رأس سلمان فإذا به يرى ذلك اليهودي الذي
قدم يوما من بني قريظة إلى وادي القرى فابتاعه من مولاه ، واحتلظت
مشاهد بيعه ومشاهد خروج بني قريظة من حصونهم لمشاهد عمله في نخل
بني قريظة بتلك اللحظات التي لا تنسى لحظات أول مرة سمع فيها بمقدم
رسول الله — ﷺ — إلى المدينة .

وتراحمت في رأسه ذكريات إسلامه وذكريات أبياته مع رسول الله
عليه السلام ، ثم شرد إلى الأفق البعيد وهو بحمد الله على أن هداه إلى
الصراط المستقيم وأن سكب في قلبه أوار اليقين .

وانصرف رسول الله — ﷺ — راجعا إلى المدينة ، فلما كان ببعض
الطريق قال من آخر الليل :

— من رحل يحفظ عليا المعمر لعلى سام ؟

فقال بلال :

— أنا يا رسول الله .

فزل رسول الله — ﷺ — وزل الناس هاموا وقام بلال يصلي ،
فصلى ما شاء الله أن يصلي ثم استند إلى معبره واستقبل المعبر بمرقه^(١)
فغلته عليه فلم يوقظهم إلا من الشمس ، وكان رسول الله —
ﷺ — أول أصحابه استيقاظا فقال :

— ماذا صنعت بنا يا بلال ؟

(١) بمرقه : يظفر إليه .

— يا رسول الله أنعد بنفسى الذى أحد بنفسك .
— صدقت .

ثم اقتاد رسول الله — ﷺ — بعيره غير كثير ثم أناخ فتوصاً وتوصاً
الناس ، ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة فصلى رسول الله — ﷺ — بالناس ،
فلما سلم أقبل على الناس فقال :
— إذا نسيم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها ، فإن الله عز وجل
يقول : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (١) .

(١٧)

حرجت لمدينة تستقبل رسول الله — ﷺ — عند عودته من عروة
حبر ، الرجال تهلل وجوههم بالبشر والنولدان يعمرهم الفرح والساء
على أسطح المنازل قد عمرت أفئدتهم بالسرور ، والمافقون فى كمد
يظهرون غير ما تحفى الصدور .

وكانت السبوة فى دور الرسول عليه السلام يتأهب لاستقبال سبي
الإسلام الذى بصره الله بقلوب سليمة ، إلا عائشة فقد أحدث العبرة
تهش قلبها بعد أن جاءها نبأ رواح رسول الله عليه السلام من صعية بنت
حبي ملك اليهود الشابة الحميلة ذات السعة عشر ربيعاً .

وكانت أم حبيبة أم المؤمنين ترقب عودة رسول الله — ﷺ — صلوات الله
وسلامه عليه — فى لفظة ؛ إنها عادت من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب
وعمر بن أمية الضمري والمهاجرين الذين كانوا فى الحبشة واستقرت فى
المدينة تنتظر أوبة السى عليه السلام ، بيا انطلق الرجال إلى حبر

ليجاهدوا في سبيل الله .

وكانت عائشة على علم بأن رسول الله — ﷺ — كتب إلى الساحشي يروجه بنت أبي سفيان . فلما جاءت أم حبيبة إلى المدينة لم تستشعر عائشة نحوها عيرة فهي في الأربعين من عمرها ، وهي تستشعر في أعماقها أن ذلك الزواح مبعثه سياسي أما الزواح من اليهودية الحسناء فقد شغلها وأرق نومها .

وبلغ الركب المدينة ، وآثر السبي عليه السلام ألا يدخل على زوجته مصيبة فأنزلهما في بيت حارثة بن العمان ، وتسامعت نساء الأنصار بها فحس بطرن إلى جماعها . وراح عليه السلام يرور أهل بيته فبدأ بالرهراء وأخذ يقبل الحسن والحسين ، ثم دار على سائته فأحذن يرحس بمقدمه ويهشه بما فتح الله عليه ، وقد قرأ عليه السلام الغيرة في عيسى بنت الصديق فراح يرقبها .

وخرجت عائشة متقبعة على حذر وأخذ رسول الله عليه السلام يتبع خطاها ، إنها تسير إلى دار الحارثة بن العمان حيث استقرت صرتها الحديدية . ودخلت عائشة وانظر رسول الله عليه السلام حتى خرجت فأدركها وأخذ يثوبها وسألها ضاحكا :

— كيف رأيت يا شقراء ؟

وحاجدت عائشة لتدعيها وقالت وهي تهز كتفها في استحقاف :

— رأيت يهودية .

— لا تقول ذلك فإنها أسلمت وحسن إسلامها !

وعادت عائشة إلى حفصة لتبثها نحوها ، وكانت حفصة موضع سر عائشة ، وكانت عائشة أكثر نساء السبي عيرة عليه حتى إنها كانت تعار

من حديجة إذا مدحها رسول الله عليه السلام ، فقد قالت له ذات يوم لما ذكر حاضنة الإسلام بخير :

— قد بدلك الله خيرا منها .

فغضب رسول الله — ﷺ — وقال :

— والله ما أبدلني الله خيرا منها ، آمنت بي حين كدبتني الناس ، وودستني مما لها حين حرمني الناس ، ورزقت منها الولد وحرمتني من غيرها .

واتفق له عليه السلام أنه أرسل لهما لأمراة تأولوه — ﷺ — ودفعه لآخر يدفعه لها ، فسأته عائشة عن تلك المرأة فقال :

— إن خديجة أوصتني بها

فقالت عائشة في غضب :

— لكأنا ليس في الأرض امرأة إلا خديجة

فقام رسول الله — ﷺ — معضا ، فلبث ما شاء الله ثم رجع فإذا أم رومان أم عائشة فقالت :

— يا رسول الله مالك ولعائشة ؟ إنها حديثه انس وأنت أحق من يتحاور بها .

فأحد شفق عائشة وقال :

— والله لقد آمنت بي إذ كفر بي قومي ، ورزقت منها الولد وحرمتني .

كانت تعار من الأموات فما بالك بالأحياء الحسن !

وانتقلت صمية إلى دور النسي عليه السلام فأثرت السلامة ، فقد قطعت مد وطئت قدمها وجود حزين في دور رسول الله — ﷺ — صلوات

الله وسلامه عليه : حرب بقيادة عائشة ومعها حفصة وحزب من
الروجات الأخريات تؤيده فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه السلام ،
فعمرت على أن تكون صديقة الجميع فأهدت الزهراء حلية لها من ذهب
رمز مودة وولاء .

وراحت تقترب من بنت الصديق وبنت عمر ، وكانت حفصة فيها
حدة وكانت تعارض رسول الله عليه السلام وما كان عمر ليتصور أن
استه تراجع الرسول الكريم . وذات يوم صخب على امرأته فراجعت
فأنكر أن تراجعها ، فقالت .

— ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبی — ﷺ —
ليراجعنه وإن إحداهن لتجره اليوم حتى الليل .

فأفرعه ذلك مهن فدخل على حفصة فقال لها :

— أتعاضب إحداكن النبی — ﷺ — حتى الليل ؟ !

— نعم .

— قد خست وخسرت ، أفتأمنين أن يغضب الله بعضه رسولہ
فتهلكي ؟ لا تستكثري النبي — ﷺ — ولا تراجعيه في شيء ولا
تجره وسليني ما بدا لك ، ولا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ منك
وأحب إلى النبي — ﷺ — .

وذهبت نصيحة عمر أدراج الرياح ، فحفصة معتزة بشخصيتها لا
تتحرج من معارضة الرسول عليه السلام ، إنه عليه السلام يذكر عندها
أصحابه الذين يابعوه تحت شجرة الحديبية فقال :

— لا يدخل النار إن شاء الله أحد من أصحاب الشجرة الذين يابعوا
تحتها .

— بلى يا رسول الله !

فانتهرها . فقلت الآية :

— ﴿ وإن مكتم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴾ ^(١)

— قال الله : ﴿ ثم سحى الذين اتقوا ويدر الضالمين فيها حثيا ﴾ ^(٢) .

وشجر بين السى — صلى الله عليه وسلم — وبين حفصة أمر ، فقال لها :

— اجعل بينى وبينك رجلا .

— نعم .

— فأبوك إذا .

فأرست إلى عمر فحاء ، فلما دخل عليهما قال لها السى — صلى الله عليه وسلم :

— تكلمى .

— بل أنت يا رسول الله تكلم ولا تغل إلا حقا .

فرفع عمر يده فوجأها ^(٣) فى وجهها ، فقال له السى — صلى الله عليه وسلم :

— كف يا عمر .

فقال عمر فى غضب :

— يا عدوة الله . السى — صلى الله عليه وسلم — لا يقول إلا الحق والذي بعثه

بالحق لولا مجلسه ما رفعت يدي حتى تموتى .

كانت صمية ترى ما يحمرى فى دور الرسول عليه السلام فكانت وهى

العاقلة العاضلة تحاول أن تنأى بنفسها عن المعارك الخفية الناشئة بين

روحان الرسول عليه السلام . وكانت تتوعد إلى عائشة وحفصة لعلها

(١ ، ٢) مريم ٧١ — ٧٢ .

(٣) وجأها ضربه بها .

نعم بالهندوء وتسعد بحبا لى الإسلام ، صلوات الله وسلامه عليه ،
ولكها لم تسلم من التحقير دخل عليها — ﷺ — يوما وهى تكي
فقال لها فى ذلك فقالت :

— بدعتى أن عائشة وحفصة يالان مى ويقولان عن خير من
صفية ، نحن بنات عم رسول الله — ﷺ .

— قولى من كيف تكس خيرا مى وأنى هارون وعمى موسى عليهما
الصلوة والسلام ، وزوجى محمد .

وطلت صفية تحس فى أعماقها أنها عربية فى دور الرسول ، فأرواجه
عليه السلام لا يستصع أن يسير أصلها إنه كان فى سفر وهى معه
وريب بنت جحش فاعتل بعير صفية وفى إبل ريب فضل ، فقال لها :
— إن بعير صفية اعتل فلو أعطيتها بعيرا ؟

— أنا أعطى تلك اليهودية ؟

فهمج ريب بنت جحش لذلك ذا الحجة واحرم وبعض صفر ، ثم
أتها بعد وعاد إلى ما كان عليه معها .

(١٨)

المدينة تحتفل بصر الله والفتح قد ملأت الشوة أهدة الناس ، فما
كان يدور محمد أحد من الأوس والخزرج قبل أن يشرفهم الله برسائه أن
يأتى يوم تكون فيه كمة العرب هى العليا ، وأن يضرب الذلة والمسكة
على نبي إسرائيل الذين عدوا أنفسهم عرورا وقالوا فى تبجح إنهم
وحدهم الناس .

وكانت أم حبيبة بنت أبي سفيان في الدار تنتظر دحوها على رسول الله ﷺ — وقد عمرها سرور امتزج برهة ، وترامى إليها أصوات الرجال الذين اجتمعوا حول الوليمة التي أعدها عثمان بن عفان فتهللت بالمرح فأميتها التي عاشت لها مذبذب أرسل عليه السلام عمرو بن أمية الضمري إلى الحاشي ليزوجها منه ، ﷺ — تتحقق ، فلن يقضى النيل قبل أن تنال رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه . ومن أذنيها صوت ذي النورين عثمان بن عفان فإذا بها تتذكر أيام أن كان عثمان وروحه رقية بنت رسول الله ﷺ — في الحبشة ، كانا ملاذ المسلمين هناك وكان عثمان على خلق كريم يحشى الله ويستحي منه الناس ، فكان ربة المسميين ، وكانت وشائج القرى تربط بينه وبينها فصية بنت أبي العاص بن أمية أمها عمته ، وكانت سعيدة بهذه القرابة وبكر أحوال الإسلام كانت تحمله أقرب إلى نفسها من أبيها أبي سفيان ودخلت أم حبيبة على رسول الله ﷺ — وأحدث خبره كيف كانت الخطبة ، قالت :

— رأيت في المنام كأن قائلا يقول لي يا أم المؤمنين ففرعت فأولتها بأن رسول الله ﷺ — يتزوجني ، فما شعرت إلا وقد دخلت على حارية الحاشي فقالت لي إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ — كتب إليه يزوجك منه ، فقلت لها بشره الله بالخير .

ويقول لك وكئي من يزوجك ، فأرسلت بالوكالة إلى خالد بن سعيد وأعطيت تلك الحارية سوارين وخدمتين (حلحالين) وحواتهم قصة سرورا بما بشرت به .

فلما كان العشي أمر الحاشي جعفر بن أبي طالب ومن معه من

مسلمين محضرو ، وحطبت الحاشي فقال : احمد الله الملك القدوس ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنه لذي بشر به عيسى بن مريم عليه السلام ، أما بعد فإن رسول الله ﷺ — كتب إلي أن أروجه أم حبيبة بنت أبي سفيان فأحيا لي ما دعا إليه رسول الله ﷺ ، وقد أصدقها أربعمائة دينار — ثم مكب الدنانير بين يدي ، فبكتم خالد بن سعيد بن العاص فقال : الحمد لله أحمده وأستعيه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . أما بعد فقد أجت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ — وروحه أم حبيبة بنت أبي سفيان فارك الله لرسول الله ﷺ . ودفع الحاشي الدنانير لخالد ابن سعيد قبضها منه .

ثم ما أرادوا أن يقوموا بعد العقد قال لهم لحاشي . اجلسوا فإن من مس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج ، فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا . فلما كان من العدا حاءتني حارية لحاشي فردت عني جميع ما أعطينها وفات . — منعت عرم عني ألا أرى لك شيئا ، وقد أمر الملك نساء أن يبعثن إليك بكل ما عدهن من العطر . وحاءت بورس وعمر ورياد كثير وقالت : حاجتي إليك أن تقرني رسول الله ﷺ — مني السلام وتعلمه أني قد تسعت ديه .

وكانت كلما دخلت علي تقول : لا تنسى حاجتي إليك .

فتسم رسول الله ﷺ — وقال :

— وعليهما السلام ورحمة الله وبركاته .

كانت أم حبيبة راضية مستبشرة بيا كان أبوه أبو سفيان في حيرة قد

نزل به هم ثقيل . إنه في دار الندوة يتشاور مع سادات قريش ، فأبو بصير وأبو حننل ومن معهما من المسلمين لا يظفرون بأحد من قريش إلا قتلوه ، وما تخرهم غير إلا أخذوها . كان سهيل بن عمرو يوم اشترط في صلح الحديبية أن من جاء رسول الله — ﷺ — مسلما من قريش رده إليهم بحسب أنه انتصر لما أملى ذلك الشرط ، وقد برهنت الأيام أنه فتح على قريش بابا من الشر تصطلق ساره ؛ فقوافل قريش الرائحة العادية بين مكة والشام باتت في خطر ، وتجارة قريش نوشك أن تنور .

ثار أبو سفيان ثورة عارمة وقال لو أنه حصر صبح الحديبية ما أصبر على ذلك الشرط الذي طن المسلمون أنه مححف هم وكاد يصدع ائلافهم لولا قوة شخصية سى الإسلام ، وقد برهنت الأيام أنه عليه السلام كان وحده يعرف أن ذلك الشرط الذي يبدو نصرا لقريش سيصبح شوكة في حوسهم تقص مصاححهم وتجعلهم بهرعون إليه ينتمسون مه أن يخلصهم من ثورة الدين لن تقبيلهم المدينة ولن يعودوا إلى مكة ليقتلوا عن دينهم ويساموا ألوان العذاب .

وراح سادات قريش يقدون وجوه الرأى ، قال قائل منهم :
— نكتب له نساله بالأرحام إلا آوهم ولا حاجة لنا بهم .

وكادوا يستقرون على هذا الرأى ولكهم حشوا ألا تكون الكتانة وحدها كافية لإسقاط شرط في صبح أقره الجانبان وشهد عليه شهود ، فقررروا أن يذهب أبو سفيان إلى المدينة ليقر بأن من أتى رسول الله عليه السلام من مسلمى مكة فهو آمن ولا حاجة هم به .

وشد أبو سفيان بن حرب الرحال إلى المدينة وهو يحس في عين ذاته أن اليوم غير الأمس . إنه قاد جيش قريش يوم أحد وهو يرجو أن

يستأصل شأفة المسلمين ، وفاد الأحزاب يوم الحندق وهو في رهوه لا يخالجه شك أن النصر حليفه ، أما اليوم فهو يطلق إلى المدينة ليلتمس من محمد أن يسقط شرطاً في المعاهدة كان سادات قريش يحسبونه عين النصر .

ودخل رعيم قريش وسيدها المدينة فهرع إليه المسلمون يقودونه إلى حيث كان رسول الله ﷺ ، واجتمع الرجال في المسجد ولم يكن يفصل بين أنى سفيان وأمه أم حبيبة سوى جدار الدار ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يذهب إليها ليلأ عييه منها ، فهي قد اختارت الله ورسوله على أيها وكل قومها الذين عميت قلوبهم التي في صدورهم عن نور .

وقال أبو سفيان : إنا أسقطنا هذا الشرط من الشروط ، من جاءهم إليك فأمسكه في غير حرح ، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا بآنا لا يصلح إقراره .

وراح عمر بن الخطاب يعطر إلى ما يحرى أمامه وهو مشدوه : إنه يحس عرق الخجل يغمره وتذكر ثورته يوم الحديبية إذ وثب فأثنى أبا بكر فقال : أليس هو برسول الله ؟ قال أبو بكر : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال أبو بكر : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال أبو بكر : بلى . قال : فعلام يعطى الدنيا في ديسا ؟

ورن في أغواره صوت أبي بكر وهو يقول : « يأيتها الرجل إنه رسول الله ﷺ — وليس يعصي ربه وهو ناصره ، استمسك بفروه^(١) حتى تموت » فأحس كأن الأرض تميد به^(٢) ، ووقعت عيناه على أنى

(١) العر ليلال والركاب يفرس والمراد . لارمه .

(٢) تميد : تضطرب .

عبدة من الخراح فإذا بقوله يوم الحديبية يخر روحه ويصبيه : « ألا تسمع يا من الخطاب رسول الله — ﷺ — يقول ما يقول ؟ تعود بالله من الشيطان الرجيم » .

إنه تكلم في ذلك اليوم كلاما رجا أن يكون خيرا فإذا به يعلم الساعة أن عضبه لرد أبي جدل إلى قريش مع أبيه سهيل بن عمرو لم يكن صوابا ، وأن طاعة رسول الله — ﷺ — خير مما أحبه . وعزم عمر على أن يصوم ويتصدق ويصلي ويعتق محافة الذي تكلم به في صلح الحديبية .

وكتب رسول الله — ﷺ — إلى أبي جدل وإلى أبي بصير أن يقدما عليه ، وأن من معهما من المسلمين يلحقون ببلاذهم وأهلهم ولا ينعصوا لأحد من هم من قريش ولا لعيراتهم .

كان أبو بصير وأبو جدل ومن انضم إليهما من عفار وأسلم وحبشة وطوائف من العرب قد نزلوا محلا من طريق الشام تمر به عيرات قريش ، وكانوا ثلاثمائة مقاتل لا تمر بهم عير إلا أخذوها . فضافت قريش بفعالهم وكانوا يعرفون خطر ما يقومون به فكاست بعوسهم راضية وإن كانوا في شوق إلى رؤية رسول الله — ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه .

وأحسن أبو بصير بالوهن بدب في كياه وعرف أنه الموت فلم يجرع ، ولكن فؤاده كان يهوى إلى المدينة وإلى رسول الله عليه السلام . وسحى في فراشه ليجود بأنفاسه ، ويبا هو يقاسي سكرات الموت قدم كتاب رسول الله فلما قرعوه ارتفعت الأصوات بالتكبير ، فمد أبو بصير عينيه إلى حيث كان أبو جدل لكأما كان يسأله عن النبا العظيم الذي أشاع الفرح بين الرجال ، فمد أبو جدل إليه يده بالكتاب فأخذ

أبو بصير يقرأه بعينين واهيتين ورفعت على شفتيه بسمه رضا ، ثم مات
وكتاب رسول الله — ﷺ — في يده .
وراح الرجال يظفرون إليه بأعين دامعة وبترحمون عليه ويتذكرون
قول رسول الله — ﷺ — في حقه :
— ويل أمه مسعر حرب أن لو كان معه رجال .
وكان معه رجال .

(١٩)

وفد على رسول الله — ﷺ — قبل صلح الحديبية تسعة رهط من
بني عيس فكانوا من المهاجرين الأولين ، قالوا :
— إنه قدم علينا قراؤنا فأحبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له ، ولنا
أموال ومواشي هي معاشنا ؛ فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها
وهاجرنا .
فقال رسول الله — ﷺ :
— اتقوا الله حيث كنتم ، فلن يلتكم ^(١) من أعمالكم شيئا ولو كنتم
بصمد وجاران ^(٢) .

ولما سمعت سعد العشيرة بخروج النبي — ﷺ — وثب رجل من
بني أسد الله بن سعد العشيرة إلى صمم يقال له فراس فحطمه ، ثم وفد

(١) يلتكم : يتقصكم .

(٢) موضع في طريق حاج صماء .

إلى السى — ﷺ — فأسلم وقال :

تبع رسول الله إذ جاء بالهدى

وعلفت فرأى بدار هوان

شددت عليه شدة تركسه

كأن لم يكن والدهر ذو حدثان

فلما رأيت الله أظهر دينه

أجبت رسول الله حين دعانى

فأصبحت للإسلام ما عشت ناصرا

وألقيت فيها كلسكلى وجرانى

فمن مبلغ سعد السعيرة أننى

شريت الذى يقى بأخسر فانى

ووفد إليه عليه السلام عبد العزى بن بدر بن زيد بن معاوية الخهسى

ومعه أخوه لأمه أبو روعة وهو ابن عم له ، فقال رسول الله — ﷺ —

لعبد العزى :

— أنت عبد الله .

وقال لأبى روعة :

— أنت رعت العدو إن شاء الله .

وقال :

— من أنتم ؟

— بنو غيَّان .

— أنتم بنو رشدان .

وكان هم صمم وكانوا يعظمونه ، وكان عمرو بن مرة الخهسى

سادنه ، فلما سمع برسول الله — ﷺ — كسره وخرج حتى أتى
السي — ﷺ — فأسلم وشهد شهادة الحق وآمن بما جاء به من حلال
وحرام ، ثم قال :

شهدت بآن الله حق وأنسى
لآلهة الأحجار أول تبارك
وشمرت عن ساق الإزار مهاجرا
إليك أحوب الوعث بعد الدكادك^(١)
لأصحب خير الناس نفسا ووالدا
رسول ملك الناس فوق الحياتك^(٢)

فبعثه رسول الله — ﷺ — إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فأجابوه
إلا رجلا واحدا رد عليه قوله .

وكان أول من وفد على رسول الله — ﷺ — من مضر أربعائة من
مزيّة ، وذلك في شهر رجب سنة خمس ، فجعل لهم رسول الله —
ﷺ — المحجرة في دارهم وقال :

— أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم .
وكان أول من قدم منهم خزاعي بن عبد نهم فبايعه على قومه مزيّة ،
وقدم معه عشرة فيهم بلال بن الحارث والعمان بن مقرن ، ثم خرج إلى
قومه فلم يجدهم كما ظن فأقام ، فدعا رسول الله — ﷺ — حساد بن

(١) الوعث . المكان السهل والدكادك . أرض فيها غلط .

(٢) الحياتك . طريق الحوم أراد فوق السموات

ثابت فقال :

— اذكر خزايعا ولا تهجه .

فقال حسان :

ألا أبلغ خزايعا رسولا

بأن الذم يغسله الوفاء

وأنت خير عثمان بن عمرو

وأساها إذا ذكر النساء (١)

وباعت الرسول وكان خيرا

إلى خير وآدك النساء

فما يعجزك أو ما لا تطقه

من الأشياء لا تعجز عسداء

وعداء بطله الذي هو مه ، فقام حراعى فقال :

— يا قوم قد حصكم شاعر الرجل فأشدكم الله .

— فأنا لا ننبؤ (٢) عليك .

فأسلموا ووفدوا على النبي — ﷺ .

وبعث بنو سعد بن بكر إلى رسول الله — ﷺ — رجلا منهم يقال

له صمام بن ثعلبة في شهر رجب سنة خمس ، فقدم وأناخ بعيه على باب

المسجد ثم عقله . ثم دخل المسجد رجلا جلدا أشعر ذا غديرتين فأقبل

حتى وقف على رسول الله — ﷺ — في أصحابه فقال :

(١) أساها : أكثرها ضياء والمراد أشرفها .

(٢) نبعث عنك .

— أيكم ابن عبد المطلب ؟

فقال رسول الله ﷺ — عليّ :

— أنا ابن عبد المطلب .

— أحمد ؟

— نعم .

— يا ابن عبد المطلب ! إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا

تجد^(١) في نفسك .

— لا أجد في نفسي فاسأل عما بدا لك .

— أشدك الله إهلك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله

بعثك إلينا رسولا ؟

— اللهم نعم .

— فأشدك الله إهلك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ،

الله أمرك أن تأمرنا أن نعبد وحده لا شريك له شيئا ، وأن نخلع هذه

الأنداد^(٢) التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟

— اللهم نعم .

— فأشدك الله إهلك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ،

الله أمرك أن تصلي هذه الصلاة الخمس ؟

— نعم .

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة : الزكاة والصيام

(١) لا تجد في نفسك : لا تصبر غيظا .

(٢) الأنداد : جمع ند ، وهو الظير للمعادل .

والحج وشرائع الإسلام كلها يشده عن كل فريضة منها كما يشده في التي قبلها ، حتى إذا فرغ قال :

— فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وسأؤدى هذه لفرائض . وأحتسب ما بيني عنه ثم لا أريد ولا أنقص .

ثم انصرف إلى بعيره راجعا ، فقال رسول الله — ﷺ :

— إن صدق ذو العقيصتين (الصغيرتين) دخل الجنة .

فأتى بعيره فأطلق عقاله ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به :

— بس اللات والعزى .

فقالوا :

— مه يا ضمام ! اتق الرص ، اتق الخدام ، اتق الحيون .

— وبلكم ! إلهما والله لا يمعان ولا يصران . إن الله قد بعث رسولا

وأنزل عليه كتابا فاستفدكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، وقد حثتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه .

فما أمسى من ذلك اليوم في حيه رجل أو امرأة إلا مسلما .

وقدمت أشجع على رسول الله — ﷺ — عام الخندق وهم مائة ،

رأسهم مسعود بن ربيعة بن نورة بن طريف فنزلوا شعب ملح (جبل

بصاحبة المذبذبة) فخرج إليهم رسول الله — ﷺ — وأمرهم بأحمال

التمر ، فقالوا :

— يا محمد ! لا تعلم أحدا من قوما أقرب دارا منك منا ولا أقل

عددا ، وقد ضفنا بحربك وبحرب قومك فحثنا نوادعك .

فوادعهم ثم أسلموا بعد ذلك .
 كانت الوفود تأتي إلى رسول الله عليه السلام قبل صلح الحديبية ،
 وقد جاءت الوفود بعد الصلح ، قدم أبو ثعلبة الخشني على رسول
 الله ﷺ — وهو يتجهز إلى بخير فأسلم وخرج معه فشهد حير ،
 ثم قدم بعد ذلك نفر من خشين فزلوا على أبي ثعلبة فأسلموا وبايعوا
 ورجعوا إلى قومهم .

ووفد الأشعريون مع جعفر وأصحابه على رسول الله ﷺ ، وكان
 الأشعريون خمسين رجلا منهم أبو موسى الأشعري ومعه رجلان من
 عك ، وقدموا في سفن في البحر وخرجوا بجدة ، فلما دنوا من المدينة
 جعلوا يقولون :

غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه

ثم قدموا فوجدوا رسول الله ﷺ — في سفره بخير ، فلقوه —
 ﷺ — فبايعوه وأسلموا ، فقال رسول الله ﷺ :
 — الأشعريون في الناس كصرة فيها مسك .

وقدم على رسول الله ﷺ — رجل من بني سليم يقال له قيس بن
 سبيبة ، فسمع كلامه وسأله عن أشياء فأحابه ووعى ذلك كله ، ودعاه
 رسول الله ﷺ — إلى الإسلام فأسلم ورجع إلى قومه فقال :
 — قد سمعت برحمة (١) الروم وهيمة فارس وأشعار العرب وكهانة
 الكهان وكلام مفاول حير ، فما يشبه كلام محمد شيئا من كلامهم
 فأطيعوني واخلوا نصيكم مه .

كانت هدية الحديبية سببا في انتشار الإسلام ، فإن الكفار لما أمروا القتال احتلطوا بالمسلمين فأثر فيهم الإسلام فأسلم كثير منهم حتى إن الذين أسلموا في سنتين بعد الصلح يعدلون الدين أسلموا قبلهما ، وقال أبو بكر الصديق :

— ما كان فتح الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد — ﷺ — وربه ، والعباد يعجبون والله لا يعجل لمحلة العباد حتى يبلغ الأمور ما أراد الله .

(٢٠)

أنزل رسول الله — ﷺ — مارية في بيت لحارثة من العجم فكانت على قرب من مسجد الرسول ودور نسائه . إنها جميلة جعدة فأعجب بها رسول الله عليه السلام فكان عامة الليل والنهار عندها ، فحزعت عائشة بت أنى بكر وما عارت على امرأة إلا دون ما عارت على مارية .

كانت مارية من قرية من صعيد مصر تدعى « حصن » قرية من بلدة « أنصتا » على الضفة الشرقية لنيل تجاه الأشمونين ، وكانت لأب قطي وأم مسيحية رومية فحاضت جميلة جمعت أروع ما في الدم المصرى والدم الرومانى .

وأعاد وهود مارية في هدايا المقوقس إلى رسول الله — ﷺ — واصطفها لها لعمه ذكريات بعيدة ، ذكريات إهداء ملك مصر هاجر المصرية إلى خليل الرحمن عليه السلام فقد أصبحت أم العرب لما أنجبت إسماعيل أبا العرب . ترى أتجبت مارية لرسول الله ولدا فيجدد الأواصر

بين العرب والمصريين ويصبح الحمر بين حصارة الماضي ودهس المستقبل ؟

وراحت عائشة ترقب في قلب هذه الجارية الحلوة التي وفدت من وادي النيل لثبر غريتها فجذعت لما رأت الرسول الحبيب عليه السلام يكثر من التردد عليها ويمكث لديها طويلا ، ولما كانت عائشة وحفصة صديقتين لا سر بينهما فقد عبرت عائشة عن قلقها وهي تناجي بنت عمر وتمت لو أن الله يريهما من بنت شمعون القبطية .

وطال الحديث بين مارية ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه حول هاجر المصرية وإبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل الذي تكونت بركته مكة حول البئر التي فحرها الله تحت قدميه وقد أشرف على الهلاك عطشا ، فأنت مارية حين تحلو بنفسها أن تفكر في هاجر ومصريتها وأمومتها لإسماعيل والعرب ، وبانت أحلامها المحضة تنمى أن تهب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — الولد كما وهت هاجر جده إبراهيم الولد . وكان عليه السلام — في بيت حفصة فاستأذنت في زيارة عائشة لأمرهما كانتا متصادقتين فأذن لها ، فأرسل رسول الله — عليه السلام — إلى مارية وأدخلها بيت حفصة فرجعت حفصة فأبصرت مارية مع النبي — عليه السلام — في بيتها فلم تدخل حتى خرجت مارية ، ثم دخلت وقالت له : — إني رأيت من كان معك في البيت .

وغضبت وبكت وقالت :

— يا رسول الله لقد جئت إلى شيء ما حدث به إلى أحد من

نسائك ، في يومي وى بيتي وعلى فراشي !

فلما رأى رسول الله في وجهها الغيرة قال لها :
 — أما ترصين أن أحرمها على نفسي ولا أفرمها أبدا ؟
 — بلى .
 وحلف ألا يقربها وقال :
 — اكنمي على .

ولم تستطع حفصة أن تكتم السر فانطلقت إلى عائشة وقالت :
 — قد أراحنا الله من مارية فإن رسول الله — ﷺ — قد حرمها
 على نفسه .

وعرف رسول الله عليه السلام أن حفصة لم تكتم عليه وأنها أباأت
 عائشة بأمر مارية ، فلما أخبر عائشة ببعض ما أسرته لها حفصة قالت
 عائشة :

— من أنباك هذا ؟

— نبأني العليم الخبير .

وسرعان ما ذاع الخبر بين ساء رسول الله عليه السلام فجنس يحض
 في الحديث ، فأقسم عليه السلام أن لا يجتمع بهن شهرا ، وصعد إلى
 مشربة له يرق إليها بعجلة وهو جذع يرق عليه إلى المشربة وينحدر منها
 عليه ، وغلام له أسود يقال له رباح على رأس العجلة ، وأنزل الله تعالى :
 ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ • قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ •
 وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ
 عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ
 بَأْنَى الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ • إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ

فإن الله هو مولاه وحبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير .
عسى ربه إن طلقك أن يبدله أزواجا حيرا مكن مسلمات مؤمنات
قاتنات نائبات عابדות سائحات نيبات وأبكارا ﴿١﴾ .

وحاء الليل ورسول الله عليه السلام في المشربة ، فقدم على عمر بعض
أصدقائه من الأنصار فدق عليه بابه وباده فخرج إليه فقال :
— حدث عظيم .

— ماذا ؟ أ جاءت غسان ؟

كانوا حدثوا أن غسان فعل الخيل لغروهم ، فحسب عمر أن غسان
قد جاءت تدهم المدينة فقال الأنصاري :

— لا بل أمر أعظم من ذلك وأطول . طلق رسول الله — ﷺ —
نساء .

— حانت حفصة وحسرت ! كنت أظن هذا كائنا .

— حتى إذا صلى الصبح شد عليه ثيابه ودخل على حفصة وهي تبكي
فقال :

— أطلقك رسول الله — ﷺ — ؟

— لا أدري هو هذا معتزلا في هذه المشربة .

— لأقولن من الكلام شيئا أضحك به السي — ﷺ .

وأق رباح وهو واقف على رأس العجلة فقال :

— استأذن لعمر .

فدخل الغلام ثم خرج وقال :

— قد ذكرت لك له فصمت .

فانطلق عمر حتى أتى المسجد فجلس قليلا ثم غلبه ما يجبد ، فأتى الغلام فقال :

— استأذن لعمر .

فدخل ثم خرج إليه فقال :

— قد ذكرت لك له فصمت .

فما كان في المرة الرابعة وقال له مثل ذلك ولى مدبرا فإذا العلامة يدعوه فقال :

— ادخل قد أذن لك .

فدخل فسلم على رسول الله — ﷺ — فإذا هو متكئ على رمل حصى قد أثر في جنبه فقال :

— أطلقت يا رسول الله نساءك ؟

فرفع رأسه إلى عمر وقال :

— لا .

— الله أكبر .

— ثم قال :

— كما معشر قريش بمكة يعلب على النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تعلمهم نساؤهم فطلق نساؤنا يتعلمن منهم ، فكلمت زوجتي فراجعتني فأبكرت عليها فقالت تنكر أن راجعتك فوالله لقد رأيت أرواح السي — ﷺ — يراحعه وتمحره إحداهن اليوم إلى الليل . فقلت قد خاب من فعل ذلك وحسر ، أنا من إحداهن أن يغضب الله عليها لعصب زوجها رسول الله — ﷺ — ؟

فذهبت إلى حفصة فقلت أترأى رسول الله ﷺ ؟ فقالت نعم
وعجّره إحداها اليوم إلى الليل . فقلت قد خاب من فعل ذلك منك
وخسر ، أنا من إحداكن أن يفضب الله عليها لغضب رسول الله ﷺ —
ﷺ ؟ لا تراجعين رسول الله ﷺ — ولا تسألينه شيئا وصليني ما
بدا لك ، ولا يغرنك إن كانت جارتك أحب إلى رسول الله ﷺ —
منك .

فتبسم عليه السلام فقال عمر :

— أستاذنس يا رسول الله ؟

— نعم .

فجلس وقال :

— يا رسول الله قد أثر في جنبك رمل هذا الحصر وفارس والروم قد
وسع عليهم وهم لا يعبدون الله .

فاستوى — ﷺ — جالسا وقال .

— أفي شك أنت يا من الخطاب ! أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم
في الحياة الدنيا .

— أستعفر الله يا رسول الله .

ومرت الأيام ورسول الله عليه السلام يمضي سحابة يومه في شئون
الناس وطرفا من الليل في مسجده يصلي ثم يصعد إلى المشربة ، وخلت
دور الرسول عليه السلام من الهجة وراى عليها ترقب وقلق وانتظار .
فلما مضى تسع وعشرون يوما أنزل الله تعالى عليه أن يحجر نساءه في
قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
وَرِيتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتَعِكُنَّ وَأَمْرُكُمْ سَرِاحًا جَمِيلًا ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ اللَّهَ

ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحساتمكن أجرا عظيما . يا
 نساء النبي من يأت منكم بفاحشة مبينة بضاعف لها العذاب ضعفين
 وكان ذلك على الله يسيرا . ومن يقنت منكم لله ورسوله وتعمل صالحا
 نؤتيها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما . يا نساء النبي لستن كأحد من
 النساء إن اتقنن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا
 معروفا . وقرن في بيوتكن ولا تخرجن نرج الحاهلية الأولى وأقم الصلاة
 وآت الركة وأطع الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل
 البيت ويطهركم تطهيرا . واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله
 والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا ^(١)

فرل عليه السلام ودخل على عائشة فقالت له -

— يا رسول الله أقسمت أن لن تدخل عينا شهرا وقد دخلت وقد
 مضى تسع وعشرون يوما أعددهن .

— إن هذا الشهر تسع وعشرون .

ثم قال — ﷺ :

— يا عائشة إني ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمرى
 أبويك .

— فما هو يا رسول الله ؟

فقرأ عليهما : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا
 وريتها فتعدين أنفسكن وأسر حكن سراها حبيلا . ﴾

— أي هذا أستاذم أبوي ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة .

ثم قالت له :

— لا تغير امرأة من نسائك بالذى قلت لك .

— لا تسألى امرأة منهن إلا أحبتها أو الله لم يعشى متعتا ولكن بعثى معلما ميسرا .

ثم فعل بقية أرواحه — ﷺ — مثل ما فعلت عائشة ، وعاد إلى دور الرسول عليه السلام المور الذى غاب عنها .

(٢١)

كان أبو هريرة يلزم رسول الله — ﷺ — بشبع طبه حتى لا يأكل الخمر ولا يمس الخمر ولا يخدمه أحد . وكان فى سبعين رجلا من أهل النصف ما منهم رجل عليه رداء إما ردة أو كساء قد ربطوها فى أعاقهم يشدد بهم الألم من الجوع ، فيخرج من بينه إلى المسجد لا يخرج إلا الجوع ، فيجد نفرا من أصحاب رسول الله — ﷺ — يقولون :

— يا أبا هريرة ما أخرجك هذه الساعة ؟

— ما أخرجنى إلا الجوع .

— نحن والله ما أخرجنا إلا الجوع .

فقاموا فدخلوا على رسول الله — ﷺ — فقال :

— ما جاء بكم هذه الساعة ؟

— يا رسول الله جاء بنا الجوع .

فدعا رسول الله — ﷺ — بطلق فيه تمر فأعطى كل رجل منهم

تمرتين ، فقال عليه السلام :

(صلح الحديدية)

— كلوا هاتين التمرتين واشربوا عليهما من الماء فإنهما ستحريانكم يومكم هذا .

فأكل أبو هريرة ثمرة وجعل ثمرة في حفرته ، فقال رسول الله ﷺ —

— يا أبا هريرة لم رفعت هذه الثمرة ؟

— رفعتها لأمي .

— كلها فإننا ستعطيك لها ثمرتين .

فأكلها فأعطاه عليه السلام لها ثمرتين ، وكانت أمه بقيت على الشرك فدخل يدعوها إلى الإسلام فلم تستجب لدعوته وأعرضت عنه فأحس أبو هريرة أسي ، إنه يحب أمه وإنه يحاهد على أن يزحرجها عن النار ولكنها تأتي في صلف واستكبار .

صحب أبو هريرة رسول الله ﷺ — في حله وترحاله بدخل بيته ويحصر مجلسه وقد اتخذ الصفة مكانا له يتقل بين الصحابة بمرثونه انقرآن ، وجعله رسول الله ﷺ — عريف أهل الصفة فإذا أراد رسول الله ﷺ — أن يجمعهم لطعام حصر تقدم إلى أبي هريرة ليدعوهم ويجمعهم لمعرفته بهم وعنايتهم ومراتهم .

وقصيت صلاة العشاء فانصرف الناس إلى دورهم وبقي أبو هريرة يمتضي ليله في المسجد . ودخل الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — مرله ونام أصحابه ، ولما انقضى من الليل ثلثه حرج الرسول عليه السلام إلى المسجد وقال لأبي هريرة :

— ادع لي أصحابي .

فجعل أبو هريرة يأتيهم رجلا رجلا فيوقظهم حتى جمعهم فحاجوا باب

الرسول عليه السلام فاسأذنوا فأذن لهم ، فدخلوا وكانوا قرابة ثلاثين رجلا فوضع الرسول لهم صحيفة فيها صنيع شعير ووضع يده عليها وقال :

— خذوا باسم الله ، والذى نفس محمد بيده ما أمسى في آل محمد طعام ليس شيئا تروه .

كان أبو هريرة يقاسى من الجوع ولكن ما كان يعايبه من أمه أفسى وأشد ؛ إنه يدعوها إلى الإسلام فلا تستجيب فأصابه من الهم والحر ما أضناه .

وكان أبو هريرة يحب رسول الله — ﷺ — حبا جما ويحب من أحبه رسول الله — ﷺ — فقد لقي أبو هريرة الحسن بن علي فقال له :
— أرى أقل منك حيث رأيت رسول الله — ﷺ — يقول .
فرفع القميص وقل سرته .

وذاث يوم كان الجوع يمرق أمعاءه فألقى عمر بن الخطاب مقام له وهو يسبح بعد الصلاة ، فانظره فلما انصرف دنا منه فقال .
— أفرئت آيات من كتاب الله .

وما يريد إلا الطعام فأقرأه آيات من سورة آل عمران ، فلما بلغ أهله دخل وتركه على الباب فقال :
— ينزع ثيابه ثم يأمر لى بطعام .

فلم ير شيئا فلما طال عليه قام فمشى ، فاستقبله رسول الله — ﷺ — فكلمه فقال :

— يا أبا هريرة إن حلوف فمك الليلة لشديد ؟ !
— حل يا رسول الله لقد طبلت صائما وما أفطرت بعد وما أحد م

أفطر عليه .

— انطلق .

فانطلق معه عليه السلام حتى أتى بيته فدعا جارية له سوداء فقال :
— آتينا بتلك القصعة .

فأتتهم بقصعة فيها بقية من طعام قد أكل وبقى في جوارها بعضه ،
فسمى عليه السلام وجعل أبو هريرة يشعه عليه السلام فأكل حتى شبع .
كان أبو هريرة لا يقطع عن محالس رسول الله — صلوات الله
وسلامه عليه ، وكان حريصا على أن يسأل رسول الله — ﷺ — عن
أشياء لا يسأله أصحابه عنها ، قال :

— يا رسول الله إني إذا رأيتك ضاقت نفسي وقرت عيني ، فأبشئ
عن كل شيء .

— كل شيء خلق من ماء .

— يا رسول الله أنشئ عن أمر إذا أخذت به دخلت الجنة ؟

— أفش السلام وأطعم الطعام وصل لأرحام وقم بالليل والناس
نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام .

وكان أبو هريرة حريصا على أن يتعلم من رسول الله عليه السلام .
فبما يريد بن ثابت وأبو هريرة وأخروى المسحذات يوم يدعون الله تعالى
وذكروا به إذ خرج عليهم النبي — ﷺ — حتى جلس إليهم فسكنوا ،
فقال عليه السلام :

— عودوا إلى الذي كنتم فيه .

فدعا ريد هو وصاحبه قبل أن يهريرة ، وجعل رسول الله —
ﷺ — يقول :

— آمین .

ثم دعا أبو هريرة فقال :

— اللهم إني أسألك ما سألك صاحبائى وأسألك علما لا ينسى .

فقال — ﷺ :

— آمين .

فقالا .

— يا رسول الله ونحن نسأل الله علما لا ينسى ، فقال :

— سبقكما بهما الغلام الدوسي .

كان أبو هريرة في الثلاثين وكان ملازما أمه ، ولم يكن يعكر صفو حياته إلا إعراس أمه الحبيبة عن الإسلام . إنه يتوسل إليها أن تلقى إليه سمعها ، ولكنها كانت تضع أصابعها في أذنيها وتشيع عنه فيستشعر كأن حناجر تصوب إلى قلبه وكأن أشواك الأرض تغز روحه فلا يجد عراء إلا أن يتوجه إلى الله يدعوه أن يهدي أمه الصراط المستقيم .

كان حريصا على إسلام أمه حرصه على شكر الله على هدايته ، فكان

يقول :

— الحمد لله الذي هدى أبا هريرة للإسلام ، الحمد لله الذي علم أبا

هريرة القرآن ، الحمد لله الذي من على أبي هريرة بمحمد — ﷺ .

وكان حريصا على أن يحفظ أحاديث رسول الله — ﷺ — حرص

عد الله بن عمر على أن يتبع آثار النبي — ﷺ — في مارله ، قال عليه

السلام :

— من يأخذ من أمتي خمس حصال فيعمل هن أو يعلمهن من يعمل

بهن ؟ .

قال أبو هريرة :

— أنا يا رسول الله .

فأخذ عليه السلام بيده فعدهن فيها ثم قال :

— اتق المحارم تكن أعبد الناس .

وارص بما قسم الله لك تكن أعنى الناس .

وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا .

وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما .

ولا تكثر الصحك فإن كثرة الضحك تميت القلب .

ودأت يوم رفع رسول الله ﷺ — الدرة ليضربه بها فقال أبو هريرة :

— لأن يكون ضربني بها أحب إلى من حمر النعم ، ذلك بأني أرجو

أن أكون مؤمنا وأن يستجاب لرسول الله — ﷺ — دعوته

كان أبو هريرة راضيا بحياته سعيدا بصحة رسول الله عليه السلام ،

ولم يكن يعكر صفو حياته إلا إغراض أمه عن الإسلام ، فذهب إليها

ودعاها إلى الإسلام فأسمتته في رسول الله — ﷺ — ما يكره ، فحاء

إلى رسول الله — ﷺ — وهو يكي فقال :

— يا رسول الله انى كنت أدعو أم أبى هريرة إلى الإسلام فتأتى على ،

وإنى دعوتها اليوم فأسمتني بك ما أكره ، فادع الله أن يُعدي أم أبى

هريرة إلى الإسلام .

ففعل ، فحاء أبو هريرة البيت فإذا الباب محاف وسمع حضوضه

الماء ، وسمعت حسه فقالت :

— كما أنت .

فلست درعها وعملت عن خمارها ثم قالت :

— ادخل يا أبا هريرة .

فدخل فقالت :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله .

فجاء يسعى إلى رسول الله — ﷺ — يبكي من الفرح كما يبكي من

الحزن فقال :

— أبشر يا رسول الله فقد أجاب الله دعوتك ، قد هدى الله أم أبا

هريرة إلى الإسلام .

وتهللت أساريره من الفرح وقال :

— يا رسول الله ادع الله أن يحبني وأمي إلى المؤمنين والمؤمنات وإلى

كل مؤمن ومؤمنة .

— اللهم حبب محمدك هذا وأمه إلى كل مؤمن ومؤمنة .

واشتد فرح أبي هريرة ، فلما عاد إلى الدار وقف على بابها فقال :

— السلام عليك يا أمتاه ورحمة الله وبركاته .

رحمك الله كما ريتني صغيراً .

— رحمك الله كما بررتني كبيراً .

خاض سابور الثانى عمار مع العرب انتهت بأن احتلت فارس
البحرين ، وعرف سابور بذى الأكتاف لأن ساسان الأول نبأ بأن ملك
الساسانيين سيزول على أيدي أصحاب سبي عرى بشر به زرادشت
بقوله : اتعوا وصاىاى حتى يأتى صاحب العمل الأحمر من بلاد
العرب ، فكان سابور يقب أكتاف أسراه العرب .

وحكم البحرين مد ذلك الوقت مرربان من قل كسرى فراح بينى
بيوت مار فى الولاية ويشتر الدين ائحوسى فتعلعت ائحوسية فى عرب
البحرين وآموا بالأوستا الساسانية وعكفوا على « الرىد » تفسير الكتاب
المقدس وتكلموا فى المبدأ والمعاد وغيرهما من أركان الدين ، وتزوجوا
المحارم كما كان يفعل السادة الإيرانيون . وعبدوا ميترا إله العقد ونور
الصباح الذى عرفه البابليون بشمس . وكانوا يرتلون : لا سلطان لك
لترفض عبادة الشمس سى تصىء بورها الكون كله ، والتي تنصح
محرارها عذاء الناس والحيوان ، والتي سميت بإله مهر بسبب سحائنها
شامل وكرمها العادل لأنه ليس فيها مكر أو جهل .

وقدسوا عناصر الطبيعة ، وحافظوا على الماء والنار من المحاسة حتى
إسهم لا يعملون بالناء وجوههم ولا يمسونه إلا أن يكون ذلك للشرب
أورى الررع ، وميرت الأوستا (كتابهم المقدس) بين خمسة أنواع من
النار . نار المعاد والنار التى يتمتع بها الناس عادة ، والنار التى توحيد فى

جسد الإنسان والحيوان ، والبار التي توجد في النباتات ، والنار الكامنة في السحاب ، والبار التي تشتعل أمام أهوار امردا في الجنة .

وعرف عرب البحرين الصراع بين أهوار امردا عالم الورد وأهزمين عالم الظلمات واختلاط الخير والشر والصراط المستقيم والبحث والحمة ، وما بقي من دين ررادشت القيم بعد أن طعت عليه الخرافات لما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم .

وظلت قبضة الفرس قوية على البحرين حتى إذا ما انتهت الحروب بين الفرس والروم بانتصار هرقل على كسرى الثاني تراجعت قبضة الفرس وأصبح أمر البحرين للمنذر بن ساوى ، وعرف الإسلام طريقه إلى تلك البلاد فقد أرسل الرسول عليه السلام إلى المنذر العلاء بن الحضرمي وبعث معه كتابا ورجالا فيهم أبو هريرة ووصاه عليه السلام به ففعله العلاء مؤدنا بين يديه ، وكان العلاء يصلى بأصحابه وقد سبقهم بآمين بعد أن قرأ الفاتحة ، فقال له أبو هريرة :

— لا تسبقنى بآمين أيها الأمير .

وبلغ الركب البحرين فإذا بأهلها على دين المجوس واليهودية يهرعون إلى بيوت البار أو الكيس إذا ما أرادوا شكر الله على ما أنعم من خير . ودخل العلاء على المنذر وراح يعرض عليه الإسلام ، وقال فيما قال :

— يا منذر إنك عظيم العقل في الدنيا فلا تصعن عن الآخرة . إن هذه المحوسية شر دين يكبح فيها ما يستحيا من بكاحه ، وبأكلوا ما يتكره من أكله ، وتعبدون في الدنيا نارا تأكلكم يوم القيامة ، ولست بعديم عقل ولا رأى فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا ألا تصدقه ؟ ولمن لا يخون ألا نأتمنه ؟ ولمن لا يخلف ألا شق به ؟ فإن كان هكذا فهذا

هو النبي الأمي الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول ليت ما أمر به نبي عنه أو ما نهي عنه أمر به .

وراح المنذر بن ساوى يقرأ كتاب رسول الله — ﷺ — على أهل البحرين ، وجعل العلاء وأبو هريرة ومن معهما من المسلمين يشرحون للناس أركان الدين الذي جاء به محمد بن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليه — فانشروا له صدور وأضاءت أنواره أفئدة هداها الله الصراط المستقيم ، فاعتنق كثير من أهل البحرين الإسلام . كانوا يؤمنون بالبعث والحساب والخلود فلما حدثهم المسلمون عن الإسلام وجدوه من نفس النع الذي اعترف به رادشت إلا أن الإسلام قد أراح عنه الأساطير وما تمحه النفوس . ورايت الدهشة على المنذر فما كان يصدق أن الناس يقبضون ديننا جديدا في مثل ذلك اليسر .

وأطرق المنذر يفكر فيما جاء به رسول الإسلام عليه السلام فوحده يضائق المطرة ولا يدعو إلا لكل كريم ودوى بين حبيبه حديث العلاء وتذكر ما أوصى به رادشت من الاستمسك بما جاء به إلى أن يأتي صاحب الحمل الأحمر من جزيرة العرب ، وما هو ذا صاحب الحمل الأحمر يبعث إليه رساله ليدعوه إلى الهداية والرشد . أو يعلق قلبه دون النور ؟

ودخل العلاء وصحه على المنذر بن ساوى فقل :
— قد نظرت في هذا الذي في يدى فوجدته بدنيا دون الآخرة ، ونظرت في دينكم فرأيتهم للآخرة والدنيا . فما يحمى من قبول دين فيه أمية الحياة وراحة الموت ؟ ولقد عجبت أمس ممن يقله وعجبت اليوم ممن يرده . وإن من أعظام ما جاء به أن يعظم رسوله وسأطير .

وكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ — كتابا جاء فيه : يا رسول الله فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود فأحدث لى فى ذلك أمرك .

وقرأ عليه السلام كتاب المنذر وسمع من رسله ، ثم كتب له كتابا فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى . سلام عليك فإنى أحمد إليك الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . أما بعد فإنى أذكر الله عز وجل فإنه من يصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وإنى قد شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نزالك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو محوسيته فعليه الجزية) .

(٢٣)

كانت الهدنة قائمة بين المسلمين وقريش ، ولكن بعض قبائل العرب كانت تفكر فى عزو المدينة أو الإغارة على سرحها للنيل من هيبة المسلمين ، فوصلح الحديبية شجع كثيرا من الناس على أن يشدوا الرحال إلى المدينة وأن يلقوا إلى سبى الإسلام عليه السلام آذانهم فيدخلوا فى دين الله أفواجا ، مما يزعزع عقائد العرب ودين الآباء .

ولم يكن الرسول عليه السلام ليبدأ بالعدوان فهو على نور من ربه لا

بمخالف أمره وهو جل من قائل : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ^(١) ، ولكنه ما كان يترى حتى يدهمه في داره فما إن تلوح له عليه السلام بادرة من عدوه بأنه يتأهب للعدوان حتى يبعث العوثر ليقضى على الفتنة قبل أن تتحرك ، ويلقى الرعب الذى نصر به في قلوب الأعداء .

جاءه عليه السلام أن بهى عوال وبنى عبد بن ثعلبة وهم بالميفة — وهى وراء بطن نخل إلى القرة قليلا بناحية نجد — يستعدون لشى غارة على المدينة ، فبعث إليهم عليه السلام في شهر رمضان سنة سبع من مهاجرة غالب بن عبد الله البثنى في مائة وثلاثين رجلا كان فيهم أسامة ابن زيد حب رسول الله عليه السلام .

وفى الصباح هجم المسلمون على القوم وكان فيهم رجل يدعى مرداس بن سهيك إذا أقبل القوم كان من أشدهم على المسلمين وإذا أدبروا كان من حاميتهم . وانتهت المعركة بانتهزام الكافرين وولى مرداس الأدبار فتعه أسامة بن زيد ورجل من الأنصار ، فرفع أسامة عليه السيف فقال :

— لا إله إلا الله .

فكف الأنصارى فطعنه أسامة برمح حتى قتله ، ثم وجد في نفسه من ذلك موجدة شديدة حتى ما يقدر على أكل الطعام حتى قدم على رسول الله — ﷺ — قبله واعتنقه . وكان عليه السلام إذا بعث أسامة بن زيد يسأل عنه أصحابه ويحب أن يثنى عليه حيرا ، فلما رجعوا لم يسألهم عنه

فجعل القوم يحدثون رسول الله ﷺ — ويقولون :
 — يا رسول الله لو رأيت ما فعل أسامة ! لقيه رجل فقال الرجل لا
 إله إلا الله فشدد عليه أسامة فقتله .
 وراح — ﷺ — يعرض عنهم ، فلما أكلوا عليه رفع رأسه لأسامة
 فقال :

— يا أسامة من لك بلا إله إلا الله ؟
 — يا رسول الله إنه إنما قالها تعوذا من القتل .
 — أقتله بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ ! فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا
 جاءت يوم القيامة ؟
 — إنما قالها خوفا من السلاح .
 — هلا شفت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟
 وود أسامة أن ما مضى من إسلامه لم يكن وكان أسلم يومئذ وقال :
 — يا رسول الله استغفر لي .
 فاستغفر له وقال :
 — اعتق رقبة .

وودى رسول الله عليه السلام مرداس بن سهيل وعاهد أسامة بن
 زيد الله ألا يقتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبدا .
 وفي شوال من نفس السنة بلغ رسول الله ﷺ — أن حمزا من
 عظماء قريظة وأعداهم عينة بن حصن ليكون معهم ليزحفوا إلى رسول الله
 ﷺ — ، فدعا عليه السلام بشر بن سعد فعهق له لواء وبعث معه
 ثلاثمائة رجل ، فساروا حتى أتوا يثرب وجبار فدنوا من القوم فأصابوا لهم
 نعما كثيرا ، وتفرق الرعاء فحذروا القوم فتمرقوا ولحقوا بعلياء

بلادهم ، وخرج بشير بن سعد في أصحابه حتى أتى محالهم فلم يجد فيها أحداً مرجع بالعم ، وأصاب منهم رجلين فأسرهما وقدم بهما المدينة إلى رسول الله ﷺ .

ودخل الرجلان على رسول الله عليه السلام وهما يرتجفان ، فما إن وقعت أعينهما عليه حتى أحسا شيئا من الطمأنينة . إنه جهر الصوت حسن النغمة طيب الريح خافض الطرف نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، لا يتكلم من غير حاجة ، يتكلم بحوامع الكلم فصلا لا فضول فيه ولا تقصير .

وراح الأسيران يصغيان إليه عليه السلام وقد سكنت الطمأنينة أهدتهما . إنه ليس بالحدافي ولا بالمهين لا يغضب لنفسه ، ولا يتصر لها وإنما يعصب للحق حتى يصره ، لا يستحبه فرح ولا غم ، يحسن الحسن ويصوبه ويقبح القبيح ويبسه ، يعطى كل حليس له نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه .

يؤثر الداخل بوسادته ويبسط له ثوبه ، من سأله حاجة لا يرده إلا بها أو بما يسر من القول ، وسع الناس سطره وحلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء متفاضلين بالتقوى ، مجلسه مجلس حلم وحياء وأمانة لا ترفع فيه الأصوات .

وراح عليه السلام يتكلم فأطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، فلما سكنت تكلموا متواضعين يشع من أحاديثهم التقوى ، فحمل الأسيران يصغيان وهما في دهشة من أمرهما فقد ظنا أنه سيأمر بضرب عقهما فإذا به عليه السلام يعرض عليهما الإسلام ويقرأ القرآن ، فيشعران أنهما قد أصبحا أكثر حرية مما كانا عليه وهما في أهلتهما فقد

صغت قلوبهما وأطلق لهما حرية الفكر والاختيار ورفعاً إلى السماء
ليقرعا أبواب الملكوت ، فامتلا بشوة روحية لم يسعدا بمثلها من قبل .
ولهما دافعا لذمة المعرفة وتوحا بشرف المعلومات وأحسا قربا حقيقيا
من رب الناس إله الناس ، فحدث رسول الله ﷺ — أضاء
لبصيرتهما الحقائق فظهرت في قلوبهما الأنوار واستعدت لحمل الأمانة .
وأحسا بسايم الألفاظ تهب عليهما ، وبالحجب تكشف عن أعين
أفئدتها ، وبالرحمة تفيض عليهما وبانشراف الصدر ، وبحقائق الأمور
الإلهية تتلأأ في النفوس ، وبالور يقر الوجدان فإذا الوجود كله
أنوار ، فقالا وهما متفرحان في الله :
— نشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

(٢٤)

دار العام وظهر هلال ذى القعدة من السنة السابعة وهو الشهر الذي
صده عليه السلام فيه المشركون عن البيت الحرام ، فأمر أصحابه أن
يعتصروا وألا يتخلف أحد من شهد الحديبية فلم يتخلف إلا من مات أو
قتل بغيره ، وخرج مع رسول الله ﷺ — قوم المسلمين عمارا من لم
يشهد الحديبية فكانوا ألفين .
واستخلف رسول الله ﷺ — على المدينة أبا ذر الغفاري ، وساق
— ستمين بدنة وقلدها وجعل على هديه ناجية بن جندب
الأسلمي .
وحمل رسول الله ﷺ — السلاح والدروع والرماح وقاد مائة

فرس عليها محمد بن مسلمة وعلى السلاح بشير بن سعد . وأحرم —
عليه السلام — من باب المسجد فلما انتهى إلى ذى الحليفة قدم الخيل أمامه
فقيل :

— يا رسول الله حملت السلاح وقد شرطوا ألا ندخلها عليهم سلاح
إلا بسلاح المسافر ، السيوف في القرب !
فقال رسول الله — عليه السلام — :

— لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح ولكن يكون قريبا منه ، فإن
هاجا هيج من القوم كل السلاح قريبا ما .
فمضى بالخيل محمد بن مسلمة فلما كان عمر الظهران وجد نورا من
قريش فسألوه فقال :

— هذا رسول الله — عليه السلام — يصبح هذا المنزل عدا إن شاء الله .
وقد رأوا سلاحا كثيرا فخرجوا سراعا حتى أتوا قريشا فأحبروهم
بالذي رأوا من الخيل والسلاح ، فمرعت قريش وقالوا :
— ما أحدثنا حدثا وإنا على كتابنا ومدتنا فعيم يعرونا محمد في
أصحابه ؟ !

وأقبل المسلمون يلبون :
— ليك اللهم ليك . ليك لا شريك لك ليك . إن الحمد والمنة
لك والملك . لا شريك لك .

وارتج مر الظهران بالتلبية ، وجاء مكرز بن حفص في نفر من قريش
إلى رسول الله — عليه السلام — فقال :

— والله يا محمد ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر ، تدخل بالسلاح
في الحرم على قومك وقد شرطت عليهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر

السيفوف في القرب !

— إني لا أدخل عليهم بالسلاح .

— هو الذى تعرف به البر والوفاء .

ثم رجع إلى مكة سريعا وقد رضى عن سفارته ، فقريش التى ساقطت الجيوش من قبل وجمعت الأحزاب لاستئصال المسلمين باتت ترتحف فرقا من أن يغزوها عليه السلام . وقدم الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — السلاح إلى بطن يأجج حيث ينظر إلى أنصاب الحرم وخلف عليه أوس بن خولى الأنصارى فى مائتى رجل ، فلما اتصل بخروجه لقريش خرج كراؤهم من مكة حتى لا يروه — صلوات الله — يطوف بالبيت هو وأصحابه . كانت العداوة تهش قلب أى سفيان فعا كان يطيق أن يرى المسلمين يطوفون بالبيت وهم يلبون تلبية التوحيد ، وكان عكرمة بن أبى جهل يغيص عمدا عليه السلام مخرج من مكة وهو حائق فطواف الصافىء بالبيت العتيق وهم ينظرون هرمة لكفاح الطويل الذى خاضوه لكم أنفاس الإسلام .

وخرج خالد بن الوليد مع الخارجيين وإن كانت مشاعره تختلف عن مشاعر الشائتين^(١) ، إنه أصبح يستشعر ميلا إلى الإسلام ولو طواع قلبه لهرول إلى حيث كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وأعلن شهادة الحق ولكنه كان يترهب ، وفكر فى أن يبقى فى مكة إلا أنه خشى أن تلقى عيناه بعينى أخيه الوليد بن الوليد الذى كان فى صفوف المسلمين فهو واثق فى أعوار نفسه لو أن ذلك حدث لحقق قلب فارس

(١) الشائتين : الحاقدين .

قريش رهبة وهو الذى لم يعرف الخوف فى حومة القتال .

وخرج صفوان بن أمية حسدا لرسول الله عليه السلام ، وانطلق سهيل بن عمرو مع المطلقين وبقي حكيم بن حزام وقد أشرف على الستين فهو يحب أن يرى زوج عمته سيدة نساء قريش . فما أسعد الأوقات التى أمضاها وهو يصفى إلى عذب حديث أبى القاسم ، ولولا دعوته بأن الله قد أرسله إلى الناس لما كان بين حكيم وابن عبد الله أى خلاف .

وقدم رسول الله ﷺ — اهتدى أمامه فحسب بدى طوى ، وخرج على راحته القصواء والمسلمون متوشحون السيوف محدقون به ^(١) — يلبون وقد تدفقت أرق المشاعر إلى الصدور واشتد وجيب الأفدة وامتلات المآقي بالدموع ، فالمهاجرون ينطلقون إلى أحب أرض الله إليهم ، إلى أرض الذكريات التى ما فتئوا يحملون بالعودة إليها مد أحرحوا من ديارهم ، والأنصار يلتمسون ما وعدهم به الله ورسوله ، إليها أميال قليلة ثم يطوفون بأول بيت وضع للناس ليكون مآرة التوحيد .

ودخل صاحب الحمل الأحمر الذى بشرت به الأنبياء على الثنية التى تطلعه على الحجون وعبد الله بن رواحة أخذ بزمام راحته وهو يقول :
 خلوا بنى الكفار عن سبيله حلوا فكل الخير فى رسوله
 يا رب إني مؤمن بقبيله أعرف حق الله فى قبوله
 نحن قتلناهم على تأويله كما قتلناكم على تزويله
 ضربا يذهل الهام ^(٢) عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

(١) محدقون به : ملتفون حوله .

(٢) يذهل الهام عن مقيله : يذهل الريموس يقصد : ضربا شديدا يهون له الريموس

فقال له عمر بن الخطاب :

— إيها يا بن رواحة .

فقال رسول الله — ﷺ :

— يا عمر إلى أسمع .

فأسكت عمر وقال رسول الله — ﷺ :

— إيها يا بن رواحة اقل : لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعر

جلده ، وهزم الأحزاب وحده .

وأطرق عليه السلام تواصعا لله وهو يلى حتى استلم الركن

بمحبه^(١) مصطعاً^(٢) بثوبه وطاف على راحته والمسلمون يطوفون

معه وقد اصطبغوا بثيابهم ، وقريش على حمل أى فبس وقيفاغ تطر لا

تكاد تصدق أن ابن أى كبشة قد جاء بأصحابه يطوف بالبيت بعد أن

حرجوا من مكة إلى رعويس الجبال :

وقال قائل من قريش :

— إن المهاجرين أوهنتهم حمى يثرب .

فأطبع الله بيبه على ما قالوا ، ثم قال — ﷺ :

— رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة .

وكشف عضده اليمنى ففعلت الصحابة كذلك وراحوا يسعون بين

الصفا والمروة ، ثم أمرهم أن يرملوا (يهرولوا) الأشواط الثلاثة ليروا

(١) اغمغن : الصفا المموجة .

(٢) اصطباع الثوب . جعله كملاص الإحرام حيث يظهر أحد لب من أى

الجوارب .

المشركين أن هم قوة ، فلما رأى المشركون أصحاب محمد يهرولون قال بعضهم لبعض :

— هؤلاء الذين رعنتم أن احمى قد وهتهم ، إنهم لسعرون نصر الطبي .

فلما كان الطواف السابع عد فراعاه وقد وقف الهدى عد المروة قال :

— هذا المنحر وكل فجاح مكة منحر .

فحمر عد المروة وحلق هناك وكذلك فعل المسلمون . وأمر رسول الله ﷺ — ناسا منهم أن يذهبوا إلى أصحابهم سطن بأحج فيقسموا على السلاح ويأتى الآخرون فيقصوا سسكهم ففعلوا

وعاد رسول الله عليه السلام ، وصحبه إلى الكعبة ودخلها هم يرل بها حتى أدن بلال الطهر فوق طهر الكعبة ، فراح سادات فربش يسطرون إلى مؤذن الرسول فى حق ، وقال قائل منهم لسحارث من هشام :

— ألا ترى إلى هذا العيد أين صعد ؟

— دعه فإن يكن الله يكرهه فسيفره .

وقال عكرمة بن أبى جهل :

— لقد أكرم الله أبا الحكم حيث لم يسمع هذا العد يقول ما يقول .

وقال صفوان بن أمية :

— الحمد لله الذى أذهب أبى قر أن يرى هذا .

وقال خالد بن أسيد :

— الحمد لله الذى أذهب أبى ولم يشهد هذا اليوم حيث يقوم بلال

نهب فوق الكعبة .

وغطى سهيل بن عمرو وجهه فقد كانوا يحبون أن يكون لهذا الكون ربا واحدا بينا أصنام الآلهة تكدست في جوف الكعبة ومن حولها .

وخرج عليه السلام من الكعبة وأم الصحابة وقد اصطفوا حمله ورجال مكة ونساؤها مدوا أعينهم وأرهموا أداهم ليسمعوا قرآن محمد ، فإذا به بيده عقولهم مما أكثر ما سمعوا الشعر وحفظوه وألقوا أسماعهم إلى زمزمة السحرة وسجع الكهنة ، إنه شيء آخر يحرك العواطف ولولا عنى القلوب لانحدروا من الخيال مؤمنين .

وذهب رسول الله ﷺ — إلى قته التي نصحها بالأنطح ليستريح بها كان قلب برة بنت الحارث الهلالية يهوى إليه عليه السلام . إنها أخت أم الفضل روح العباس أول من آمنت به من النساء بعد حديجة ، وأخت أسماء بنت عيسى الخثعمية روح جعفر بن أبي طالب ، وسلمى بنت عيسى روح حمزة بن عبد المطلب أسد الله . إهن الأحيوات المؤمنات وإنها أرملة في السادسة والعشرين من عمرها مات عنها روحها فصارَت أميتها أن تصبح أم المؤمنين . وإن رسول الله — عليه الصلاة والسلام — قد جاء إلى مكة وصار على مقربة منها فأصبح عليها أن تتحرك قبل أن يسقضى الأيام الثلاثة التي حددتها قریش لمكث المسلمين بأمر القرى . إنها كلمة تتحرك بها شفتاه ثم تتحقق الأحلام .

وجاء العباس إلى قبة رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ليظفيء نار الشوق وليرى جعفرًا وعليًا ورجال بني هاشم . وفيما كان الحديث دائرا بين رسول الله عليه السلام ومن جاءوا لتحيته التففت — ^{مكة}عيسى — إلى الوليد بن الوليد وقال :

— أين خالد ؟

فقال الوليد بن الوليد في ثقة :

— يأت الله به .

— ما مثله يجهل الإسلام .

وحرص الوليد بن الوليد يطلب خالدا فلم يحده ، فكتب إليه كتابا وهو يدعو الله أن يهدي أخاه إلى الإسلام .

وكانت مرة قد حدثت أم الفضل بأميتها أن تكون روجة لرسول الله

— صلوات الله وسلامه عليه — ليكون لسي هلال شرف مصاهرة

رسول الله — ﷺ — كما قالت بنى تيم وبنى عدي وبنى أمية وبنى محروم

وهوازن وبنى أسد وبنى المصطلق ذلك الشرف ، فحدثت أم الفضل

زوجها العباس فأقضى العباس إلى ابن أخيه بأمية مرة ، صحت عليه

الإسلام جمعهم بن أبي طالب إليها ليحيطها . فما إن حرج جمعهم من عدها

حتى استحلف بها الطرف فركت بعيرها وانطلقت إلى حيث كان نبي

الإسلام عليه السلام ، فلما أن وقعت عيناها عليه — صلوات الله

وسلامه عليه — قالت :

— البعير وما عليه لله ولرسوله .

وتحدث الناس عما فعلت مرة ، إنها لم تستطع الانتظار فحامت تهب

نفسها لله ولرسوله ، وقد سماها عليه السلام ميمونة وكثر الحمس

استحماما بالشابة التي استحابت صادقة لعواطفها دون رياء ،

ووجد المنافقون فرصة للغمز واللمز ومحاولة بدر بذور الاستياء في قلوب

المسلمين ، فأنزل الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَرْوَاجَكَ

الَّتِي آتَيْتَ أَحْوَرَهُمْ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ

وبات عمك وبات عماتك وبات حالك وبات حالاتك السلاى
هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن
يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في
أرواحهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله عفورا
رحيما ﴿١﴾ .

(٢٥)

انساب المهاجرون في دروب مكة يشمون غير أرض الذكريات
ويلثمون بأعيهم الدور ويهرعون إلى مراتع العبا والشباب فرحين .
كانت بعض بيوتهم حاوية لا حركة ولا نائمة قد خيم عليها السكون نعت
الأمسى في النفوس ، ولكهم ألقوا عليها نظرات غائرة دون أن تسرل
بأقدتهم المموم فقد كان اليوم يوم نصر ورجور .

كانوا في المدينة يستشعرون شوقا طاعيا إلى مكة وكانت أعر أمابهم
أن يعودوا إلى أم القرى وأن يرووا طماهم من ماء رمرم وأن يظوهوا
بالبيت العتيق وأن يسمروا بالحجون ، فإذا بكل آمالهم تتحقق ، ولم
ينعص عليهم صفر انتصارهم إلا تلك الأصنام التي تقع أعينهم عليها في
كل مكان فإذا بأمنية جديدة تغطي على كل الأمانى ، أن يأتى ذلك اليوم
الذى يسود فيه الحق ربوع أحب بقاع الأرض إلى نفوسهم وأن تعرف
راية التوحيد على البيت العتيق .

وكان حكيم بن حزام قد اشترى حلة مبيف بن دى برون بثلاثمائة دينار من سوق عكاظ ، فلما وجد أن زوج عمته حديثه أم المؤمنين في مكة وأن بيته وبينهم هدنة رأى أن يهدي إليه تلك الحلة فاطلق بها إلى حيث كان الرسول عليه السلام وأهداها إليه ، فأبى رسول الله عليه السلام أن يقبلها وقال :

— لا أقبل هدية مشرك .

فجزع حكيم جزعا شديدا حيث رد هديته فباعها من أول سامم سامه ، ودم رسول الله إليها ريد بن حارثة فاشتراها فهدتها رسول الله ، فلما رآه حكيم فيها قال :

ما ينظر الحكام بالفصل بعدما بدا سابق ذو عرة وحجول^(١) واستمر حكيم بملأ عينيه من رسول الله عليه السلام فما رأى أحدا قط أحمل ولا أحسن من رسول الله في تلك الحلة .

وخلعها رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فما كان يحب أن يرهو بحيد الثياب فكساها أسامة بن زيد بن حارثة ، فراها عليه حكيم فقال :

— بح بخ يا أسامة ، عليث حلة ذى برون !

فقال لأسامة رسول الله :

— قل له وما بمعنى وأنا خير منه وأبى خير من أبيه ؟

واقضت الأيام الثلاثة ورسول الله — ﷺ — مع الأنصار يتحدث

(١) المرة ؛ بياض في حبة الفرس والمراد بها الإشراف والصور ، والحجول بياض في أرجل الخيول والمراد بها جمال المطر

مع سعد بن عباد ، فحاء إليه سهل بن عمرو وحويطب بن عبد المزي
في نفر من قریش فصاح حويطب :

— ناشدتك الله والمعد إلا ما خرجت من أرضنا فقد مصت
الثلاث .

فغضب سعد بن عباد لما رأى من غلظ كلامهم للنبي — ﷺ —
فقال لحويطب :

— كذبت لا أم لك ليس بأرسلك ولا أرض أبائك ، والله لا يرح
منها إلا طائعا راضيا .

فتسم رسول الله — ﷺ — وقال :

— يا سعد لا تؤذ قوما رارونا في رحالنا .

وأراد رسول الله — ﷺ — أن يبنى بيمومة في مكة ، فقال لحويطب
وصحبه :

— إني قد نكحت فيكم امرأة . فما يضركم إن مكثت حتى أدخل بها
وأصع الطعام فأكل وتأكلون معا !

— لا حاجة لنا في طعامك . اخرج عما من أرضا هذه الثلاثة قد
مضت .

وهم سعد بن عباد بأن يتكلم وتأهب حويطب للرد عليه فأسكت
عليه السلام الفريقين ، ثم إنه — ﷺ — أمر أبا رافع أن يهدي بالرحيل
لا يمسي بها أحد من المسلمين ، وخلف أبا رافع ليأتي له بيمومة حين
يمسي .

وتدفع المسلمون على الحرم يطوفون طواف الوداع وينسحبون
بظهورهم دون أن يولوا الكعبة الأديار تعظيما لها ، وفي الأعين دموع

وفي الخلق غصص ، وكفار قريش على رموس الجبال يطرون في دهرش
فقد قيل لهم فيما قيل إن عمدا وصحبه لا يوقرون البيت ، فإذا بتلك
الحجة تنهار فالمسلمون يعظمون بيت أبيهم إبراهيم ويتحشمون المشاق
لزيارته والطفوف به ورفع أكف الضراعة إلى الله عند باب بيته .

وفعلت الأيام الثلاثة في قلوب مشركي قريش الأفاعيل ، كانوا
يرصدون حركات المسلمين ويرقبون صلواتهم ويلقون السمع إلى القرآن
الخبيد فحظر لأناس منهم أن ينحدروا من الجبال إلى حيث استقر
المسلمون ليهلوا من البع الصافي الرقاق الذي همت^(١) إليه الأنفذة لولا
الخوف من الناس وحشية بطش الحباري .

واسل المسلمون من مكة حتى إذا ما عابت الشمس خلف الجبال
وبدا زحف الليل لم يكن بها غير أبي رافع وميمونة ، فذهب أبو رافع
ليقود بعير ميمونة إلى معسكر رسول الله عليه السلام ، وطفق أبو رافع
يشق طريقه بين الحموع الهادرة في غضب في جهد شديد ، وكان يؤديه
ما لقي من عاء من أهل مكة ويريد في غضبه ما نال السى — عَلَيْهِ السَّلَامُ —
من أذى ألسنتهم وميمونة ، فلم يجد مفرا من التهديد فقال لهم :

— ما شئتم ، هذه والله الخيل والسلاح بطل يأحج وأنتم تريدون
نقض العهد والمدة .

كانوا يرتجفون من فكرة نقض العهد فقد أصبح من الواضح وضوح
النهار أنه لا قبل لهم بمحمد وصحبه ، فإن أراد أن يميل عليهم فلن يجد من
يقف في وجهه وإسهم بهذه الساب المتدفقة من أفواههم يعطونه فرصة

(١) هفا إليه : مال إليه وأحبه .

نقض العهد وفتح مكة ، فتفاصرت أنفُس السفهاء فولوا راجعين مكسين .

ولما خرج رسول الله ﷺ من مكة حاه على بن أبي طالب وكلمه في عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب وكانت مع أمها سلمى بنت عميس ، فقال :

— علام نترك بنت عمنا يتيمة بين أظهر المشركين ؟

وبعث عليه السلام إلى أبي رافع أن يأتي بعمارة ، فحرح أبو رافع بميمونة وعمارة حتى إذا ما لحق بركب المسلمين تناول على كرم الله وجهه ابنة عمه فأخذ بيدها وقال لفاطمة الرهراء .
— دونك ابنة عمك .

وسار ركب المسلمين حتى إذا بلغوا سرف نزلوا بها ونصبت قبة رسول الله عليه السلام تحت شجرة هالك ، ودخل بميمونة بعد أن صعد طعاما لأصحابه . وسعدت الروجة الشابة بذلك الزواج الذي شرفها وشرف قومها وحفرت في عين ذاتها ذكريات هذه البقعة المباركة التي جعلت منها أما للمؤمنين ، إن لحظات سرف هي زاد حياتها وهي خير زاد يعزى روحها حتى الممات .

وانصرف المسلمون راجعين إلى المدينة ، واحتلف على بن أبي طالب وريد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب في أبيهم يكفل عمارة بنت حمزة أسد الله وأسد رسوله ، فقال زيد بن حارثة :

— أنا أحق بها لأنها بنت أخي وأنا وصيه .

وقال زيد حقا فالبى — ﷺ — كان قد آخى بين حمزة وريد وجعل حمزة وصيه .

وقال على كرم الله وجهه :

— أنا أحق بها لأنها بنت عمي وحث بها من مكة .

وقال جعفر :

— أنا أحق بها لأنها بنت عمي وحالتها تحتى .

وكانت أسماء بنت عميس زوجة جعفر ، وكانت سلمى بنت عميس

أم عمارة بنت حمزة ، وكان جعفر يرى أنه أحق الثلاثة بكفالة بنت

عمه ، فلما بلغ الأمر رسول الله عليه السلام قضى بها لجعفر وقال :

— الحالة بمنزلة الأم .

وهر الفرح جعفر فحمله حول السبي — عليه السلام — فقال عليه السلام :

— ما هذا يا جعفر ؟

— يا رسول الله كان الحاشي إذا رضى أحد أقام فحمله حوله .

وقدم رسول الله — عليه السلام — الحالة في الحضرة على العمة فقد كانت

صفية بنت عبد المطلب موجودة ، وقال — عليه السلام — لعلي :

— أنت أحي وصاحبي ، أنت مني وأنا منك .

وقال جعفر :

— أشبهت تخلفي وتخلي .

وقال لزهد :

— أنت مولى الله ومولى رسوله

عاد خالد بن الوليد إلى داره وهو مطرق يفكر فيما رأى من محمد بن عبد الله وصحة . إنه قد خيل إليه أنهم مصابيح نور وأن قواده قد هما إليهم وأن صدره قد انشرح لما سمع من الذكر الحكيم ، وراح يسأل نفسه ما الذى يجعله يحجم عن الحق ما دام قد استبان الطريق ؟ ! إنه يستشعر سلام الألفاظ تهب عليه والحجب تكشف عن عين قلبه فاشتعل سراج قواده بأبوار بصيرته فإذا به يشاهد ما وراء حواصه الخمس وينفذ في عالم الملكوت .

وخف إليه أحد مواليه وقال له :

— إن مولاى الوليد بن الوليد قد طلبك فلم يجدك فكتب لك هذا الكتاب .

وتناول خالد الكتاب في لهفة وراح يقرأ :

— بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإني لم أر أعجب من دهاب رأيك عن الإسلام وقلة عقلك ومثل الإسلام لا يحمله أحد . قد سألتك عنك رسول الله — ﷺ — فقال أين خالد ؟ فقلت يأق الله به . فقال ما مثله يجهل الإسلام ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان حيرا له . فاستدرك يا أحنى ما فأنك فقد فأنك مواقف صالحة . ونشط خالد للخروج وراده الكتاب رغبة في الإسلام وسرته مقالة رسول الله . وأطلق لخياله العنان ، إنه حارب محمداً — ﷺ — وهو

يعتقد أنه في جانب الحق ، وإنه شهد المواطن كلها على محمد عليه السلام
فليس موطن يشهده إلا ينصرف وهو يرى في نفسه أنه موضع^(١) في غير
شيء وأن محمداً — ﷺ — يظهر ، حتى إذا كانت عمرة القضية قدف
الله في قلبه الإسلام وحصر له رشد .

فتحت نفسه لاستقبال الأنوار واستعد للمعرفة بعواده لا بحارحة من
حوارحه ، ففاضت عليه الرحمة واشرح صدره وتأنفت في وجدانه
حقائق الأمور .

واحتلحت الخواطر في نفسه فتذكر تلك الأيام التي كان أبوه الوليد
بين المغيرة يغشى السي وأبا بكر حتى حسبت قريش أنه أسلم ، وتغى في
قرارة نفسه لو أن أباه قد أسلم في تلك الأيام كما أسلم أخوه الوليد ،
وأحس أسى لما تذكر أنه أدق أحياه العذاب وهو يحسب أنه يحس صعا .
ليت ربه يعمر له ما كان مه من قتل المؤمنين وتعذيب المستضعفين .

ولو أن أباه قد أسلم قبل أن يهاجر رسول الله عليه السلام إلى المدينة
لحقن دماء كثيرة روت أرض بدر وأحد ، ولما تقرر العين كما يموت
المؤمنون . ولكنها إرادة الله لا راد لفضائه فعال لما يريد .

ودار في وجدانه ذلك الحوار الذي شب بين أبيه وأنى جهل :

— إن قريشا تزعم أنك إنما تأتى محمداً وابن أبى قحافة نصيب من
طعامهما .

— إنكم ذوو أحساب وذوو أحلام وإنكم تزعمون أن محمداً

(١) وصح : حمل ركابه على العدو ، والمراد هنا أن لا فائدة من عداوته
للسلوك .

محنون ، وهل رأيتموه يتكهن قط ؟

— اللهم لا .

— تزعمون أنه شاعر ، هل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟

— لا .

— فترعمون أنه كذاب ، فهل جريتم عليه شيئا من الكذب ؟

— لا ، فما هو ؟

— ما هو إلا ساحر وما يقوله سحر .

— لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه

— فدعني حتى أفكر فيه .

وكاد خالد بن الوليد يصرخ في مجلسه يقول فيم تفكر يا أبا

استبان لك الحق ؟ فأبوه الوليد قد عرف حوهر رسالة محمد — ﷺ —

وألقى إليه سمعه وقال عن قرآنه إن هذا إلا سحر يؤثر ، فلماذا استكبر ولم

يتبع البور ؟ لو أنه أسلم لكان حال قريش غير الحال ولكن الله يؤتي الملك

من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعمر من يشاء ويدل من يشاء بيده الخير

وهو على كل شيء قدير .

وراحت آيات من القرآن المجيد تصيىء وجدان خالد وتمس أذنيه مسا

رقيقا فيخشع قلبه وببيض دمه من عينيه وتتمرح نفسه بالله : ﴿ إن في

خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في

البحر بما يجمع الناس وما أرسل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد

موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين

السماوات والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (١) .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا • وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا • وَخِفَافًا أَرْوَاجًا • وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا • وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا • وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا • وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شُدَادًا • وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا • وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا • لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا • وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ (١) .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْمِلُونَ • أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ • نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْوُوفِينَ • عَلَىٰ أَن نَّدِلَّ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْمَلُونَ • وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ • أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْمِلُونَ • أَأَنتُمْ تَرْرِعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الرَّارِعُونَ • لَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ حِطَابًا فُطُتُمْ تَفْكُهُونَ • إِنْ لَّا لَمَرْمُومَ • بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ • أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ • أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ • لَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ آحَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ • أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ • أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ • نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرًا وَنَجَاةً لِلْمُقِيمِينَ • فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (٢) .

فإذا بحالد بن الوليد يتمتع في إيمان عظيم :

— سبحان الله .

ودخل بحالد ونام مرأى في المنام كأنه في بلاد ضيقة حدية محرج إلى بلاد حضراء واسعة . فلما هب من نومه ذهب ليتجهز ليطلق على حجاج الشوق إلى المدينة ليلقي محمدا — ﷺ — وليعلن على الملأ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فقد كان حالد فارسا حقا حارب الإسلام لما اعتقد أنه في جانب الحق ، وعزم على الهجرة لما أراح الله

الحجب عن بصيرته وألقى في صدره أنوار اليقين .
وخرج خالد من داره وقد عزم على الانطلاق إلى المدينة ، فلقى صفوان بن أمية فقال :

— يا أبا وهب أما ترى محمداً ظهر على العرب ؟ فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرفه شرف لنا .

فقال صفوان في انفعال :

— لو لم يبق غيري ما اتبعته أبداً .

فانصرف عنه خالد وهو يقول في نفسه : « هذا رجل قتل أبوه وأخوه بدر » فلقى عكرمة بن أبي جهل فقال له :

— يا بن أحمى أما ترى محمداً ظهر على العرب ، فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرفه شرف لنا .

فقال عكرمة مثل ما قال صفوان ، فقال خالد :

— فاكمم ذكر ما قلت .

— لا أذكره .

ثم لقي عثمان بن طلحة الحبشي فقال في نفسه : « هذا لي صديق » . فأراد أن يذكر له ثم تذكر أن أباه طلحة وعمه عثمان وإخوته الأربعة مسامح والخلاس والحارث وكلاب كلهم قتلوا يوم أحد فكره أن يذكر له . ثم قال في نفسه : « وما علي ؟ » فقال له :

— إنما نحن بمسئلة ثعلب في جحر لو صب فيه ذنوب ماء لخرج .

فالتفت إليه عثمان بن طلحة في انتباه وهو يرقب ما يقصده خالد من هذا الحديث ، فقال خالد :

— أما ترى محمداً ظهر على العرب فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرفه

شرف لنا ؟

فقال عثمان في فرح :

— هذا هو الرأي .

فواعد عثمان بن طلحة خالد بن الوليد إن سقه أقام بمحل كذا وإن سقه خالد إليه انتظره . فلم يطلع المعجر حتى التقيا فاطلقا على رواحلهما حتى انتبيا إلى الهدة فوجدا عمرو بن العاص بها ، فقال عمرو :

— مرحبا بالقوم .

— وبك .

وقال عمرو لخالد :

— يا أبا سليمان أين تريد ؟

فقال خالد بن الوليد في حماس :

— والله لقد استقام الميسم (الطريق) وطهر الأمر ، وإن هذا الرجل

لسي فاذهب فأسلم فحتى متى ؟ !

وقال عمرو :

— وأنا ما جئت إلا لأسلم .

واطلقوا وعمرو بن العاص يقص ما كان بينه وبين نخاشي الحيشة وكيف أن النخاش قد نصحه أن يتبع السي الأمي الذي يجده مكتوبا عنده في التوراة والإنجيل وكيف بايعه على الإسلام ، وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة بصفيان وهما يحسان أن روحهما أصبحتا قادرين على التحليق وقرع أبواب الملوكوت .

وأباحوا بظهر الحرة ركابهم وأحبروا رسول الله أنهم قدموا ليشهدوا

شهادة الحق ، فسر بهم وقال لأصحابه :

— رمتكم مكة بأفلاذ كبدها .

وداع بين المسلمين أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة قد جاءوا طائعين ليدخلوا في دين الله بعد أن استبان لهم الأمر ، وطاف بالمدينة سرور وهرع بعض الناس إلى رحالهم ، وكان الوليد بن الوليد يهرول وهو يكاد يطير من المرح فإن نبأ إسلام أخيه خالد كان أحب إليه من كنوز الأرض .

وراح خالد وعمرو وعثمان بن طلحة يلبسون من صالح ثيابهم وقد اشتد وجيب قلوبهم فهم لا يقدمون على الصائء ولا ابن أبي كبشة بل يقدمون على رسول الله — ﷺ — الذي أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

ورفع صوت بلال يؤذن بالعصر فإذا بخالد وصحبه يرهقون السمع فيستشعرون كأن أنواراً تملأ حوائجهم ، والنعت الوليد بن الوليد إلى أخيه وقال :

— أسرع فإن رسول الله — ﷺ — قد سر بقدمكم وهو ينتظركم .

فأسرعوا المشى حتى بلغوا المسجد ، فانطلقوا إلى حيث كان رسول الله عليه السلام وأعين المسلمين تمتد إليهم وقد ترقرت فيها الدموع من الانفعال ، ولو طأطأوا عواطفهم لانطلق التكبير من حاجرهم فإسلام فارس قريش وعمرو بن العاص داهية قريش وعثمان بن طلحة سادن الكعبة شيء يهز المشاعر ويملأ القلوب بالبشر .

ورأى عبيد السلام خالد وهو يتقدم فسلم إليه ، وما رالت البسمة

تنوج شمته حتى وقف خالد بعد خطوات منه وقال في صوت متهدج
من التأثر :

— السلام عليك يا رسول الله .

فرد عليه النبي — صلوات الله وسلامه عليه — بوجه طلق فقال :

— وعليك السلام يا أبا سميان ورحمة الله .

فقال خالد وهو يتر من رأسه إلى قدمه من شدة الالهام :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله .

فقال عليه السلام في رصا :

— الحمد لله الذي هدانا لهذا . قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا

يسلمك إلا إلى خير .

فقال خالد في ابتهاج :

— يا رسول الله ادع الله لي أن يعمر لي تلك المواضع التي كنت

أشهدها عليك .

فقال عليه السلام :

— الإسلام يجب ما كان قبله .

وتقدم عمرو بن العاص إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه

— وإن لوحه عليه السلام تهللا والمسلمون حوله يترقبون في محاسنهم

السرور ، فما هو إلا أن جلس عمرو بين يديه — عليه الصلاة والسلام

— فما استطاع أن يرفع طرفه حياء منه — عليه السلام ، إنه هجاه في مكة

هجوفا فاحشا وعلم الأطفال الشعر ليشدوه تحفه في دروب أم انقري ،

وآذاه وأرسل ألوان العذب بأصحابه وهو يأتي اليوم ثانيا ، فقال بعد أن

شهد شهادة الحق :

— أبايعك يا رسول الله على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي .
ولم يحضره ما تأخر ، فقال عليه السلام :

— إن الإسلام يحب ما قبله والمهجرة تحب ما قلها .
وأسلم الرجال الثلاثة ووقصوا حلق رسول الله يصلون مع المسلمين
أول صلاة وقد خشعوا لله .

﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط
مستقيم ﴾ ^(١) .

(٢٧)

كانت سليم ترى في الإسلام قيذا يحد من حريتهم ويعرض عليهم
الركاة التي نظروا إليها على أنها أتاة ، وقد أسلم بعض رجال سليم فلم
يقابل الناس ذلك بالارتياح بل كانوا يعيرون الذين اعتنقوا الدين الجديد
ويجهوسهم ، وقد قال أبو شحرة بن الحساء قصيدة طويلة يقرع فيها من
قد أسلم :

ألا أيها المولى بكثرة قومه وحضك مهبم أن تضام وتقهر
وقد رأت سليم نفسها بعد روال المستعمرات اليهودية أنها أمام الدولة
الإسلامية وجها لوجه ، فلم يكن أمامها إلا أن تعتنق الإسلام أو تنصم
إلى عطفان وهوارن وأعدائها الألداء الذين يقفون في وجه الدعوة
الجديدة ، واستمرت سليم في حيرتها لا تدري إلى أي المعسكرين تنضم .

... وأدافت سليم أبنائها الذين دخلوا في دين الله صفوف العذاب . لقد بدأهم بالمعدن فحث رسول الله — ﷺ — ابن أبي العوجاء السلمي في خمسين رجلا إلى بني سليم — فكان لهم جاسوس مع القوم فحرح يعدو إلى بني سليم وحذرهم فجمعوا جمعا كثيرا وأخذوا يتظرون سرية ابن أبي العوجاء فانقلب الحال . كان ابن أبي العوجاء يعتمد على المفاجأة في الإغارة على قومه فإذا بفرسان سليم يرصلون مقدمه وقد تأهبوا للقتال

ووقف ابن أبي العوجاء السلمي والدين معه أمام فرسان بني سليم وجها لوجه ، فتقدم ابن أبي العوجاء إلى صفوف بني سليم ودعاهم إلى الإسلام فقالوا :

— أي حاجة لنا بما تدعونا إليه ؟

فتراموا بالنبل ساعة وجعلت لأمداد تأتي بني سليم وأحذقوا بالمسلمين من كل ناحية ، ودارت رحى معركة رهيبية لم تكن متكافة ، وثبت المسلمون يقاتلون في ثقة يرحون إحدى الحسين الاستشهاد أو النصر .

وسالت دماء طاهرة واستشهد عامة المسلمين ، وقد عجب فرسان بني سليم من تلك الروح القتالية العالية والاستبسال الذي أبداه المؤمنون فاثرت فيهم مواقف الشجاعة الرائعة حتى إنهم فكروا في ذلك الدين الذي يقدم له أتباعه أرواحهم مستبشرين .

وأصيب ابن أبي العوجاء جرحا مع القتل ، وأدار النصر رجوس بني سليم فلم يجهزوا على المحرحي . وتحت حجب الليل راح ابن أبي العوجاء يتحامل حتى أتى رسول الله — ﷺ — وأحضره نبأ حياته ذلك

الجالوس وما حاق بالمسلمين .

وبعث عليه السلام غالب بن عبد الله الليثي إلى بني المُلُوح في بضعة عشر رجلا لما بلغه أن القوم يأترون بالمسلمين ، فخرج غالب في أصحابه حتى إذا كانوا بقديد لحقوا الحارث الليثي فأسروه فقال :

— إنما خرجت إلى رسول الله — ﷺ — أريد الإسلام .

فقالوا له :

— إن كنت مسلما لم يضرك ربطنا لك يوما وليلة ، وإن كنت غير

ذلك استوثقنا منك .

فشدوه وثاقا وخلفوا عليه رجلا أسود منهم وقالوا له :

— إن نازعتك فاحترز رأسه .

وساروا حتى أتوا محل القوم عند غروب الشمس فكموا في ناحية الوادي ، وأرسل القوم جندب الجهني جاسوسا لهم فخرج حتى أتى تلا مشرفا على القوم المقيمين بمحلهم ، فلما امتوى على رأسه انطرح عليه ليظهر إذا خرج رجل منهم فقال لامرأته .

— إني لأنظر على هذا الحبل سوادا ما رأيته قبل ، انظري إلى أوعيتك

لا تكون الكلاب جرت منها شيئا .

فنظرت فقالت :

— والله ما فقدت من أوعيتي شيئا .

— ناويلني قومي ونلي .

فاولته قومه وسهمين فأرسل سهما صا أخطأ ما بين عيني جندب ، وودّ جندب أن يمشي ولكنه كتم آلامه فاترعه السهم وثبت مكانه ، وأرسل الرجل سهما آخر فوصعه في مكب جندب فاترعه وثبت

مكانه ، فقال الرجل لامرأته :

— والله لو كان حاسوسا لتحرك ، لقد خالطه سهمان لا أنبا لك ، فإذا أصبحت فاطربهما لا تمضعهما الكلاب .

ثم دخل ، فلما اطمان هو الملوخ وتاموا ش المسلمون عليهم العارة ، فدارت معركة في سواد الليل أسفرت عن قتل المقاتلة وسى الدرية واستاقوا النعم والشاة . ومروا على الحارث البنى فاحتملوه واحتموا صاحبهم الذى تركوه عنده ، فخرج صرخ القوم في قومهم فحاء ما لا قل للمسمين هم فصار بين المسلمين وبينهم الوادى .

وأيقن المسلمون أنه الموت فاستلوا سيوفهم وتأهبوا لخص معركة حتى آخر رجل ، فلم يعد هناك ملجأ إلا الله والسيوف . واشتد بو المنوح ليقتلوا الذين نستروا بالنيل نش عارتهم وإذا سحابة تحجب السماء وهذا مطر يهطل مدرارا فسأل الوادى قدم يستطع الكافرون أن يخوروا به فصاروا وقوا يضفرون في عبط شديد إلى المسمين وهم متوجهون إلى المدينة .

وكان رسول الله في المدينة يعقد اللواء للزبير بن العوام لينقم لشرية بشير بن سعد الأنصارى التى بعثها عليه السلام إلى بنى مرة بعدك فأحاصهم القوم وفتكوا بهم فتكا دريعا . وقبل أن يتحرك الزبير قدم غالب من الكديد مؤيدا مبصورا فبعثه عليه السلام في مائتى رجل إلى حيث أصيب أصحاب بشير بن سعد وقال عليه السلام للزبير :

— احلس .

فصار غالب وصحبه ، فلما دنا من أعدائه ليلا قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن تطيعوني ولا تخالفوا لي أمراً فإنه لا رأى لمن لا بطاع .

ثم ألف بين القوم فقال :

— يا فلان أنت وفلان ، ويا فلان أنت وفلان ، لا يفارق رجل منكم زميله ، فإذا تم أن يرجع الرجل منكم فأقول له أين صاحبك فيقول لا أدري ، فإذا كبرت فكبروا .

وأحاطوا بالقوم لما بدا نور الصباح ، ودوى صوت غالب في الفضاء :

— الله أكبر .

وإذا بأصوات المسلمين تهدير كأنها الهرم (١) :

— الله أكبر .. الله أكبر .

وحردوا السيوف وخرج بو مرة للقتال فقاتلوا ساعة ، ووضع المسلمون فيهم السيوف وهم يصيحون :

— أمت .. أمت .

واخلت المعركة عن هزيمة بني مرة والثأر لأصحاب بشير بن سعد ، وساق المسلمون العم والشاء والدرية ، فكان سهم كل رجل عشرة أبخرة .

كانت الهدنة قائمة بين المسلمين وقريش ، ولم يرص ذلك بعض قبائل العرب فكانوا يطعمون أن يقضوا عليهم . ولكنهم كانوا يريدون أن يعدوا على الملأ أن العداوة بينهم وبين الإسلام لا تزال قائمة . فكان عليه

(١) الهرم : صوت الرعد .

السلام يبعث السرايا ليهاجموا هؤلاء الثائرين في عمر دارهم ليفضي على الفتنة قبل أن تستفحل ، وليصون عاصمة الدولة الإسلامية الناشئة من العث .

(٢٨)

المسلمون في مسجده رسول الله ﷺ — التفوا حول جعفر بن أبي طالب وعمرو بن العاص يصعدون إلى ما كان بين الرجلين عبد الحاشي ، وكان عمرو يروى طرفا من الحديث وقد رقت على شففيه سمة هارقة من أقواله وأفعاله ، فإنه كان يحسب في ذلك الوقت أنه يستطيع بدهائه أن يطفىء نور الله وما دار بخلده أن الله ناصر دينه ، فلما أشرق قلبه بالأنوار أصبحت نفسه تنقاصر كلما تذكر ما كان ، وحمد الله أن الإسلام يحب ما قبله .

قال عمرو بن العاص :

— لما هاجر جعفر وأصحابه إلى الحبشة واستفرت بهم السدار . وهاجر رسول الله ﷺ — إلى المدينة وكان من أمر بدر ما كان ، اجتمعا في دار الندوة وقما : فإن لنا في أصحاب محمد الذين عبد الحاشي ثأرا عمن قتل منا بدر ، فاجمعوا مالا وأهدوه إلى الحاشي لعله يدفع إليكم من عنده من قومكم ، ولينتدب لذلك رجلا من ذوي الرأي .

فبعثوا وعمار بن أبي معبد مع الهدايا والأدم وغيره ، فركبا البحر وأنيا الحبشة . فلما دخلوا على الحاشي سجدنا له وسدما عليه وقما .

« إن قوما لك باصحوح شاكرون ، ولصالحك محبون ، وإيهم بعثوا إليك لحذررك هؤلاء القوم الذين قدموا عليك ، وكما قد صيما عبيهم الأمر وألحناهم إلى شعب بأرضا لا يدخل عنهم أحد ولا يخرج منهم أحد قد قتلهم الجوع والعطش ، فلما اشتد عليهم الأمر بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيته ، فاحذرهم وادفعهم إليها لكفيكمهم ، وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك ولا يحبوك بالتحية التي يحبك بها الناس رغبة عن دينك وستك » .

وشرد المسلمون يتذكرون أيام الشدة ، أما أن داق المهاجرون ألوان الاصطهاد وحسوا في شعب أنى طالب . وارتحف سعد بن أنى وقاص في محبسه ، إنه تذكر ذلك اليوم الذي استبد به الجوع حتى إنه وجد شيئا طريا على الأرض فابتلعه وهو لا يدري حتى الآن ما كان ، إن حديث عمرو ليعيد إلى ذاكرتهم أيام الكفاح يوم كانوا عرلا من كل سلاح إلا سلاح الإيمان . إهم عذبوا بما لم يعدب به أحد واصطهدوا في الله وصبروا وصابروا فصبرهم الله ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وتذكر الربيع بن العوام عمته خديجة ، إن الطاهرة سيدة ساء قريش قد تلوت من الجوع ، ولولا رقة قلب حكيم بن حزام على عمته لمات المسلمون جوعا في شعب أنى طالب ، فحكيم كان يحمل العير بالأقوات ويأتي بها إلى باب الشعب ثم يطلقها إلى المحصورين الحائعين ، وراح الربيع يعجب من أمر حكيم فإن مثله لا يحفل بالإسلام ، وقد كان يحسب أن حكيم بن حزام سيأتي إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — مهاجرا ليعلى إسلامه قل أن يأتي ابن العاص طائعا يعرض على الملأ الإيمان

والتسليم .

وراح عمرو يروى قصته قال : و قدعاهم الحاشي فلما حصروا صاحب جعفر بالباب : يستأذن عليك حرب الله . فقال الحاشي : مروا هذا الصائح فبعد كلامه . فقال جعفر : يستأذن عليك حرب الله . قال الحاشي : نعم فليدخلوا بأمان الله ودمته . ففطرت إلى صاحبي فقلت : ألا تسمع كيف يوطون عذب الله وما أحاسهم الحاشي ؟ ! فساءما ذلك ثم دخلوا عليه ولم يسجدوا له ، فقلت ألا ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك ؟

والتقط جعفر بن أبي طالب طرف الحديث فقال :

— قال لنا الحاشي : ما يمنعكم أن تسجدوا لي وتحبوني بالنحية التي يحببني بها من أثنائي من الآفاق ؟ قلنا : يسجد لله الذي جعلك وملكك ، وإنما كانت تلك النحية لنا ونحن بعد الأوثان فعث الله فيما بينا صادقا وأمرنا بالنحية التي نعتها ^(١) الله لنا ، وهي السلام تحية أهل الجنة .

وانثالت الذكريات على رأس عثمان بن عفان ، إنه كان هناك وكانت معه رقية بنت رسول الله ﷺ ، إن الحاشي قد أكرمهما ولكن رجاء السلاط قد أدوه بالنظر إلى رقية فقد كانت رحمها الله رائعة الحسن تحفظ الأبصار .

واستمر جعفر في الحديث قال قال الحاشي أيكم الهاتف يستأذن عليك حرب الله ؟ قلت أنا . قال فتكلم ، قلت إنك ملك من ملوك أهل الأرض ومن أهل الكتاب ولا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الطيم ، وأنا أحب أن أحيب عن أصحابي صر هذين الرجلين فليتكلم أحدهما

(١) نعتها الله : وضعها لنا ووضحها .

وليسكت الآخر فتسمع محاورتنا . فقال لى عمرو تكلم . فقلت
 لسجاشى سل هذا الرجل أعيد نحن أم أحرار ؟ فإن كنا عبيدا أنقنا من
 أربابنا فاردنا إليهم . فقال السجاشى أعيد هم أم أحرار ؟ فقال عمرو بل
 أحرار كرام . فقال السجاشى حرحم من العودية . قلت سلهما هل
 أهرقا دما بعير حق فيقتص ما ؟ فقال عمرو لا ولا قطرة . قلت سلهما
 هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعليا فضاؤها ؟ قال السجاشى يا عمرو
 إن كان قطارا فعلى قصاؤه . فقال عمرو لا ولا قيراط . قال السجاشى فما
 تطلبون منهم ؟ قال عمرو كنا وهم على دين واحد وأمر واحد على دين
 آبائنا ، فتركوا ذلك الدين واتبعوا غيره ولرما نحن ، فبعثنا إليك قومهم
 لتدفعهم إلينا . فقال السجاشى ما هذا الدين الذى كنتم عليه والدين الذى
 اتبعتموه ؟ أصدقى . قلت أما الذى كنا عليه فتركناه فهو دين الشيطان
 وأمره . كنا نكفر بالله عز وجل وبعد الحجارة . وأما الذى تحولنا إليه
 فدين الإسلام جاءنا به من الله رسول وكتاب مثل كتاب ابن مريم
 موافقا له . فقال السجاشى يا جعفر لقد تكلمت بأمر عظيم فعلى
 رسلك (١) .

ثم أمر السجاشى فصرب بالناقوس فاجتمع إليه كل قسيس وراهب ،
 فما اجتمعوا عنده قال السجاشى : أشدكم الله الذى أرسل الإنجيل على
 عيسى هل تعلمون بين عيسى وبين القيامة نبيا مرسلا ؟ فقالوا : اللهم
 نعم قد بشرنا به عيسى وقال من آمن به فقد آمن بى ومن كفر به فقد كفر
 بى . فقال لى السجاشى : ماذا يقول لكم هذا الرجل وبأمركم به وما يهاكم

(١) الرسل : الرفق والتؤدة .

عه ؟ قلت : يقرأ علينا كتاب الله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويأمر بحسن الخوار وصلته الرحم وير اليتم ، ويأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له . فقال : اقرأ علينا شيئاً مما كان يقرأ عليهم . فقرأت عليهم سورة العنكبوت والروم ففاصت عينا النجاشي وأصحابه من الدمع وقالوا : يا جعفر زدنا من هذا الحديث الطيب . فقرأت عليهم سورة الكهف . فأراد عمرو أن يعضب النجاشي فقال : إنهم يشتمون عيسى وأمه ، فقال النجاشي : ما يقولون في عيسى وأمه ؟ فقرأت عليهم سورة مريم ، فلما أثبت على ذكر مريم وعيسى رفع النجاشي بقية من سواك قدر ما يقضى العين وقال : والله ما راد المسيح على ما تقولون هنا . ثم أقبل عليّ وعلى أصحابي فقال : اذهبوا فأنتم سيوم^(١) في أرضي آمنون ، من سبكم أو آذاكم غرم .

ثم قال : أبشروا ولا تخافوا ، ولا دهوره اليوم على حرب إبراهيم . قالوا . يا نجاشي ومن حزب إبراهيم ؟ قال . هؤلاء الرهط^(٢) وصاحبهم الذي جاعوا من عدله ومن اتبعهم .

وقال عمرو :

— ثم رد النجاشي عينا المال الذي حملناه وقال إنما هديتكم إلى رشوة فاقصوها ، فإن الله ملكني ولم يأخذ مني رشوة . وقال جعفر :

— وانصرفا فمكا في خير دار وأكرم جوار .

(١) السائمة : الإبل الراحية . ويقصد أنهم هاتون ناعمون .

(٢) الرهط . ما دون العشرة من الرجال ليست فيهم امرأة .

واستمر عمرو بن العاص يروى ما كان يبه ويبن النجاشي في ريارته
التالية قال :

— لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالا من قريش
كانوا يرون رأيي ويسمعون مني فقلت لهم : تعلمون والله أني أرى أمر
محمد يعلو الأمور علواً مسكراً وأناي قد رأيت أمراً فما ترون فيه ؟ قالوا :
وماذا رأيت ؟ قلت : رأيت أن ملحق بالنجاشي فكون عده فإن طهر
محمد على قوما كما عد النجاشي فإذا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من
أن نكون تحت يدى محمد ، وإن ظهر قومنا فمح من قد عرفوا فن يأتينا
منهم إلا غير .

قالوا : إن هذا الرأى . قلت : فاجمعوا لنا ما يهديه له وكان أحب ما
يهدى إليه من أرضنا الأدم ، فجمعنا له أدماً كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا
عليه .

فوالله إنا لعده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري وكان رسول الله —
عليه السلام — قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه ، فدخل عليه ثم خرج من
عده فقلت لأصحابي : هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلت على
النجاشي وسألته إياه فأعطانيه فصربت عمقه ، فإذا فعلت ذلك رأيت
قريش أني قد أجرات عنها حين قنلت رسول محمد .

فدخلت عليه فسمحت له كما كنت أصنع ، فقال مرحبا بصديقي
أهديت إلى من بلادك شيئا ؟ قلت : نعم أيها الملك قد أهديت إليك أدماً
كثيرا . ثم قربته إليه فأعجبه واشتاه . ثم قلت له : أيها الملك إني قد
رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا ، فأعطيه لأقتله
فإبه قد أصاب من أشرافنا وحيارنا . فعضب ثم مد يده فضرب بها أنفى

ضربة ظنت أنه قد كسره ، فلو اشقت لى الأرض لدخلت فيها فرقة^(١) مه ، ثم قلت له : أيها الملك والله لو طست أنك تكره هذا ما سألتكه . قال : أتسألني أن أعطيت رسول رحل يأتيه الناموس^(٢) الأكبر الذى كان يأتي موسى لتقتله ! قلت : أيها الملك أكذلك هو ؟ قال : ويحك يا عمرو أظننى واتبعه فإنه والله لعل الحق ، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قلت : أفتبايعى له على الإسلام ؟ قال : نعم . فسقط يده فبايعته على الإسلام . ثم خرجت إلى أصحابى وقد حال رأيى عما كان عليه وكنمت أصحابى إسلامى .

كان عمرو بن العاص داهية من دهاة العرب فاستطاع أن يدمج و اجتماع المدنى سريعا وأن يعيد الصلوات القديمة بيه وبين انها جريس الأوائل أما خالد بن الوليد فقد كان يحس أنه حارب الإسلام وهو ظالم لأهله وكثيرا ما كانت تشب مشادات بيه وبين صحابة الرسول عليه السلام حتى إن عيد الرحمن بن عوف اشتكى خالد بن الوليد للمسي — عليه السلام فقال :

— يا خالد لم تؤدى رجلا من أهل بدر ؟ لو أنمقت مثل أحد ذهبا لم تدرك عمله .

فقال خالد :

— يا رسول الله بقعون فى فأرد عليهم .
فقال عليه السلام لأصحابه :

(١) العرق : الخوف والمزع .

(٢) الناموس ، ملك الوحى . جريس عليه السلام .

— لا تؤذوا خالدا فإنه سيف من سيوف الله .

وحزعت قريش لإسلام خالد وعمرو وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة الذي كان عنده مفتاح البيت العتيق ، فقال شاعرهم ابن الزبعرى السهمي :

أنشد عثمان بن طلحة حلفنا وملقى نعال القوم عد المقل (١)
وما عقد الآباء من كل حلفة وما خالد من مثلها بمحلل
أعفتاح بيت غير بيتك تبغى وما يتغى من مجد بيت مؤئل (٢)
فلا تأمن خالد بعد هذه وعثمان جاء بالدهيم المعضل (٣)

(٢٩)

بعث رسول الله — ﷺ — عبد الله بن رواحة إلى أهل حير حارصا (٤) بين المسلمين ويهود فيحرص عليهم ، فقد دفع — ﷺ — لأهل حير الأرض لما قالوا له :
— نحن أعلم بها منكم .
وأعمرها بشطر ما يخرج منها من تمر أو ررع ، وحرصها ابن رواحة أربعين ألف وسق فقالت يهود :
— تعديت علينا .

(١) يريد بالمقل : موضع تقيل الحجر الأسود .

(٢) المؤئل : القديم .

(٣) الدهيم : الداهية .

(٤) حارصا : حازرا ومقدرا .

وأرادوا أن يرشوه فقال :

— يا أعداء الله تطعمون في السحب ^(١) ؟ والله نقد حتثكم من عبد أحب الناس إليّ ولأنتم أبغض إليّ من القردة والخنازير ، ولا يحملني بعضي إياكم وحسب إياه على ألا أعدل .

وقسم ما خرج من أرض حبر شطرين وخيرهما في أن يختاروا أي الشطرين قال :

— ان شئتم فلكم وإن شئتم فلنا .

فقال يهود :

— بهذا قامت السماوات والأرض .

كان عيد الله بن رواحة من النقاء الاثنى عشر الدين بايعوا رسول الله ﷺ — في بيعة العفة ، وقد قال فيه كعب بن مالك لما ذكر النقاء

وأیضا فلا يعطيكه اس رواحة وإحماره ^(٢) من دونه السم نافع

وقد شهد بدرا وأحدا والخندق ومشاهد رسول الله ﷺ . إنه

اعترض ناقة رسول الله ﷺ — يوم أن حرح عليه السلام من قباء إلى

المدينة لما مرت بدار بني الحارث بن الحارح وقال :

— يا رسول الله هم إنيأ ، إلى العدد والعدة والمنعة

كان اس رواحة ورجال بني الحارث يعون أن يبرل رسول الله عليه

السلام فيهم ، ولكنه عليه السلام قال لهم :

— خلوا سبيلها فإنها مأمورة .

(١) السحت : كل مال حرام لا يحل كسبه .

(٢) الإحمار : الحمط والحماية .

ويوم بدر خرج عنة بن ربيعة بين أخيه شيبه وابنه الوليد حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المارزة . فحرح إليه فتنة من الأنصار ثلاثة هم : عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عمراء وعبد الله بن رواحة . كان من أوائل من برزوا للقتال في ذلك اليوم المشهود . ولكن رجال قريش قالوا : من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار . قالوا : مالنا بكم من حاجة . ثم نادى ماديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفأنا .

ولما تم النصر للمسلمين يوم بدر بعث رسول الله — ﷺ — عبد الفتاح عبد الله بن رواحة بشيرا إلى أهل العالية مما فتح الله عمر وحل على رسول الله — ﷺ — وعلى المسلمين ، وبعث ريد بن حارثة إلى أهل السافلة . فراح الرحلان يذكran قتل من قتل من المشركين فقال كعب بن الأشرف وكان رجلا من طيء ثم أحد بني سهاة وكانت أمه من بني النضير حين بلغه الخبر : — أحق هذا ؟ أترون محمدا قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرحلان فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ؟ والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم قطط الأرض حير من طهرها

فراح عبد الله بن رواحة يؤكد مقتل أشراف العرب وملوك الناس وهو يود لو يموت عدو الله كعب بن الأشرف كمدا

وكان عبد الله بن رواحة فيمن حفروا الخندق ، فلما حمل حصى بن أحطب كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم على نقص عهده لرسول الله — ﷺ — وانتهى إلى رسول الله عليه السلام الحبر وإلى المسلمين ، وبعث رسول الله — ﷺ — سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عباد سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وحوات ابن حنبل قال :

— انطلقوا حتى تنظروا أحق ما يلعبا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقاً فالخو إلى الحيا أعرفه ولا تغتروا في أعصاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بينا وبينهم فاحضروا به للناس

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أحبب ما يلعبهم عنهم فيما بالوا رسول الله — ﷺ — وقالوا :

— من رسول الله ؟ لا عهد بينا وبين محمد ولا عقد .

ثم أقبل السعدان وعبد الله بن رواحة وحوات إلى رسول الله — ﷺ — فسلموا عليه ، ثم قالوا :

— عضل والقارة .

أى كعدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع حبيب وأصحابه ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين .

وكان حسان بن ثابت حاضر في حديث الإفك وهما صفوان مصر به صفوان بالسيوف ثم قال :

تلق دباب^(١) السيف عني هابنى
علام إذا هوحيت لست بشاعر
هوئب ثابت بن قيس بن الشماس على صفوان حين ضرب حسان
فجمع يديه إلى عنقه فحمل ثم انطلق به إلى دار بني الحارث بن الحارح ،
فلقيه عبد الله بن رواحة فقال :

— ما هذا ؟

— أما أعحك ضرب حسان بالسيف ! والله ما أراه إلا قتله

(١) دباب السيف : طرفه .

قال له عبد الله بن رواحة :

— هل علم رسول الله ﷺ — بشيء مما صنعت ؟
— لا والله .

— لقد اجترأت . أطلق الرجل .

فأطلقه ثم أتوا رسول الله ﷺ — فذكروا ذلك له ، فدعا حسان وصفوان فقال صفوان بن المعطل :

— يا رسول الله آداني وهجاني ما احتملى العصب فضربته .

فقال رسول الله ﷺ — لحسان :

— أحسن يا حسان ، أتشدت^(١) على قومي أن هداهم الله للإسلام ؟

ثم قال عليه السلام :

— أحسن يا حسان في الذي أصابك .

— هي لك يا رسول الله .

وافتح رسول الله ﷺ — حير عوة فحمسها عليه السلام وقسمها بين المسلمين ، وبرل من برل من أهلها على الحلاء بعد القتال فدعاهم رسول الله ﷺ — فقال .

— إن شئتم دعيت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها وتكون ثمارها بيسا وبيسكم ، وأقركم ما أقركم الله .

فقبلوا بعت — عبد الله بن رواحة ليقسم ثمارها ، فأرادوا أن يرشوه فغضب ابن رواحة عصبا شديدا فما حطر له على قلب أن قوما

(١) تشده : تصعب واندهش .

يدور بخلدكم أن يرشوه ، فهو من نساء الأنصار ممن شهد بدرًا والمواقع كلها ووهب حياته لله ولرسوله ولصورته الإسلام . إنه لا يريد الدنيا بل يطمع فيما عند الله فما بال هؤلاء الذين غرهم الدنيا يحاولون أن يعطموه في السحت وأن يملئوا بطيه نارا ؟ إنه نائر على هؤلاء الذين يريدون حرث الدنيا قد كرههم من أعماق قلبه ، ولكن بغضه إليهم لا يحمله على ألا يعدل فهو لا يريد في كل أعماله إلا وجه الله والله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُكُمْ عَلَىٰ وَلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ حَسِيرٌ مَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

(٣٠)

حزن المسلمون لما هزمت الفرس الروم لأن الفرس كانوا وثنيين مثل قريش والروم كانوا أهل كتاب مثل المسلمين وبرل قرآن يؤكد أن الروم سيهزمون الفرس في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ببصر الله يبصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وتحقق وعد الله وهزمت الروم الفرس ، وحانت أساء ذلك الانتصار يوم أن فتح الله على المسلمين في بدر ففرح المؤمنون ببصر الله وليبصر الله من يبصره إن الله لقوى عزيز . فلما استقرت الأمور في المدينة بعد صلح الحديبية بعث عليه السلام كذا إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى

الإسلام فكان رد هرقل ملك الروم رقيقا وإن لم يؤمن بالدين الجديد ،
 فرأى صلوات الله وسلامه عليه — أن يستمر الحبل موصولا بين المسلمين
 والروم لعل الله يشرح صدورهم للإسلام . فعث عليه السلام في حمادى
 الأولى سنة ثمان من الهجرة الحارث بن عمير الأردى إلى ملك بصرى
 بكتاب ، فلما نزل مؤنة تعرض له شرحبيل بن عمرو العسافى وهو من
 أمراء قيصر على الشام فقال له :

— أين تريد ؟ لعلك من رسل محمد .

— نعم .

فأوثقه ربطا ثم قدمه فصرب عنقه ، فلما بلغ رسول الله ﷺ —
 ذلك اشتد الأمر عليه فلم يقتل لرسول الله عليه السلام رسول من قبل
 وكان قتل الحارث بمثابة إعلان الحرب من قبل الروم على المسلمين ، فلما
 اتصحت بيات الروم وبدت العداوة وبدعوا بالعدوان كان على رسول الله
 — صلوات الله وسلامه عليه — أن يتحرك وأن يرسل حيوشه إلى الشام
 قبل أن يجمع الروم جموعهم ويسيروا إلى المدينة ليقتضوا على الإسلام .
 وحجر عليه السلام جمعا من أصحابه عدتهم ثلاثة آلاف وأمر عليهم
 زيد بن حارثة وقال :

— إن أصيب ريد فحضر من أبى طالب على الناس ، وإن أصيب
 حمزة فبعد الله بن رواحة على الناس وإن أصيب ابن رواحة فليترضى
 المسلمون برجل منهم فليجعلوه عليهم .

وعقد عليه السلام لواء أبيض ودفعه لزيد بن حارثة وأوصاهم أن
 يأتوا مقتل الحارث بن عمير ويدعوا من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا
 وإلا استعانوا عليهم بالله تبارك وتعالى وقتلوه .

وودعهم الناس وقالوا لهم :

— صاحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

وخرج رسول الله ﷺ — مشيعا لهم حتى بلغ ثنية الوداع فوقف فقال :

— أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين حيرا .

اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستهذون فيها رجالا في الصوامع معتزلي فلا تعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ولا بصيرا فانيا ، ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء

وخرج جيش المسلمين فثار النقع وارتفع وقع حوافر الخيل على الأرض وأصوات أهل المدينة ترتفع بالوداع والدعاء :

— دفع الله عنكم وردكم غائمين .

فمضوا وفي الخيل خالد بن الوليد فارس قرين المطهر في كل موقعة ، ولم يكن إلا جديا من جنود الإسلام خرج ليعلى كلمة الحق مع إخوانه الخارجين . إنه لأول مرة يخرج مطمئن العواد بعد أن هداه الله إلى الطريق ، فلم يعد يخجل أن يكون على رأس الجيش أو يكون في الدليل فإن ما يملأ قلبه رضا أنه في حاسب الحق وفي سبيل الله ، يستشعر في أعماقه أنه مع الله وأن الله معه .

ونزل المسلمون بأرض الشام فلعمهم أن هرقل إمبراطور الروم قاهر الفرس في مائة ألف من الروم ، وانضم إليه من قبائل العرب المتحصرة من بني بكر ولخم وجذام خمسون ألفا ومعهم من الخيول والسلاح ما ليس مع المسلمين ، فراحوا يتشاورون ليلتين هل يعشون لرسول الله ﷺ — يخبرونه بعدد عدوهم فيما أن يمددهم برجال أو يأمرهم بأمر

فيمضوا إليه ، فشجعهم عبد الله بن رواحة على نخوض عمار المعركة وقال لهم :

— يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرّجتم له ، خرّجتم تطلبون الشهادة ونحن لا نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله تعالى به ، فأبما هي إحدى الحسينين إما ظهور وإما شهادة .

فسرت حماسته إلى صدور الغوم فقال الناس :

— صدق والله ابن رواحة .

فمضوا للقتال فقبهم هرقل في جموع الروم والعرب ، فاستأجر المسلمون إلى مؤنة فالتقى الجمعان عندها واقتلوا فقاتل يزيد بن حارثة ومعه راية رسول الله — ﷺ ، إنه يصول ويحول كنيث كشر عن أنيابه . واطلاق فرسان الروم إلى صاحب الراية ويريد بن حارثة يدافع عنها دفاع الأبطال ويكرر تكبيرة ترزّل قلوب الأعداء ، وتكاثّر عليه الرجال فخلصت إليه الحراخ وهو ثابت كالطود يرى صورة حبيبه رسول الله — ﷺ — غملاً ما بين السماء والأرض فلا يزيده ذلك إلا عزمًا ونصميمًا على النصر . وصوبت إليه السهام وارتفع سيف وهوى على عاتقه فترخ ثم سقط على الأرض يحود بأنفاسه ، وصوت رسول الله عليه السلام يسرى إلى أذنيه كالسيم :

— إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس .

وفتح عيبر واهنتين ونظر فرأى جعفر بن أبي طالب قد أخذ الراية وهو يقاتل على فرسه ، فلغظ النمى الأخير وهو قرير العين فقد قبل له — لما قال عليه السلام إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس —

اعهد يا ريد قلن ترجع لمحمد أبدا إن كان نبيا ، وهو يقول : أشهد أنه نبي .

وراح جعفر بن أبى طالب يقاتل على فرس أشقر وقد النع حولہ صاديد الروم ، الدروع تغطي الصلور والحدودات تتألق في الشمس والصراع مرير والقوتان غير متكافئتين ، فمقابل المسلم عشرات من الرومان ومتنصرة العرب ، وأحس جعفر أنه مقتول فزل عن فرسه وعقره خوفا من أن يأخذه الكفار فيقاتلوا عليه المسلمين — وكان أول فرس عقر في سبيل الله ، وأخذ يصرب بسيفه وهو يقول :

يا حيدا الجنة واقترباها طيبةً وبـاردا شربا
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعسدة أسابها
على إن لاقيتها صرابها

كان جعفر في التاسعة والثلاثين من عمره مهيبا فحما يهجم على أعدائه كأنه سبع ينفود عن عريه يصرب بسيفه حتى يشي في يده ، وكان اللواء في يمينه فإذا بصرة سيف أطاحت بذراعه ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعصديه فإذا بصرة بالسيف تسدد إليه فيسقط على الأرض يحد بأفهامه .

ولعب خالد بن الوليد بسيفه ، كان يضرب بقوة فيطيح بالرؤوس ، ودارت رحى معركة رهيبة يشيب من هولها الوليد فإذا بالدماء تروى أرض مؤنة ، وإذا بجثث الروم والعرب تملأ الفضاء ، وإذا بالداءات تختلط بالأثبات ، وراحت الشمس تغوص في الأفق العربي والقتال دوار لا هوادة فيه ولا رحمة .

وأحد عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه ، فحعل

يستزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم قال :

أقسمت يا نفس لنزلته لنزلسن أو لنكرهنه
إن أحلب الناس وشدوا الرنة^(١) ما لي أراك تكرهين الجسة
قد طال ما قد كنت مطمئة هل أنت إلا نطفة في شنة^(٢)
وأراد أن ينزل عن فرسه ليحوص في صفوف الأعداء فإذا يخوف
يكتفه ، وتذكر موت صاحبيه ريد وجمعر . إنهما استشهدا وحادا
بروحهما مستشرين متفرحين في الله ، فراح يلوم نفسه :

يا نفس إلا تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت^(٣)
وما نسيت فقد أعطيت إن تعمل فعلهما هديت
واندفع كالعاصفة في صفوف الأعداء وهو يحمل لواء رسول الله —
ﷺ ، واستمر يتقدم لا يلوى على شيء يصرب بسيفه أعناق الروم ومن
حواله صادهد المسلمين يكبرون ويطعنون الأعداء طعناات قاتلة فوق
الدروع ويلقون الهامات .

وأق عبد الله بن عمر جمعر بن أنى طالب وهو مستلق آحر النهار
معرض عليه الماء فقال :

— إن صائم فضعه على ترسي عد رأسي ، فإن عشت حتى تعرب
الشمس أظرت .

فمات صائما قبل غروب الشمس شهيدا مدلا للدنيا بإدباره عبا ،

(١) الرنة : صوت فيه ترجيع مثل البكاء .

(٢) الشنة : قطعة من الحلد البالي .

(٣) صليت : صلي ذاق . صلي بالار : وجد حرها .

معزاً للآخرة بإقباله عليها .

ونال الثعب من الرحال فما حيم الطلام حتى انسحب الحيشان كل إلى معسكره يضمده جراحه .

وتحمد عبد الله بن رواحة ليسترخ ، وأسبل عينيه فإذا به يرى بعين خياله ذلك اليوم الذى ودع فيه أمراء رسول الله — ﷺ ، إنه بكى فى ذلك اليوم فقالوا له :

— ما يبكيك يا بن رواحة ؟

— أما والله ما نى حب الدنيا ولا صباة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله — ﷺ — يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ إِنْ أَرَادَهَا كَانَ عَلَىٰ رَيْبٍ مِنْهَا فَتَمَاقُصُهَا ﴾ ^(١) . فليست أدري كيف لى بالصدر ^(٢) بعد الورود .

ورن فى ضميره أصوات المسلمين :

— صحبكم الله ودعم عكم وردكم إلينا صالحين .

وسمع صوت ذاته يهمس فى أغواره بالشعر الذى أنشده .

لكننى أسأل الرحمن مغفرة

وضربة ذات فرغ ^(٣) تقذف الزهنا

أو طعنة يبدى حيران محهرة بحربة تمعد الأحشاء والكبداء

حتى يقال إذا مروا على جدتى أرشده الله من غاز وقد رشدا

إنه حرح وهو يتمى الامتشهاد فما ناله قد تردد لما آلت إليه راية

(١) مريم ٧١ . (٢) الصدر : الرجوع من مورد الماء .

(٣) ذات فرغ : ذات نسمة ، والريد ها رعدة الدم .

رسول الله — ﷺ — ؟ إنه حائق على نفسه لا يمتأ يَوْمها حتى وهو يلتقط أنفاسه من التعب . إنه بات وهو واثق من القتل وأنه سيلحق بصاحبيه ريد وجعفر فلم ترتعد فرائضه ولم يرتحف حشية الموت . بل أحس حينئذ إلى رسول الله — ﷺ — فراح يرى بذاكرته رسول الله عليه السلام وهو يودعه ، فارتمع صوته ينشد في رقة وقد بليت الدموع عيبه : أت الرسول فمَنْ يحرم نوافله ^(١) والوجه منه فقد أررى به القدر ثبت الله ما آتاك من حسن في المرسلين وبصرا كالذي بصروا إلى تفرست فيك الخير نافلة فراسة خالعت فيك الذي نظروا واحتلت فكرة صورة رسول الله عليه السلام لما ودعهم وانصرف عنهم والشعر الذي قاله :

خلف السلام على أمرىء ودَّعه في الحل حيز مشيع وحليل
وعادت إلى رأسه مشاهد الرحلة كلها ، إنه أردف زيد بن أرقم على رحله وكان ريد يتيماً في حجره ، فأنشد والمسلمون في طريقهم إلى البقاء :

إذا أدبني وحملت رحلي	مسيرة أربع بعد الحياء
فشانك أنعم وحلاك ذم	ولا أرجع إلى أهل ورائي
وجاء المسلمون وغادروني	بأرض الشام مشتهى الثواء
وردك كل ذي نسب قريب	إلى الرحمن مقطوع الإحباء
هالك لا أبالي طلع بعلي	ولا نخل أسافلهم رواء

(١) نوافله : عطائاه .

فلما سمع زيد بن الأرقم هذه الأبيات بكى ، فحفظه بالدرة وقال :
— ما عليك يا لكع^(١) أن يررقى الله الشهادة وترجع بين شعبي
الرحل ؟

ومد عينيه في ظلام الليل يبحث عن زيد بن أرقم فأنعاه يصمد
جراحه ، فاستمر يرنو إليه في حب فاذا بدكريات غزوة بني المصطلق
تشال على رأسه ، إن أجبر عمر بن الخطاب يزدهم على الماء وحليف بني
عوف بن الخزرج ، فاقترلا فصرح حليف بني عوف يا معشر الأنصار ،
وصرح أجبر عمر يا معشر المهاجرين ، فعصب عبد الله بن أبي بن سنول
وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم علام حدث فقال :

— أوقد فعلوها ؟ قد نامروا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدنا
وحلايب قريش إلا كما قال الأول سمى كلبك يا كلك ! أما والله لئن
رجعنا إلى المدينة ليحرحن الأعرس منها الأذل .

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم :

— هذا ما فعلتم بأمنسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم
أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم .
فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله — ﷺ — فأخبره
الخبر وعنده عمر بن الخطاب ، فقال :

— مر به عباد بن بشر فليقتله .

— فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ! لا ولكن
أذن بالرحيل .

(١) يا لكع : يا لئيم ، والمقصود مجرد الردع .

وبلع عبد الله بن أمي بن سلول أن ريد بن أرقم قد بلغ رسول الله عليه السلام ما سمع منه ، فمضى عبد الله إلى الرسول عليه السلام ، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به ، فقال من حضر رسول الله ﷺ — من الأنصار من أصحابه :

— يا رسول الله عسى أن يكون العلامة قد أوهم في حديثه ولم يحمط ما قال الرجل .

كان نفر من الأنصار يحدون على ابن أمي بن سلول ويدفعون عنه ولكن ابن ربيعة لم يحب نفاقه ؛ كان على ثقة من أن ريد بن أرقم لم يكذب في حديثه فقد شأ في حجره وما حارب عليه كدما قط ، وكان يروح كما كان ريد يروح أم يرون الله قرآنا يوضح فيه نفاق ابن أمي بن سلول ، وقد نزل القرآن المجد مصداقاً لزيد : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم سوء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . وإذا رأيتهم تعجك أحسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم حطب مسدة يحسون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أن يؤفكون . وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوووا رجوسهم ورأيهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستمعرت لهم أم لم تستعفر لهم لن يعفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين . هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى يعصوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لن رجعتا إلى المدينة ليحرقن الأعز منها الأدل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين

لا يعلمون ﴿١﴾ .

ورفت بسمه على شفتى ابن رواحة فهو يرى بصيرته رسول الله عليه السلام يأخذ بأذن ريد بن أرقم ثم يقول :
— هذا الذى أولى الله بأذنه .

وهوم وطاف به الكرى ولكنه راح يقاوم النوم ، إنه يحس أن ميته قد دنت وأنه على أبواب الاستشهاد فود أن يعيش ما بقى من حياته مع الذكريات ، فأطلق حصيه فتمر المشاهد في رأسه نابضة حية تثير فيه الالفعال . إنه يرى جيش النسمين يخرج من المدينة بقيادة ريد بن حارثة تموح في صدور رحانه الآمال . كانوا متفرحين في الله فهذه أول مرة يضلّون فيها إلى الشام للعرو عوضا عن التحارة ، لتأديب شرحبيل أمير العماسة على ما اقترف في حق رسول نبي الإسلام عليه السلام وما دبر يخلدهم أنهم سيقاسون الروم . إنه يرى الجيش وقد بلغ معان وإذا بالأساء تأتي إليهم أن الرومان بقيادة تيودور أحيى هرقل قد حرجوا إليهم ، إنهم توقفوا عن السير ونزلوا معان يتشاورون .

كان رأى زيد أنهم ما حرجوا إلا لتأديب شرحبيل بن عمرو العسافى لضربه عنق الحارث بن عمير الأردى رسول نبي الإسلام عليه السلام ، وقال جعفر بن أبي طالب إن رسول الله — ﷺ — لم يعينهم لقتال الروم ، إنهم قد أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم وقالوا :
— نكتب إلى رسول الله — ﷺ — نصحرة بعدد عدونا ، فإما يمدنا برجال وإما أن يأمرنا بأمره فمضى له .

(١) الماسقون ١ — ٨ .

ورأى عبد الله بن رواحة نفسه وهو يشجع الناس على القتال ، ورد
في عين ذاته الشعر الذي قاله :

جلبنا الخيل من أجأ وفرع ^(١)	تغر من الحشيش لها العكوم ^(٢)
حذوناهم من الصوان ^(٣) سبتا	أزل كأن صفحته أديم ^(٤)
أقامت ليلتين على معان	فأعقب بعد ضررتها جحوم ^(٥)
فرحنا والحياة مسومات ^(٦)	تنفس في مناخرها السموم ^(٧)
فلا وألى مآب لنأينها	وإن كانت بها عسرب وروم
فعبأنا أعبتها فجاءت	عوايس والغيار لها بريم ^(٨)
بذى لجب كأن البهيص فيه	إذا برزت قواسها ^(٩) الجحوم
فراضية المعيشة طلقنا	أستها فتكح أو تميم ^(١٠)

ورد في أدبيه أمر زيد بن الحارثة بالتقدم . إنه ليرى جيش المسلمين
يساب إلى اللقاء فإذا يحش الروم هالك بقربة من قرى اللقاء يقال لها
مشارف ، وإذا بالعدو يدنو وإذا بالمسلمين يحارون إلى مؤنة على مائة
ميل حولي بيت المقدس على البحر اليب .

-
- (١) أحأ : أحد حبل طيء ، والفرع : أطول حبل بأجأ
(٢) العكوم : جمع عكم وهو الحب . (٣) الصوان : نوع من الحجارة
(٤) الأديم : الخلد (٥) جحوم : اجتناح القوة والنشاط بعد الراحة
(٦) مسومات : معلمات . (٧) السموم : ريح حارة
(٨) البريم : الدمع المختلط بالآئد .
(٩) القونس : أعلى الرأس
(١٠) تميم : ناعم أحاد ويد معه ويقصد الكثرة والزيادة

(صلح الحديبية)

وأرسلت الشمس أشعتها الأولى إلى سواحل البحر الميت الموحشة ، فأخذ المسلمون مصافهم وتحركت فيالق الروم . إنها تندفع في صفوف المسلمين الذين كانوا مسلحين بأسلحة خفيفة فلم يستطع ريد أن يقف مكتوف اليدين وأمر بالهجوم ، فأنزل الرجال والفرسان حسائر فادحة في حيوش الرومان ، فلو أن هناك مسلمين أكثر من الموجودين قليلا لاندحر الروم .

إن ريد بن حارثة يقاتل براية رسول الله — ﷺ — حتى شاط (١) في رماح القوم ، وإن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء يمينه فقطعت فأحذه بشماله فقطعت فاحتصه بعصديه حتى قتل ، وقد أصبحت راية رسول الله — ﷺ — في يده ، فزم على أن يقاتل حتى يفتح الله عليه أو يموت دونها .

(٣١)

لاح في الأفق الشرق نور الصباح فنهأ الحيشان للقتال : المسلمون على تعنتهم قد جعلوا على ميمنتهم رجلا من بني عذرة يقال له قطبة بن قتادة ، وعلى ميسرتهم رجلا من الأنصار يقال له عباد بن مالك . والروم في دروعهم وعلى رعوهم الخودات وفي أيديهم أسلحة بتارة ولكن قنوسهم لم تكن عامرة بالإيمان ، فلما نشب القتال استشرى القتل في الروم ونزل عبد الله بن رواحة يحوض عمار القتال وفي يده راية رسول الله عليه

(١) شاط الرجل : إذا سال دمه مهلك .

السلام وإلى حوارته خالد بن الوليد يقط الرقاب ويضع سيفه حيث شاء ،
وثابت بن الأرقم يعصب بسيفه يدافع عن راية الإسلام .

ومضى النهار والعرق يتصبب من أس رواحة وهو يقاتل دون أن
يستريح أو يبال طعاما ، فأتاه أس عم له بفرق من لحم فقال :

— شد بهذا صلك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت .

فأخذه من يده ثم انتش منه نهشة ، ثم سمع الحطمة^(١) في ناحية
الأس فقال :

— وأنت في الدنيا !

ثم ألقي عرق اللحم من يده ثم أحد سيفه فتقدم بهز راية رسول الله —
صلوات الله وسلامه عليه — هرا ويشجع الأس على الثبات ، فكثر
عليه الروم فهروه بأسياهم فقتلوه وسقطت راية رسول الله عليه السلام
من يده .

وأختلط المسلمون بالروم ومغتصرة العرب ، وأراد بعض المسلمين
الانتهزام فجعل عقبة بن عامر يقول :

— يقتل الإنسان مقبلا أحسن من أن يقتل مدبرا

ورأى ثابت بن أرقم راية رسول الله — ^{صلوات} عليه — في يد عبد الله بن
رواحة وقد هاضت روحه فأخذ الراية وقال :

— يا معشر المسلمين اصطلحوا على رحل مككم .

فقالوا :

— أنت .

— ما أنا بفاعل .

(١) الحطمة : زحام الأس وحطم بعضهم بعضا .

ودفعها إلى خالد بن الوليد وقال :

— أنت أعلم بالقتال مني .

فقال له خالد :

— أنت أحق به مني لأنت ممن شهد بدر

واصطلح الناس على خالد بن الوليد فكادت الدموع تطفر من مقلتيه من التأثر : إنها أول مرة يحمل فيها راية الإسلام بعد أن كان حربا على المسلمين ، وحمل على الروم حملة شديدة فاندقت في يده تسعة أسياف وما نشت في يده إلا صحيفة بمائة ، واستمر القتال رهيبا حتى سحبا^(١) الليل فعاد كل من الحيشين إلى معسكره .

ولم يركن خالد إلى الراحة بل إنه جعل مقدمة الحيش ساقطة وساقته مقدمة ويمسته ميسرة ويمسرته ميمية ، فكانت حركة طوال الليل في عسكر المسلمين فطس الروم محي ، مدد للمسلمين فرعبوا فالتزدة القليلة من العرب قد أزلت بهم حسائر فادحة ، فعاد ميسرلون بهم من حسائر بعد أن جاءهم المدد ٩ ١

وأشرقت شمس اليوم السابع فاستؤنف القتال وشس المسلمون على الروم هجوما شديدا تكسرت منه صفوفهم ، ولما كان الروم يرون في أية مخاطرة عسكرية حماقة وقد أمر عنهم كثرة القتل الذي نزل بهم فرروا أن يسبحوا إلى أماكن أكثر ملاءمة لصد هجوم المسلمين ، فشتوا حتى أحر سهار ثم راحوا يتقهقرون في حبح الظلام إلى أماكن محصنة نقيهم من صراوة قتل هؤلاء العرب الذين حملوا راصين أرواحهم على أكفهم

(١) سحى الليل : ستر بظلمته .

والذين يستقبلون القتل مستبشرين لكأنما يزفون إلى الموت ليحطموا ذلك الحاجر الذي يقف حائلا بينهم وبين سعادتهم الأبدية .

ولم ير حاله حافظا على أن يقتضى أثر الروم فحيثه قد أنهك وقد نثت سعة أيام لجيش يفوقه في العدد والعدة ، فعزم القائد الموفق على العودة ففعل راجعا بالمسلمين إلى المدينة وقد حمل جثمان جعفر وفيه تسعون جراحة بين صدره ومسكبه ما بين صريرة السيف وطعنة بالرمح .

وأطبع الله تعالى رسوله — ﷺ — على استشهاد قواده عاды و الناس :

— الصلاة جامعة .

فهرع المسلمون إلى المسجد ، ثم صعد المبر وعباء تدركان وقال — أيها الناس باب حير .. باب حير .. باب خير . أحر كم عى حيثكم هذا العارى أنهم اطلقوا فنقوا العدو فقتل ريد شهيدا فاستعفروا له ، ثم أخذ الراية جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيدا ، فاستعفروا له .

ثم صمت رسول الله — ﷺ — حتى تعيرت وجوه الأنصار وطوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون ثم قال :

— ثم أحدها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيدا ، فاستعفروا له ، ثم أحد اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمير نفسه ، ولكنه سيف من سيوف الله فأب بصره .

ودخل رسول الله — ﷺ — دار جعفر بن أبي طالب فألقى روحه أسماء بنت عميس قد انتهت من المحين ، فقال :

— اكسى بى جعفر .

فأنته عليه السلام بهم فشمهم ودرفت عيابه حتى نطقت لحيته ،
فقال أسماء في خوف :

— يا رسول الله بأني أنت وأمي ما يبكيك ؟ أبلعك عن جعفر
وأصحابه شيء ؟

فقال عليه السلام في حزن :

— نعم ، أصيبوا هذا اليوم .

فقامت تصيح واجتمع عليها النساء ، وجعل رسول الله — ﷺ —
يقول لها :

— يا أسماء لا تقولى هجرا ولا تضرى حدا

ودخل عليه السلام على فاطمة وهو والد حريس وهي تقول :

— واعماه !

فقال عليه السلام :

— على جعفر فلتبك البواكي .

ثم قال :

— اصنعوا لآل جعفر طعاما فقد شعلوا عن أنفسهم اليوم .

وعمدت سلمى مولاة النبي — ﷺ — إلى شعر فطحته وسفنه ثم

طبخته وأدمته برئت وحملت عليه فلعللا ، وحمته إلى دار جعفر

وبلغ حسان بن ثابت مقتل جعفر فراح يبكيه :

ولقد بكيت وغز مهلك جعفر حب السي على الربة كلها

ولقد حزعت وقلت حين بعيت لي من للحلاد لدى العقاب^(١) وطنها

(١) العقاب : طائر جارح ويقصد بها الربة .

بالبیض حين تمل من أعمادها ضربا وإنهال الرماح وعلها^(٢)
 بعد ابن فاطمة المبارك جعفر غير البرية كنها وأجلها
 رزعا ، وأكرمها جميعا محمدا^(٣) وأعزها متظلمها وأدلا
 للحق ، حين ينوب غير تحل كذبا ، وأنداهها^(٤) يدا وأقلها
 فحشا ، وأكثرها إذا ما يجتدى^(٥) فضلا وأبذلها ندى وأبذلها
 بالعرف غير محمد لا مثله حتى من أحياء البرية^(٦) كلها
 وحاء رسول الله عليه السلام رجل فقال .

— يا رسول الله إن النساء عيين وقتن .

كان موت حمير فاحصة لسي هاشم ، فما إن عاد من الحشة وقل أن
 يشتمعوا به بعث إلى مؤنة لقتل فكادت عقوب السوء أن تطيش وكادوا
 أن يقطعوا كفرا ، فقال له عليه السلام .
 — أرجع إليهن فأسكتن .

فذهب ثم رجع فقال له مثل الأول وقال :

— نيتن فلم يطعننى .

— اذهب فأسكتن فإن أبين فاحث في أفواههن التراب .

وكانت عائشة تسمع ذلك الحوار فقالت في نفسها .

— أهدك الله ! فوالله ما تركت نفسك وما أنت بمطيع رسول الله

ﷺ .

(١) الإسهال الشرب لأو وأعل الشرب الثاني يبرد يطعن بعد الطعن

(٢) اهتد : الأصل . (٣) أنداهها : أكرمها

(٤) يجتدى : يطلب جوده . (٥) البرية : الناس

وعرفت أنه لا يقدر على أن يحتمل^(١) في أفواههن التراب .
 وراح عليه السلام يفكر في جعفر وقد استبد به الحزن ، ثم قال :
 — اللهم قد قدم أحسن الثواب فأحلله في ذريته بأحسن ما خلقت
 أحدا من عبادك في ذريته .
 وأحد رسول الله — ﷺ — عبد الله بن جعفر وإخوته في بيته
 يدورون معه كلما صار في بيت إحدى نسائه ، فلما انقضى ثلاثة رجعوا
 إلى بيته لتصمهم أسماء بنت عميس إلى قلبها المجرع .
 وانصرف خالد بالناس وكان قطبة بن قتادة العدري الذي كان على
 ميمة المسلمين قد حمل على مالك بن رافلة فقتله ، فقال قطبة بن قتادة :
 طعنت ابن رافلة بس الأراش برمح مضى فيه ثم اعطى
 صرمت على حبيده صرصة — همل كما مال غصن السلم^(٢)
 وسقا نساء بسى عمه — عداة رقوقين سوق العم^(٣)
 ولما دوا من حول المدينة تلقاهم رسول الله — ﷺ — والمسلمون
 ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله — ﷺ — مقبل مع القوم على دابة
 فقال :

— حذوا الصبيان فأحملوهم وأعطوني ابن جعفر
 فأتى بعبد الله فأحده فحمله بين يديه ، وكان رسول الله عليه السلام
 حريصا على قواده الذين أصيبوا — إنه فرح يوم حبر بقدم جعفر فرحا
 يعدل فرحه بفتح حبر ، أما اليوم فقد فقد ريد بن حارثة مولاه الذي

(٢) السلم : نوع من الشجر

(١) يحتمل : يلقى .

(٣) رقوقين : اسم موضع .

تساءل ذات يوم والدي رحمه الله بأن أنزل اسمه في القرآن من فوق سبع سموات . وفقد جعفر بن أبي طالب الذي كان أشبه الناس به خلقا وحلقا ، وفقد عبد الله بن ربيعة أحد نقباء المخرج ومن شهد معه المشاهد كلها ، ولم يكن وحده الذي ينز قبه بالأسى فما أكثر المحزونين ! على بن أبي طالب واله حزين على أخيه جعفر . وأسامة بن زيد تكاد كنده أن تعطر على أبيه ، والأنصار يحسون أسي على فقد ابن ربيعة شاعرهم الذي كان من أوائل الذين بايعوا رسول الله ﷺ — بيعة العقبة .

وحمل الناس يحثون على الحيش التراب ويقولون :

— يا فرار ، فررت في ميل الله !

فيقول رسول الله ﷺ :

— ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

وراح الشعراء يكون أصحاب مؤنة من أصحاب رسول الله

ﷺ ، قال حسان بن ثابت :

تأوتسى ليل يهرب أعسر	وهم إذا ما نوم الناس مهمر
لذكرى حبيب هيجت لي عمة	سفوحا وأسباب الكاء التذكر
بلى ، إن فقسدان الحبيب بليّة	وكم من كريم يئس ثم يهر
رأيت خيار المؤمنين تساردوا	شعوب وغلفا بعدهم يتأخر
فلا يمدن الله قسنت تهابوا	مؤنة مهم ذو الحاحين جعفر
وزهد وعبد الله حين تهابوا	حيما وأسباب البية تحطر
عداة مصوا بالمؤمنين يقودهم	إلى الموت يميمون النفية أزهر

أمر كصوء البدر من آل هاشم
فطاعن حتى صال عو موسد
فصار مع المستشهدين ثوابه
وكا نرى في جعفر من محمد
فما رآل في الإسلام من آل هاشم
هم جيل الإسلام والناس حولهم
بالبيل^(١) مهم جعفر وابن أمه
وحمة والمبـاس مهم ومهم
هم نمرح اللأواء^(٥) في كل مأرق
أبى إذا صبح الظلامه مجمر^(١)
معترك فيه قسا مسكر
حان ومكتف الحدائق أخضر
وفاء وأمرأ حازما حين بأمر
دعائهم عز لا يزلن ومفخر
رصام^(٢) إلى طود^(٣) يروق ويقهر
عل ومنهم أحمد المتـحـر
عقيل وماء العود من حيث يعصر
عماس^(٦) إذا ما صافق بالناس مصلر

وقعد أناس من الجيش في بيوتهم فما يخرجون ، وقد قطعت أم سلمة
أم المؤمنين إلى غياث سلمة بن هشام بن العاص عن مسجد الرسول
فقالته لامراته :

— ما لي لا أرى سلمة يحصر الصلاة مع رسول الله — ﷺ — ومع
المسلمين ؟

قالت والأسى في نبرات صوتها :

— ما يستطيع أن يخرج ، كلما حرج صاح به الناس يا هراير فررتم

(١) المعسر : المقدم الجسور .

(٢) الرصام : الحجارة تترأكم بعضها فوق بعض .

(٣) الطود : الجبل .

(٤) البهليل : جمع معرده بهلول وهو السيد العظيم

(٥) اللأواء : الشدة .

(٦) عماس . المظلم يريد ظلامه من كثرة البقع المنار وقت المهر

في سيل الله ! حتى قعد في بيته فما يجرح .
وراح قيس بن المسحر اليعمرى يعتذر مما صنع يوم مؤنة وصنع
الناس :

هو الله لا تفك نفسي نومى على موقفى والخيلى فابعة قل
وقفت بها لا مستجرا فامدا ولا مانعا من كان حم له القتل
على أسى آسيت نفسى بحالد ألا حالد فى القوم ليس له مثل
وجاشت إلى النفس من عو جعفر مؤنة إذ لا يمع التابل البل
وصم إليها حجزتهم^(١) كلهما مهاجرة لا مشركون ولا عزل

(٣٢)

كان النسي — عليه السلام — إذا حصص قام فأطال القيام فكان يشق عليه
قيامه؛ فأتى بخدع عملة فحفر له وأقيم إلى جسده قائما نفسى — عليه السلام ،
فكان السى عليه السلام إذا حطط فطال القيام عليه استد فأتكأ عليه ،
وكان نعيم ابدارى يرى رسول الله — عليه السلام — يشتد عليه وجمع كان يجده
في فحذه فقال له تميم :

— يا رسول الله ألا أصنع لك مبرا تقوم عليه فإبه هون عليك إذا
قمت وإذا قعدت ؟

— وكيف المنبر ؟

— أنا يا رسول الله أصنعه لك .

فحرج إلى العابة فقطع منها خشبات من أثل^(٢) فعمل له درجتين غير

(١) حمزة الإرار .

(٢) الأثل : شجر عظيم لا ثمر له .

المنعقد ، فحول رسول الله ﷺ — عن الخشبة التي كان يستند إليها إذا
خطب

وحاء الناس إلى المسجد بطرون إلى المنبر ويصلون خفف النبي عليه
السلام ، ودخل ثابت بن قيس المسجد وأراد أن يجلس فلم يفسح له
رجل ممن كانوا ينتظرون الصلاة . فقال له في رواية :

— يا بن فلانة .

فقال رسول الله ﷺ :

— من الداكر فلانة ؟

فقام ثابت فقال :

— أنا يا رسول الله .

— انظر في وجه القوم .

مظفر فقال :

— ما رأيت يا ثابت ؟

رأيت أبيض وأحمر وأسود .

— فابك لا تمصلهم إلا في الدين وانتقوى .

فأمر الله تعالى ﷻ : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم
شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم
خبير (١) .

وكان ثابت بن قيس في أذنه قر ، وكان جهورى الصوت ، وكان
إذا كلم إنسانا جهر صوته ، فرمما كان يكلم رسول الله ﷺ —

(١) المحررات ١٣ .

فينادى بصوته ، فأمر الله تعالى . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْعَوُوا
أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ
أَنْ تَحْطُ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ أَوْصَاتَهُمْ عِدَّةَ
رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَعْرَةٌ وَأُخْرَى
عَظِيمَةٌ ۝ (١) ۚ

فَأَيُّ أَبِي بَكْرٍ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لَا يَكْلِمَ رَسُولَ اللَّهِ — ﷺ — إِلَّا كَأَخِي
السَّرَارِ .

وقد وهبى تميم على النسي — ﷺ — فدخلوا المسجد ، فنادوا النسي
— ﷺ — مِنْ وَرَاءِ الْحِمَارَاتِ :

— يَا مُحَمَّدُ .. يَا مُحَمَّدُ .. يَا مُحَمَّدُ احْرَحْ إِلَيْهَا ، فَإِنَّ مَدْحَارِينَ وَإِنْ
ذَمًّا شَيْئًا .

فسمعهم النسي — ﷺ . فخرج عليهم وهو يقول :
— إِنَّمَا ذَلِكَ اللَّهُ الَّذِي مَدَحَهُ رِينَ وَدَمَهُ شَيْئًا .

وكان فيهم الأقرع بن حابس وعبيدة بن حصص والزبيرقان بن بدر
وقيس بن عاصم أول من وأدى في العرب فقالوا :

— نحن ناس من بني تميم حشا بشاعرنا وحطيبا بشاعرك وبعاخرك .
— ما بالشعر بعثت ولا بالمحار أمرت ولكن هاتوا .

فقال الزبيرقان بن بدر لشاب من شابههم :
— قم فاذكر فضلك وفضل قومك .

فقام فقال :

— الحمد لله الذى حملنا حير خلقه وأتانا أموالا نفعل فيها ما نشاء ،
فحس من حير أهل الأرض ومن أكثرهم عدة ومالا وسلاحا ، فمن أنكر
عليها قولنا فليأت بقول هو أحسن من قولنا وفعال هى حير من فعالا .
كان بنو تميم على دين الجوس وكانوا على صلوات طيبة بدولة الفرس
فقطوا أنهم أرق من سائر العرب ، وكانوا يعتقدون أنهم حير أهل الأرض
فقال رسول الله — ﷺ — لثابت بن قيس :
— قم فأجب .

فقام فقال :

— الحمد لله أحمده وأستعيه وأؤمن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا
إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، دعا
المهاجرين والأنصار من بنى عمه أحسن الناس وحوها وأعظمهم
أحلاما^(١) فأجابوا ، فالحمد لله الذى جعلناه أنصاره وورراء رسوله
وعرا لديه ، نحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فمن قاهها
مع ما نفسه وماله ، ومن أبأها قتلاه وكان رعمه من الله تعالى عليها
هيا ، أقول قولى هذا وأستعفر الله للمؤمنين والمؤمنات .

فقال البررقان بن بدر لشاب من شبانهم :

— قم يا فلان فقل أبيتنا تذكر فيها فضلك وفصل قومك ، فقام
الشاب فقال :

عن الكرام هلا حى بما حرمنا فى العروس وفيما يقسم الربع^(٢)

(١) أحلاما : عقولا .

(٢) الربع : ربع العيمة كان رئيس القوم يأخذه .

ونطعم الناس عند القحط كهم
 من السديف^(١) إذا لم يؤس القزع^(٢)
 إذا أيننا فلا يأتى لنا أحد
 إننا كذلك عند الفحر نرتفع
 فأرسل رسول الله — ﷺ — إلى حسان بن ثابت ، فاطلق إليه
 الرسول فقال :
 — وما يريد منى وقد كنت عنده ؟
 — جاءت بهي تميم بشاعرهم وخطيبهم ، فأمر رسول الله — ﷺ —
 ثابت بن قيس فأجابهم وتكلم شاعرهم فأرسل إليك نجيده .
 فحاء حسان فأمره رسول الله — ﷺ — أن يجيبه فقال حسان :
 نصرنا رسول الله والدين عنوة
 على رغنم سار من معد وحاضر
 أنسا نخوض الموت في حومة الوعى
 إذا طاب ورد الموت بين المعسكر
 ونضرب هام السدارعين ونتمى
 إلى حسب من جرم غسان قاهر
 فولأ حياء الله فأننا تكرما
 على الناس بالحقين هل من منافر
 فأحيأنا من خير من وطىء الخصى
 وأمواتنا من خير أهل المقابر

(١) السديف : السحاب الخلوب .

(٢) القزع : صغار الإبل ، والسحاب .

فقام الأقرع بن حابس فقال :

— إني والله لقد حثت لأمر ما جاء له هؤلاء وقد قلت شعرا فاسمعه :

— هات .

فقال :

أتيتك كيما يعرف الناس فضلنا إذا هانرونا عند ذكر المكارم

وإننا نعوس الناس من كل معشر وأن ليس في أرض الحجاز كوارم

وإن لنا المرباع في كل غارة تكون بمحد أو بأرض التهام^(١)

فقال رسول الله — ﷺ :

— قم يا حسان فأجب .

فقال :

بى دارم لا تفخروا إن فخركم

يعود وبالا عند ذكر المكارم

هبلتم^(٢) عليا تفخرون وأنتم

لنا حول^(٣) من بين طفر^(٤) وحادم

وأفضل ما نلتم من احمد والعل

ردافتنا من بعد ذكر الأكارم

فإن كنتم جئتم لحقن دماؤكم

وأموالكم أن تقسموا في المقاسم

(١) الجدد : المرتفع من الأرض ، والتهام المنخفضات .

(٢) هبلتم : هجمتم . (٣) حول : الخدم .

(٤) الطفر : المرأة تحض ولد غيرها والرجل أيضا .

فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا
ولا تفخبروا عند النسي بدارم
ولا ورب البوت مالت أكتفا
على هامكم^(١) بالمرهفات^(٢) الصوارم

وأُنزل الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان حيرا لهم والله عفور رحيم﴾^(٣) .

فقام الأقرع بن حابس فقال :

— إن عمدا المولى ، إنه والله ما أدري ما هذا الأمر ، تكلم حطيسا فكان حطيسهم أحسن قولا ، وتكلم شاعرا فكان شاعرهم أشعر .

كان الأقرع بن حابس يصفى إلى القرآن وكان يرنو إلى نور الإسلام في إعجاب ، ولولا الكبر الذى كان في قلبه لأسلم وكان من السابقين في الإسلام ، فلما أراد الله له الهداية جاء إلى رسول الله عليه السلام ، وهو يتظاهر بأنه ما جاء إلا ليفاغره وإن كانت أنوار اليقين قد أصابت مؤاده :

ودنا من النبى — ﷺ — فقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله .

فقال النبى — ﷺ :

— ما ضرك ما كان قبل هذا .

ثم أعطاهم رسول الله — ﷺ — وكساهم وقد عادوا إلى أهلهم بوجوه تنالق بالأنوار .

(٢) المرهفات : السيوف .

(١) الهام : الرعوس .

(٣) الحجرات : ٤ — ٥ .

راح الروم يشجعون القبائل العربية اقرية من الشام على عزو المسلمين بعد ما رأوا صلابة المسلمين في مؤنة ، وكان هدف الروم إضعاف القوة الحديدية التي بدأت تظهر في شبه جزيرة العرب وترحف إلى ناحية الشام وعهد حدود الدولة الرومانية التي أهكتها حروبها مع الفرس ، وقد أخذ الروم يعرون قصاعة على عمرو المدينة مستهدفين توهين العرب جميعا مشركين ومسلمين حتى ينعموا براحة تمكنهم من التقاط أعاسهم والخروج من الأزمة المالية الطاحنة التي جلستها الحروب المستمرة بين الإمبراطوريتين العظيمتين المتنافستين على سيادة العالم .

وبلغ رسول الله ﷺ — أن حمرا من قصاعة قد تجمعوا يريدون المدينة ، فدعا رسول الله ﷺ — عمرو بن العاص وذلك بعد إسلامه بسنة وعقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء ، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرسا وأمره أن يستعين بمير به من بني وعذرة وبلقين ، فسار الليل وكمن النهار . فلما بلغ ملق قول بالترحاب فحدثه لأبيه العاص بن وائل كانت بلوية ، وقد سرهم أن رسول الله عليه السلام قد أمر ابن أحتهم فأمدوه برجال . وصدقت فحاسة رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — لما أراد أن يتألمهم بعمرو

« انطلق عمرو بسم الليل ويكمن النهار حتى حلف وادى القرى

وراءه وأشرف على دات السلاسل وسبها وبين المدينة عشرة أيام . فمعا قرب من القوم بلغه أن لهم جمعا كثيرا فلم يشأ أن يعامر وأن يدفعه الحماس إلى أن يتخوض معركة قد تكون عاقبتها وخيمة على المسلمين ، فعث رافع بن كعب الجهني إلى رسول الله — ﷺ — يلتبس منه المدد ، وبقي عمرو بن العاص يصلي بأصحابه ينتظر مدد الرسول عليه السلام ، فعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين وعقد له لواء وبعث معه سراة^(١) هاجرين والأنصار وفيهم أبو بكر وعمر وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعا ولا يتخلفا ، فلحق بعمرو وأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس فقال عمرو :

— إنما قدمت على مدد وأنا الأمير .

وعند ذلك قال جمع من المهاجرين الذين مع أبي عبيدة لعمرو :

— أنت أمير أصحابك وهو أمير أصحابه .

فقال عمرو :

— أنتم مدد لنا .

فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف قال :

— لتعلم يا عمرو أن آخر شيء عهد إلي رسول الله — ﷺ — أن

قال : إن قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلما ، وإنك والله إن عصيتي لأطيعك .

— فإني الأمير عليك .

— كان أبو عبيدة حسن الخلق لس العريكة^(٢) فقال .

(١) السراة : العظماء .

(٢) عريكة . النفس ، وليس العريكة . سلس الخلق

— دونك .

وصل عمرو بن العاص بالناس وصل حنيفة أبو عبيدة بن الجراح وأبو بكر الصديق والقاروق عمرو بن الخطاب وسراة القوم من المهاجرين والأنصار ، فقد علمهم رسول الله — ﷺ — الطاعة ولو أمر عليهم عدو حيشى .

كان الرد شديدا ، ولما جن الليل اشتدت برودة الجو فأراد الناس أن يوقدوا نارا ليصطلوا عليها من الرد فسمعهم عمرو وقال :

— كل من أوقد نارا لأقذفه فيها .

عشق عليهم ذلك لما فيه من شدة الرد ، فكلمه بعض سراة المهاجرين في ذلك فعاطفه عمرو في القول وقال له

— قد أمرت أن تسمع لى وتطيع .

— نعم .

— فافعل .

ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب عصب وهم أن يأتيه فمعه أبو بكر وقال :

— إن رسول الله لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب .

وحلس الناس في المعسكر يرتحمون من البرد ، وشرذ عمرو بن العاص يفكر فإذا به يرى رسول الله عليه السلام يطلبه ، فلما رأى رسول الله عليه السلام أمره أن يأخذ ثيابه وسلاحه ، ودار في نفسه الحوار الذى كان بينه وبين النبي صلوات الله وسلامه عليه .

— يا عمرو إني أرهد أن أبعثك على جيش فيضمتك الله ويسلمك .

— إني لم أسلم رغبة في المال .

— نعم المال الصالح للرجل الصالح .

وكانت قضاة قد جمعت جموعا هائلة لندهم أطراف المدينة ، وتأهبوا للخروج دون أن تشعر أن على مقربة منهم قوة من المسلمين ترقب فرصتها لتتقض عليهم . وفي عماية الصبح أمر عمرو بن العاص بالهجوم فانقض المسلمون على أعدائهم انقضاض السور ، وارتفع هتافهم يجلجل في المكان ويملج القلوب من الصدور .

— أمت . أمت يا منصور .

ومصت الرماح إلى الأفئدة ، وانهالت صريرات السيوف على الرقاب ، وارتفع صهيل الخيول حتى كاد يغطي على أبن الرجال ، وثار النقع فاحتلط بأنفاس الناس ، وحمى وطيس^(١) القتال ، ومشى الرجال إلى الرجال وقد كسروا عن الأنياب ، وتألفت السيوف القواطع وانعكست أشعة الشمس على الدروع والخوذات والصحائف والسان فبدت كأنها شموس لا تعرف الاستقرار ، وشحرت الرماح فدخل بعضها على بعض ، وخضبت الرمال بالدماء وتبعثرت الأحساد هنا وهناك ، وحامت طيور السماء حول حومة الموت ترقب انحلاء المعركة الرهية التي لا هودة فيها لتتقض على الأحداث قبل أن تأتئ السباع . وراح أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وعمرو وصناديد^(٢) المسلمين يضربون صربا رصيا كحر النار مشتعل ، واستمروا يظليون عدوهم لله

(١) الوطيس : التنور ، وحمى الوطيس . كناية عن شدة الحرب .

(٢) الصناديد : جمع مفردة صديد وهو الشجاع في الحرب

ويستظرون نصر الله يمشون كلهم وقد وطئوا أنفسهم على الموت أو النصر
تعوح أسيافهم في الضرب أحيانا وتعادل . وراع قضاة سرعة الخيول
وامتسبال القوم والزحف القاتل الذي دهمهم والقتل الذي استشرى
فيهم فنفروا وولوا الأدبار ، وأراد المسلمون أن يتبعوهم فسمعهم عمرو
بن العاص وهم كارهون .

وحاء النيل وهبت الريح باردة فأحس المسلمون كأن دماءهم
ستجمد في عروقهم ، وأرادوا أن يوقدوا نارا ليصطلوا من الرد فسمعهم
وهم يعجبون فقد انتهت المعركة ولكن القائد قد أمرهم فحق عليهم
الطاعة وإن شق عليهم ذلك من شدة الرد .

واحتلم عمرو وكانت تلك الليلة شديدة الرد جدا فقال لأصحابه :
— ما ترون قد والله احتلمت فإن اعتسلت مت .

فدعا بماء فغسل فرجه وتوضأ وتيمم ثم قام وصلى بالناس ولم يعترض
كبار الصحابة ، وصلوا خلفه ، ولم يختلفوا كما اختلف اليهود فقد علمهم
— صلوات الله وسلامه عليه — أن الدين يسر وأن التطلع في الدين
مفسدة ، ثم بعث عمرو عوف بن مالك ميسرا للبي — ^{ملائكة} ~~عليه~~ —
بقدومهم وسلامتهم ، فحاءه وهو يصلي في بيته فقال :

— السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته .

— وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . عوف بن مالك ؟

— نعم . بأي أنت وأمي يا رسول الله .

— أخبرني .

فأحمره بما كان من مسيرهم وما كان بين أبي عبيدة بن الجراح وعمرو
ابن العاص ومطاعة أبي عبيدة لعمرو . فقال رسول الله — ^{صلى الله عليه وسلم} —

— يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح —
وأحمره بمح عمرو المسلمين من اتباع العدو ، ومن إيقاد النار ، ومن
صلاته بأصحابه وهو جنب .

وقدم الجيش المظفر فخرج الناس لاستقبال الأحبة العائدين بالبصر ،
وخرج رسول الله ﷺ — لاستقبال وزيره الصديق والفاروق وعنه
بسلامة العودة ، وكان لقاء وكان عناق وكانت دموع ، ولما استقر بهم
المقام كلم عليه السلام عمرو فيما فعل فقال :

— كرهت أن يوقدوا ناراً فبرى عندهم قتلهم ، وكرهت أن
يتعقبوهم فيكون لهم مدد فيعطفون عليهم .

فحمد رسول الله ﷺ — أمره ، وسأله عن صلاته قال :

— يا عمرو أوصليت بأصحابك وأنت جنب ؟

— والذي بعثك بالحق إنى لو اغتسلت لمت ، لم أجد برذا قط مثله ،
وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ^(١) .

فضحك — ﷺ ، وكان على الرغم من أحزانه الدائمة يضحك إذا
ما سمع أو رأى ما يوجب الضحك ، وكان ضحكه عليه السلام تسماً ،
فقد حرح نعيماً وهو من أهل بدر مع أنى بكر الصديق إلى بصرى وكان
في الحملة سويط وهو بدرى أيضاً ، وكان سويط على الزاد فحماه
نعيماً فقال له :

— أطمعنى .

— لا حتى يأتى أبو بكر .

(١) البقرة ١٩٥ .

— والله لأغيظنك .

وحاء إلى الناس قد جلسوا بعيرا وأبقارا فقال :

— ابتاعوا مني علاما عربيا فارها إلا أنه دعاء له لسان ، لعله يقول
إنه حر ، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه لا تفسدوا علىّ علامي .

— بل يشتاعه منك بعشر قلائص^(١) .

فاقبل بها يسرقها وأقبل بالقوم حتى عفلها ثم قال :

— دو بكم ! هذا هو .

وذهبوا إلى سويط فقالوا :

— قد اشتريناك .

— هو كادب ، أنا رجل حر .

— قد أحبرنا خبرك .

ووصعوا في عنقه حبالا وذهبوا به ، فحاء أبو بكر فأحمر بذلك
فذهب هو وأصحابه فردوا القلائص على أربابها وأحسوه ، وأحمر
السي — عليه السلام — بالقصة فضحك منها حولا .

وأهدى نعيمان إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حرة غسل اشتراها من
أعرابي ، وأتى بالأعرابي إلى باب السي — عليه السلام — نادى الأعرابي :

— ألا أعطى ثمن غسل ؟

فقال السي — عليه السلام — :

— إحدى هات نعيمان .

(١) المعنوس : من الإبل : الشابة

وجيء بنعيمان فسأله عليه السلام :

— لم فعلت هذا ؟

— أردت برك يا رسول الله ولم يكن معي شيء .

فتسم النبي — ﷺ — وأعطى الأعرابي حقه .

كان عليه السلام يمارح الصغير ويلعب الوليد ويمازح العجور ولا يقول إلا حقا ، ويقول : « روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا كُت عَميت » . وكان يصحوك الس بسم الشيات . وقيل : « المراح هُجبة » فقيل : « بل سئة لقوله عبه الصلاة والسلام . إني لأمزح ولا أقول إلا الحق » .

(٣٤)

أظهر حتى جبهة العداوة للمسلمين فعث رسول الله — ﷺ — أبا عبيدة بن الجراح في شهر رجب سنة ثمان من الهجرة في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار وفيهم عمر بن الخطاب إلى ذلك الحى بالقبيلة مما يلي ساحل البحر ، وبها وبين المدينة حمير . ليل ، ورودهم عليه السلام حرايا من غمر فجعل أبو عبيدة يقوتهم إياه .

ومرت أيام وليال وهم في طريقهم إلى ساحل البحر الأحمر وقد كاد التمر يفد ، فراخوا يعلون النفس أنهم سيدهمون ذلك الحى ويضمون منه ما يطعمون ، ولكمهم لم يعدوا أحدا ولم يلقوا كيدا فراح أبو عبيدة يعد لهم تمر عدا حتى كان يعطى الواحد تمره كل يوم .

ولعلوا ساحل البحر واستقروا هناك يرقون فرصهم ، وراح

أبو عبيدة يعطى عمر والزبير بن العوام وعباده بن الصامت والذين معه ثمرة ، فقصت ثمرة عن رجل فوجدوا فقدوا ذلك اليوم .

وراح الزبير بن العوام يمتص الثمرة كما يمتص الصبي ثدي أمه ثم يشرب عليها من الماء فتكفيه يومه إلى الليل ، وأخذ الرجال يصرون الثمر بعد أن مصوه في ثيابهم في حرص شديد فلم يكن في المكان غير ماء البحر والسماء والرمال والخبط (ورق شجر السمر) .

وتقضت أيام ونفذ الثمر فلم يكن أمامهم إلا الخبط فجعلوا يبلونه بالماء ويأكلونه حتى تقرحت أشداقهم ، وتدد قيس بن سعد بن عبادة فإذا به يذكر دارهم دار الخود ، إنه يرى بعين حياله رجلا واقفا على أطم يبادى :

— من يريد الشحم والنعم فعليه بدار أبي سعد دليم .

ورأى أصحاب الصفة إذا أمسوا انطلق الرجل بالواحد والرجل بالآخرين والرجل بالجماعة وأما أبوه سعد فيسطق بالثأين . ورأى رسول الله ﷺ — يزورهم في منزلهم فيقول :

— السلام عليكم ورحمة الله .

ثم قال :

— اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة .

إنه وهو من بيت حود لا يستطيع أن يرى رفاقه يموتون من الجوع وهو يظفر ، وقد ثار الدم في عروقه لما صك أذنيه قول قائل منهم :

— والله لو لقينا عدوا ما ما حركة إليه .

فلما رأى رجلا من أهل الساحل قام فقال :

— من يشتري ما تمرا أوفيه له في المدينة بجر يوفيه إني ههنا ؟

فقال له رجل من أهل الساحل :

— أنا أفعل ، ولكن والله ما أعرفك فمن أنت ؟

— أنا قيس بن سعد بن عبادة .

— ما أعرفنى بسعد ، إن بينى وبين سعد حلة سيد أهل يثرب .

فاشترى خمس جرائر كل جزور بوسق من تمر ، فقال الرجل :

— أشهد لى .

— أشهد من تحب .

فأشهد نورا من المهاجرين والأنصار ، وامتنع عمر بن الخطاب من أن يشهد وقال :

— هذا يدان ولا مال له ، إنما المال لأبيه .

فقال الرجل :

— والله ما كان سعد ليحنى بآبائه .

كان الرجل واثقا من أن سعد بن عبادة سوف يوفى عن ابنه ما التزمه ، فشب بين قيس وعمر كلام حتى أغلظ قيس الكلام . وأحد قيس الحر فحررها واحدة فالتفت الرجال يأكلون وقد تهلبت أسارىهم فقد انقضت عليهم أيام كاد الجوع أن يحرط فيها أحشاءهم وتمر سعد من الجرر ثلاثا في ثلاثة أيام ، وأراد أن يحررهم في اليوم الرابع فبأه أبو عبدة وقال :

— عرمت عليك ألا تحرر ، تريد أن تحرر ذمتك ولا مال لك ؟

فقال قيس في دهش :

— أترى أبا ثابت يقصى ديون الناس ويقطعهم في الحاجة ولا يقصى

دينا استدته لقوم محابدين في سبيل الله !

وساروا على ساحل البحر وإذا بشيء كهيئة الكتيب الصحم ،
فهرعوا إليه ، فإذا به دابة من البحر فراح أبو عبيدة يفحص عنها فقال :
— ميتة .

— اضطربتم فكلوا .

فأقاموا عليها وهم ثلاثمائة ، ودخل حابر بن عبد الله وأربعة من رفاقه
عنها فما رأهم أحد وراحوا يفترون بها الدهر بالقلال ، ثم انطلقوا
عائدين إلى المدينة ، فلما قدم قيس قال له سعد بن عباد :
— ما صنعت في مجاعة القوم ؟

— نحرث .

— أصبت . ثم ماذا ؟

— نحرث .

— أصبت . ثم ماذا ؟

— نحرث .

— أصبت . ثم ماذا ؟

— نهيت .

— ومن نهاك ؟

— أمرى أبو عبيدة .

فقال أبو ثابت في غضب :

— ولم ؟

— رعم أنه لا مال لي إنما المال لأبيك ، فقلت له أنى يفصى عن
الأبعاد ويحمل الكل ويطعم في الشحاعة ولا يصنع هذا لي ؟ فلان لمواصني
فأنى عليه عمر بن الخطاب إلا التصميم على الميع .

فقال سعد لولده قيس :

— ذاك أربع حوائط (بساطين) أداها ما يتحصل منه خمسون
وسقا .

ووفى قيس الرجل صاحب الحرر وأعطاه ما يركبه وكساه .
وراح الناس يتحدثون عن الدابة الهائلة التي ألقى بها البحر وقالوا إن
أبا عبادة نصب لهم ضلعا من أضلاعها ومر تحته قيس بن سعد بن عبادة
وكان أطول رجل في القوم راكبا على أطول بعير لم يطاقطىء رأسه .
وقالوا إن أبا عبيدة أخذ معهم ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم في وقت عيناها
فأكلوا منها أياما .

وبلع السبي — عليه السلام — ما فعل قيس فقال :

— إنه في بيت جود ، إن الخود لمن شيمة أهل ذلك البيت

وحاء سعد بن عبادة إلى السبي — عليه السلام — فقال :

— من عديري من ابن الخطاب يحل على أبي !

وأخبروا رسول الله — عليه السلام — حير الدابة التي ألقى بها البحر وسألوه

ما صنعوا في ذلك من أكلهم إياه ، فقال عليه السلام :

— رزق رزقكم الله أباه .

كانت عطفان مستمرة في عداوة المسلمين وما كانت تترك فرصة تستطيع أن تال فيها مهم إلا انتهرتها . وقد بلغ رسول الله ﷺ — أن رجلا يقال له رفاعه بن قيس في جمع عظيم نزل بالعابة يريد حرب رسول الله ﷺ ، فأمر رسول الله ﷺ — أبا قتادة أن يتجهز للخروج ليحيا ذلك الجمع قبل أن يتحركوا إلى المدينة .

وكان عبد الله بن أبي حذرد السلمي تزوج امرأة من قومه ، فجاء رسول الله ﷺ — يستعيه على ذلك فقال عليه السلام :

— كم أصدقت ؟

— مائتي درهم .

— سبحان الله لو كنتم تأخذون الدراهم بطن وادبكم هذا ما ردتم . والله ما عندي ما أعيبك ولكن قد جمعت أن أبعث أبا قتادة في أربعة عشر رجلا في سرية فهل لك أن تحرر فيها فإن أرحو أن يملك الله مهر امرأتك .

— نعم .

وبعث عليه السلام أبا قتادة في خمسة عشر رجلا إلى عطفان وخرج معه عبد الله بن أبي حذرد السلمي ، ودفع له ولرجلين من المسلمين مائة مسة وقال :

— تملعوا عليها واعتقوها .

فركبها أحدهم فوالله ما قامت به ضعفا حتى ضربت ، وخرجت سرية أى قتادة ومعهم سلاحهم السبل والسيوف يسرون الليل ويكمون النهار حتى جاءوا القوم النزول على الماء ، فلما ذهب فحمة العشاء حطهم أبو قتادة وأوصاهم بتقوى الله وألف بين كل رجلين وقال :

— لا يمارق كل رجل رميله حتى يقفل (يرجع) ، ولا يحىء إلى الرجل فأسأله عن صاحبه فيقول لى لا علم لى به . وإذا كثرت فكبروا وإذا حملت فاحملوا ولا تمنعوا فى الطلب .

وكان عبد الله بن أبى حذرر فى ناحية وصاحبه فى ناحية ينتظران عرة القوم إلا ورعاة بن قيس اجمع للقوم خرج فى طلب راع لهم فأبطأ عليهم وتحوفوا عليه ، فقال له بصر من قومه :

— نحن نكفيك ولا تذهب أنت .

فقال فى استحقاف :

— والله لا يذهب إلا أنا .

— فنحن معك .

— والله لا يتبعنى أحد منكم .

فخرج حتى مر بأبى حذرر ، فلما أمكه نفحه بسهم فوصعه فى فؤاده فما تكلم ، فوثب عليه واحترز رأسه .

وأحاط المسلمون بالقوم فحرد أبو قتادة سيفه وكبر ، وحرد المسلمون سيوفهم وكبروا معه .

وقتل رجال من القوم وإذا فيهم رجل طويل فأقبل على أبى حذرر فقال له متبكما به :

— يا مسلم هلم إلى الحق .

فقال إليه أبو حنيفة فذهب أمامه ، وصار يقل عليه بوجهه مرة ويدبر
عنه بوجهه مرة أخرى فراح يتبعه ، فقال له صاحبه :
— لا تتبعه فقد ساء أمرنا أن نمن في الطلب .
وكان الرجل الطويل يحاول أن يستدرج أبا حنيفة بعيدا ، فلما سمع
تحذير صاحبه قال في حنق :

— إن صاحبكم لدو مكيدة ، وإن أمره هو الأمر .
وأدركه أبو حنيفة فمراه بسهم فقتله وأخذ سيمه ، وكان المسلمون
يخوضون عمار المعركة فقتلوا من أشرف لعطمان واستاقوا . لإبل
والعم . فكانت الإبل مائة بعير والعم ألقى شاة وسبوا سبايا كثيرة .
وعاد أبو حنيفة إلى صاحبه فأخبره صاحبه أنهم جمعوا العائم وأن أبا
قتادة تعيط عليهما . فجاء أبا قتادة فلامه فأخبره أخيه ، ثم قسمت العائم
فأصاب كل رجل بعد إحراج الخمس اثني عشر بعيرا وعدل البعير
بعشرين من العم ، ووقع في سهم أبا قتادة جارية حسناء وصبيته تأخذ
بالألياب .

وصافوا العم وحملوا النساء وحفروا السيوف معلقة بالأقناب ، ثم لما
أصبحوا رأى أبو حنيفة في السبي امرأة كأنها ظبي تكثر الالتفتت خلفها
وتبكي ، فقال لها :

— أي شيء تنظرين ؟
— والله أنظر إلى رجل لئن كان حيا ليستنقدا منكم .
موقع في رمس أبا حنيفة أنه الذي قتله فقال لها .
— والله لقد قتله وهذا والله سيمه معق ياقتب .
فقدت والدموع في عيها كأنما نزلت من .

— فأين غمده ؟

— هذا غمد سيفه .

فلما رآته بهكت أحر بكاء .

وعاد أبو قتادة وفي ركابه الحساء الوضيعة . ودفع إلى رسول الله —
ﷺ خمس العيمة ليوزعه على الفقراء والمساكين ويملك به رقاب
العبيد ويؤلف به قلوب الناس ويسد به دين المديين .

وحاء رحل إلى رسول الله — ﷺ — وقال :

— يا رسول الله إن أبا قتادة قد أصاب حارية وصيعة وقد كنت
وعدتني حارية من أول فيء يفيء الله به عليك .

فأرسل رسول الله — ﷺ — إلى أبي قتادة قال :

— هب لي الجارية .

موهبا له . ثم وهبا — ﷺ — لذلك الرجل الذي وعده بخارية من
أول فيء يفيء الله به .

(٣٦)

لما كان صلح الحديبية بين رسول الله — ﷺ — وبين قريش كان فيه
أن من أحب أن يدخل في عقد محمد — ﷺ — وعهده فليدخل ، ومن
أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه فدخلت بنو بكر
في عهد قريش ودحت حراقة في عهد رسول الله — ﷺ .

وكان بنو بكر وحراقة دماء ، وحجز الإسلام بينهما لتشاغل
الناس به وهم على ما هم عليه من العداوة . وكانت حراقة حفياء
(صلح الحديبية)

عبد المطلب وكان هواهم مع سى هاشم . فإنه لما مات المطلب وثب
بوفل بن عبد مناف على ساحات وأفية كانت لعبد المطلب واعتصبه
إياها ، فاضطرب عبد المطلب لذلك واستهض قومه فلم يهض معه أحد
منهم وقالوا له :

— لا تدخل بيتك وبين عمك .

وكتب إلى أحواله بنى الحجار فحاء منهم سبعون راكبا فأتوا نوفلا
وقالوا له :

— ورب البنية لتردن على ابن أختنا ما أحدثت وإلا ملأنا منك
السيف .

فردده ثم حالف عبد المطلب حراة بعد أن حالف بوفل بن عبد مناف
سى أحيه عد شمس . ومد ذلك الوقت وحراة تميل إلى بنى هاشم
وكان هوى حراة مسلمهم وكافرهم مع محمد — ﷺ .

وقد قرأ على رسول الله — ﷺ — أنى بن كعب كتاب حده عبد
المطلب حراة بالحديبية وهو : « باسمك اللهم ، هذا حلف عبد المطلب
إس هاشم لحراة ، إذا قدم عليه سرواتهم ^(١) وأهل الرأى مهم عائهم يقر
بما قاصى عليه شاهدهم ، أن بسا ويحكم عهد الله وميثاقه وما لا يسى
أندا ، اليد واحدة والنصر واحد ما أشرق ثبير ^(٢) وثبت حراء مكانه ،
وما بل بحر صوفة » .

فقال رسول الله — ﷺ :

— ما أعرفنى بتحكم وأنتم على ما أسلفتم عليه من الخيف ؟

(٢) ثبير وحراء : اسماء حليين

(١) سرواتهم عظمائهم

فلما كانت الهدمة التي وقعت في صلح الحديبية اغتصمها أبو بكر فراح شخص منهم يهجو رسول الله ﷺ — وصار ينعى به ، فسمعه غلام من حراة قصره فشحه فثار الشر بين الخير مما كان بينهم من عداوة فطبت أبو بكر من أشراف قريش أن يعيهم بالسلاح والرجال على حراة فأمدوهم بذلك ، فجاءوا حراة ليلا بغتة وهم آمنون على ماء لهم يقال له الوثير فقتلوا منهم عشرين ، وقاتل معهم جمع من قريش مستحفا منهم صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى وعكرمة بن أبي جهل وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو ، ولا رآلوا بهم إلى أن أدخلوهم دار بديل بن ورقاء الخزاعي بمكة ولم يشاوروا في ذلك أبا سفيان ، وطوا أنهم لم يعرفوا وأن هذا لا يطلع رسول الله ﷺ —

فلما ناصرت قريش بني بكر على خراة وبقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ — من العهد والميثاق بدموا . وجاء الخارث بن هشام إلى أبي سفيان وأحبره بما فعل القوم فقال :

— هذا أمر لم أشهده ولم أعب عنه وإبه لشر ، والله ليعرونا محمد ، ولقد حدثني هذنت عتبة أنها رأت رؤيا كرهتها ، رأت دما أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالحنندمة .

فكره القوم ذلك وخرج عمرو بن سالم الخزاعي سيد حراة في أربعين راكبا من خراة فيهم بديل بن ورقاء الخزاعي قاصدين اندية . ودخل رسول الله ﷺ — صبيحة الواقعة على عائشة أم المؤمنين وقال لها :

— حدث في خراة حدث .

— يا رسول الله أنرى قرشا يحترقون على نقص العهد الذي بينك

وبينهم ؟

— يقضون العهد لأمر يريده الله .

— خير .

— حير .

وبات رسول الله — ﷺ — عند ميمونة فقام ليتوضأ للصلاة
فسمعتة يقول :

— ليك ! ليك ! ليك ! نصرت نصرت نصرت .

فلما خرج قالت :

— يا رسول الله سمعتك تقول ليك ليك ليك ! نصرت نصرت
نصرت ! كأنك تكلم إنسانا فهل كان معك أحد ؟ .

— هذا راجر بنى كعب يرعم أن قريشا أعانت عليهم بكر بن وائل .
ومضت ثلاثة أيام وصلى رسول الله — ﷺ — الصبح وحلس في
المسجد بين الناس ، فإذا بوفد حراقة قد قدم إلى المدينة ودخل المسجد
ووقف بديل بن ورقاء وقال :

يا رب إني ناشد محمدا حلف أيما وأيه الأتلدا (١)
إن قريشا أخلفوك الموعدا وسقصوا ميثافك المؤكدا
هم بيتونا بالوثير (٢) محمدا وقتلونا ركعا وسجدا
فقال النبي — ﷺ — :

— نصرت يا عمرو بن سالم .

(١) الأتلد . التلبد : التقديم ، والأتلد الأكثر قديما وعراقا .

(٢) الوثير : موضع بالقرب من عرفة .

ودمعت عينا رسول الله — ﷺ — وقال :

— لا ينصرفني الله إن لم أنصر بني كعب مما أنصر به نفسي .

ولما دمت قریش على نقضهم العهد جاءوا إلى أبي سفيان فقالوا له :

— ما لها إلا سواك ، اخرج إلى محمد فكلمه في تجديد العهد وزيادة

المدة .

فخرج أبو سفيان ومولى له على راحلتين ، فأسرع السير لأنه يرى أنه

أول من خرج من مكة إلى رسول الله — ﷺ — .

وقال رسول الله — ﷺ — قبل قدوم أبي سفيان :

— كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويريد في المدة وهو

راجع بسخطه .

ثم رجع أولئك الركب من حزاعة وقد قرت أعينهم عما سمعوا من

رسول الله — ﷺ — بعد أن قال لهم عليه السلام :

— ارجعوا وتفرقوا في الأودية .

فرجعوا وتفرقوا ، فذهبت فرقة إلى الساحل وفيهم عمرو بن سالم ،

وفرقة فيهم بديل بن ورقاء لرمت الطريق وإن أبا سفيان لقي بديل بن

ورقاء بعسفان فأشفق أبو سفيان أن يكون بديل جاء إلى رسول الله

— ﷺ — المدينة فقال للقوم :

— أخبروا عن يثرب متى عهدكم بها ؟

— لا علم لنا بها . إنما كنا في الساحل نصلح بين الناس في قتل .

ثم صر أبو سفيان حتى ذهب أولئك القوم فالتفت إلى مولاه فقال :

— لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى .
فحاء مرهم فمتت أعار أباعرهم فوجد فيها النوى . قال أبو سفيان :
— أحلف بالله لقد جاء القوم محمدا .
وانطلق أبو سفيان ومولاه ، وأبو سفيان يرحو أن يسبح في سيارته
فيشد العقد ويزيد في المدة .

التذيل

ارتفعت البشرية بمشكلة الجنس منذ بدء الخيقة ، فعندما خلق الله أول روجين درية كانت المرأة مسبب أول جريمة وقعت على الأرض ، فقد قتل رجل أحاه لأن روجه أحبه كانت أكثر حسا من روجته . وبعد أن كان التطيم الأسرى معروفا منذ الأزل ، ولما طال على الناس الأمد أطنقت للعرائز حريتها فكان البغاء وكان الإلحال وكانت الحرية الجنسية المدمرة وكان انعدام التجاس في سبيح الكون ، فعث الله الرسل لإرشاد الناس إلى حل مشاكلهم الجنسية حلا طاهرا يسمح بقيام نظام اجتماعي سليم يمكن أن يقوم عليه سعادة البشر .

كانت الشرائع السماوية كنها تحدد علاقة الرجل بالمرأة لبناء مجتمع جديد ، فالبيت نواة المجتمع الشرى ، واستقرار البيت هو استقرار المجتمع . وكانت الشرائع السماوية كلها تعطى الرجل حقه وتعطى المرأة حقه ولكن كما بعدت البشرية عن عدانة السماء وخفت قبضة الدين على المجتمعات راح الرجال وهم الحكام وشرعون والقضاة يشرعون قواعد تزيد في حقوقهم على حساب حقوق المرأة ، فكانت عصور الضياع التي نكبت بها الإنسانية .

إن مركز المرأة في المجتمعات هو امتياع الحقيقة لحصارة المجتمع ، فإذا باتت المرأة التوقير الذي تستحقه في مجتمع ما وأحدث حقوقها المشروعة فلا ريادة أو مقصود ، وقامت بدورها الطبيعي الذي خلقها له الله ، فإن ذلك المجتمع يكون أكثر تحضرا من مجتمع تها في المرأة بأن

يطلق لها الحبل على العارب ، تمارس فيه كل أنواع الفساد تحت شعارات حادعة براقعة يعدسها لها محادعون يزبون الرععات والروايات والأهواء ويقولون إن الطواهر انفسية حرة ، وإننا نفعل على نحو ما نوحده ، وإن فعلا ينشق من وجودنا ويسهم في خلقنا ، وأن الإنسان حر من حيث هو شعور ، ومثل ذلك من الفلسفات التي تشجع على الخطيئة لإرضاء لحرية النروات !

كان مركز المرأة متاثلا عند كل الشعوب التي وصلت إلى درجة معينة من الحضارة ما دامت بعيدة عن أثر الدين وتأثيره ، وكانت المرأة في مصر القديمة وفي بابل وآشور في مكانة واحدة فهي روضة الرجل الشرعية ، على أن الرجل كان حرا في اتخاذ محظيات على قدر ما تسمح به ثروته ، وكانت خادمات المنزل إماء وملكات بمجه . فللرجل روضة شرعية واحدة هي « زوجته المحبوبة » و « سيدة المنزل » وله حريم من المحبوبات والمحظيات الحسنات وما كان من حد يقف عنده الرجل بل يعود ذلك إلى درجة ثرائه وانفتاح شهيته .

وقد عرف قدماء المصريين تعدد الزوجات ، ففريس عشرة الوجه القليل « أميس » الذي عاش في الدولة الوسطى كان له زوجتان إحداهما وهي المسماة « بت » ولدت له ولدين وخمس بنات ، والأخرى واسمها « حتوت » فقد أنجبت له ثلاث بنات وصيا واحدا . وكانت الزوجتان تعيشان معا في سلام حتى إن السيدة نت سميت ابنتها الثانية « حتوت » وسميت السيدة حتوت بابنتها الثلاث باسم بت !

وكانت لرمسيس الثاني زوجتان ملكيتان عظيمتان هما نفرتا مردت وإسي — تُرى أم مفتاح ، وعندما عقد معاهدة مع ملك الحيثيين

نزوح سياسيا . وقد فعل تحتمس الرابع مثل ذلك ، وكذلك أموفيس الثالث والرابع عندما اتخذوا لأسباب سياسية أسرات من بابل ومثاني وجعلوهن زوجات ملكيات عظيمات .

وكانت قصور الأمراء وحكام الأقاليم والأثرياء تنوح بالحريم أو كما كان يعرف في العهد الفرعوني « بيوت المحجبات » وكانت مساوئهم وأولادهم لا يستمتعون بأية حقوق قانونية قل رب البيت . كان الحريم موجودا في جميع عصور التاريخ كحاجة من حاجات الأثرياء والوجهاء ، وكان واحب ساء الحريم أن يشرح قلب فرعون بالأغاني والرقص ، وكذلك كان هذا هو دور الحريم في قصور الأثرياء .

ويقال في نصوص الأهرام عن الملك المتوفى إنه « يأخذ النساء من أرواجهن عند رعته » ، أى أن للملك حق اعتصاب أية روجة من روجها كما كان الحال بعد ذلك لأمرء الإقطاع في العصور الوسطى . وكان الشبان في سن الخامسة عشرة يتزوجون بفتيات في الثمانية عشرة من عمرهن ، وكان الأب هو الوكيل الشرعى في الزواج .

وكانت مسايا الحروب يورعن على الجمود ، وقد نال حدى واحد بعد معركة حربية عشرة من الإماء . وكان التسرى مشترا بين الطبقات الدنيا ، ولا يخلو عصر من العصور من النساء اللاتي لا عائل لهن ولا حرفة يعشن منها غير البغاء .

وكان الأبناء يمسون إلى الأمهات . وفي عصر الدولة الوسطى كان نظام التوريث في أسرات السلاء يأتى عن طريق النساء لا الذكور ، فلم يكن الابن هو الذى يرث وإنما يرث ابن كبرى السات ، وكان والد الأم هو الوصى الطبيعى للشباب .

عرفت البشرية منذ فجر التاريخ نظام تعدد الزوجات ، وإن قارىء التوراة ليحد أن أنبياء سب إسرائيل قد اتحدوا أكثر من زوجة ونسروا بأكثر من محطية حتى قيل إن قصر سليمان كان به أكثر من ألف امرأة . وم يأت في الإنجيل نص صريح يدل على تحريم الزواج من أكثر من واحدة ، وإن عدم رواج السيد المسيح قد أوقع المسيحيين المؤمنين في الحرج حتى صار عددهم أبصر الحلال إلى الله الزواج !

وعرف العرب في الحاهلية نظام تعدد الزوجات والتسرى بالإماء ، وكان سادات القوم يدفعون إماءهم على الرنا لجمع الأموال ، ولما جاء الإسلام قال النبي — ﷺ : (لا تقل عبدي وعبدتي بل فتى وفتاتي) لذلك جاء في القرآن الكريم : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على الباء إن أردن تحصا ﴾ (١) . فقد كانت بعض صاحبات الرايات الحمر يصفن هذه المهمة وكى يمارسها تحت صغط السادة وتهديدهم .

وكان فقراء العرب يثدون بآتهم حشية العفر فكان ذلك نوعا من تحديد السل ، وما كان الوأد يسير لأن لقباثل كانت في حاجة إلى رجال للعارة والسطو ودفع العدوان . لذلك كانوا يكرهون زواج الست : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأشئ ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشره أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ (٢) .

وقد بلغت الاستهانة بالشرف بين بعض رجال العرب في الحاهلية أن

(١) طور ٣٣ .

(٢) الحل ٥٨ — ٥٩ .

قلوا الاستبصاع ، وهو إرسال الزوجة لرجل ماله أو شاعر مفوه أو حاكم حكيم لإغتاب دربة قوية فيها بعض صفات الرجل القوي الفحل الذي يتمنى الزوج أن يأتي أبه على مثاله ١

وكانوا يجمعون بين الأختين ، ويحف الرجل على امرأة أبيه ، وكانوا يسمون من فعل ذلك الضيرون . وكان الرجل من العرب إذا مات عن المرأة أو طلقها قام أكبر بيه فإن كان له حاجة فيها طرح ثوبه عليها ، وإن لم يكن له حاجة فيها تزوجها بعض إخوته بمهر جديد . وقد كان هذا الكاح في الجاهلية نكاح المقت .

وكان الرجل يرث امرأة دى قرانته فيعصلها^(١) حتى تموت أو ترد إليه صداقها ، فإن كانت حميلة تزوجها وإن كانت دميمة حسنها حتى تموت فيرثها .

كانت للمرأة العربية في الجاهلية بعض الحقوق يبا نحتها في جمهورية أفلاطون شيئا لا حق له ، إنها لعبة الرجال المتارين ولا بأس من أن تكون مشاعا بينهم ، فما خلقت إلا للترفيه عن الرجال الأقوياء العظماء الذين تصع جمهورية الفيلسوف كل إمكانياتها لتكوين هؤلاء الصغرة . ويقول الدكتور على عبد الواحد وا في كتابه حقوق الإنسان في الإسلام : « ... فحالة المرأة في فرسا مثلا كانت إلى عهد قريب ، بل لا تزال إلى الوقت الحاضر أشبه شيء بحالة الرق المذنب ، فقد نزع منها القانون صفة الأهلية في كثير من الشؤون المدنية كما تنص على ذلك المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون المدني العرسي إذ تقرر أن :

(١) عضل المرأة : سحها الزوج وصيق عليها .

« المرأة المتزوجة ، حتى لو كان زوجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها ، لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو من غير عوض بدون اشتراك زوجها في العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية »

ومع ما أدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات فيما بعد فإن كثيرا من آثارها ما يزال ملازما لوضع المرأة الفرنسية من الساحة القانونية إلى الوقت الحاضر ، وتؤكدنا لهذا الرق المبدئي المفروض على المرأة الغربية المتزوجة تقرر قوانين الأمم الغربية ويقضى عرفها أن المرأة بمجرد رواجها تفقد اسمها واسم أسرتها فلا تعود تسمى فلانة ست فلان بل تحمل اسم زوجها وأسرته فتدعى مدام فلان . أو تنسب اسمها باسم زوجها وأسرته بدلا من أن تتبعه باسم أبيها وأسرته ، وفقدان اسم المرأة وحملها لاسم زوجها كل ذلك يرمز إلى فقدان الشخصية المدنية للزوجة واندماجها في شخصية الزوج .

وقد طمس الإسلام الذين قالوا إن الإسلام أباح تعدد الزوجات ووقف عند ذلك ، فالحقيقة التي لا مرأى فيها أن التعدد كان معروفا قبل الإسلام وفي كل العصور وكل الديانات . فإبراهيم خليل الرحمن اتخذ أكثر من زوجة ، وكذلك موسى كليم الله وكل الرسل والأنبياء . وإنه لم ينصف أن يقال إن الإسلام جاء ليحدد عدد الزوجات ، فبعد أن كان للرجل الحق في أن يتزوج أى عدد من النساء شاء فقد حدد الإسلام عدد الزوجات بأربع وأوجب العدل بينهن ، وما كان ذلك مطلوبا من قبل فقد كان للزوج أن يعدل أو لا يعدل كيف يشاء

إن تعدد الزوجات ليس نظاما شائعا بين المسلمين ، فكثير من

المسلمين يكتفون بروحة واحدة ، ولكن هناك أحوالا اجتماعية أو اقتصادية قد توجب تعدد الروجات حفظا للمجتمع من الاسيار أو درعا لمصاد قد يمحرف في نظام اجتماعي ويقوصه على رعوس الصالحين والصالحين المكتفين بروحة واحدة في الظاهر ، أو الداعين إلى شيوع المرأة بين الرجال دون زواح .

لقد أصبحت الحروب جزءا من الحياة في العالم ، وكان من نتيجتها أن صار عدد النساء يريد على عدد الرجال في معظم دول العالم . وقد واجه الأخلاقيون في أوروبا هذه المشكلة بعد الحرب العالمية الثانية ، فالطبيعة تصرح في طلب حاجاتها وتريد أن تنطق في طريقها . ولم يجد الأخلاقيون في أنفسهم الشجاعة لتقرير مبدأ تعدد الروجات فكانت النتيجة أن استشرت شرور الدعارة وانتشرت موجات التحرر الجنسي التي تدور بتقويض الحضارات الغربية .

إن الإسلام في محر تاريخه واحه موجات من العروات والحروب قل عدد الرجال عن النساء ، فلم يكتف بأن أوصى به الأراامل وتقديم الطعام والمأوى إليهن ورصى عن الحل المادى وحده ، بل عرف أبعاد المشكلة على حقيقتها ، فالطعام لا يطعم إلا جوعها ولا يصون عرصها ، إنها في حاجة إلى إشباع جوع آخر فإن لم تجد من يسده حلالا فالطبيعة قد ترعها على أن تسده حراما . وما كانت رسالة الإسلام الطهارة والنهضة وقدسية العلاقات الجنسية فقد أضح الإسلام أن يتحد الرجل أكثر من روجة حتى يصون اجتماع من شرور البغاء ، وهو الخطر الأعظم على حضارة الأمم .

شاد الإسلام حضارته على نظام حياة البيت وطهارتها وقام على نظام

الروحة الواحدة في تهيئة بيت للمرأة إلا في حالات استثنائية فقد سمح بالزواج من أكثر من امرأة . فإذا قيل إن المرأة لا تجد في حالة تعدد الزوجات إلا نصف بيت فإذا ذلك أفضل من ألا تجد بيتا على الإطلاق . وما معنى عدم وجود بيت ؟ ليس المعنى أن المرأة لا تجد المأوى محسب ، ولا أنها حرمت فرص إبداء عواطف الحب والرحمة التي وهبها الله لها محسب ، ولكن معناها في أغلب الحالات هو الحرمان الخلفي وهو أعظم الأخطار على الحضارة .

قد يمكن إيجاد عمل للنساء يعينهن على كسب قوتهن ، ولم يعلق الإسلام باب العمل إطلاقا في وجه المرأة ، إلا أن المعصلة ليست تيسير الحصول على الطعام ولكن تيسير الحصول على بيت وروح . ويجب أن يفهم في وصوح أن تعدد الزوجات في الإسلام — سواء أكان نظريا أم عمليا — ما هو إلا نظام استثنائي ، وهو علاج لكثير من مساوئ المدينة الحديثة ، وعلى فرص أن أعداء الإسلام يعتبرونه شرا فليقولوا لها . أيهما أعظم شرا أن تعدد الزوجات المحدود أم الدعارة والاختطاط الخفسي المطلق ؟

وإن المتنوع لزيجات رسول الله ﷺ — وأصحابه يحد أن الدافع هذه الزيجات هو صيانة حياة أرامل مات عنهن أزواجهن ، فكان من واجب المسلمين الأوائل ضمهن إلى بيوتهم ليحذوا المأوى والمعطف والحنان . ولم يكن الدافع إلى ذلك الزواج شهوة طاغية أو متعة رحيصة بل كان الهدف الأسمى التعفف وصيانة حرائر المسلمين من الانزلاق . ويقول مولاي محمد علي في كتابه « محمد رسول الله » يمكن تقسيم حياة النبي الأمرية إلى أربعة أقسام . كان أعرب حتى الخامسة والعشرين

وعاش مع روجة واحدة من الخامسة والعشرين حتى الرابعة والحسين وتروح عدة روجات بين الرابعة والحسين والستين ، ولم يتروح من الستين إلى أن لحق بالرفيق الأعلى .

إن فترة العزوبة هي أهم فترة يمكنها دفع دعوى أن السى كان عدا لشهواته ، فلو كان عدا لما قصص على ناصية عواطفه وميوله الجنسية ولما عاش حتى الخامسة والعشرين حياة عمودحية من الطهر والعفاف جعلته يعرف بين مختلف القبائل بالأمين . تحكم في ميوله الجنسية حتى الخامسة والعشرين في بلاد حارة كبلاد العرب حيث يلعب الغتان مرتنة الرجال سريعا وتكون عواطفهم هواره وميولهم جامحة عيفة ، وما استطاع أعداؤه فيما بعد عندما حاصموا أن يذكروا حادثة واحدة تمس شرفه . وموير نفسه يعترف بأن جميع المراجع متفقة على : « أن السى في شبابه طبع بالهدوء والندعة والطهر والاعتدال عن المعاصى التى كانت قريش تعترف بها . والشباب هو سس العواطف المتأحجة الجامحة النائرة ، فالرجل الذى يستطيع كبح جماح عواطفه وهو أعرب من النحاح أن يحرق ، راء الشهوة وقد بلغ سس الاكتئاب والرزاة . وعلى ذلك فالفترة الأولى من حياة السى فترة الحياء والطهر دليل قاطع على استحالة أن يكون عدا لشهواته . ومما هو جدير بالملاحظة أن تقاليد العرب وقتذاك كانت تبيح لانحراف الخلقى . لذلك لا يمكن أن يقال إنه تعفف بتأثير البيئة أو العادات المرعية ، لقد كان الانعماس فى اللدات شيئا عاديا مألوفا يومئذ فلم يعمس فيما انعمسوا فيه جميعا ، وعاش عيشة طاهرة بقية ، وهذا وحده دليل على سمو خلقه ورفعته الشخصية .

ولدرس الآن الفترة الثابتة فترة الزواج من روجة واحدة ، فقد

تروح في الخامسة والعشرين من حديقة فعاش معها عيشة إحلاص وورع حتى قبضها الله وكان في الرابعة والخمسين ، عاش معها وحدها في بلاد قاعدتها العامة تعدد الروحات ، وما كانت الزوجة لتشكو أو تتدمر إذا زوجها تروح زوجة ثانية أو ثالثة . وقد أعياه رواجه من حديقة فكان في وسعه أن يتروح من أخرى ولكن تعدد الزواح لم يكن مقصورا على الأغنياء ، فكان في مقدور الفقراء التروح من أكثر من واحدة ، وكانت الزوجة شريكة في الحياة بمعنى الكلمة فهي تعاون زوجها على كسب معيشتها كما هي الحال في الضقات العاملة ، وعلى هذا فما كان الفقير ليخسر شيئا إذا ما تعددت زوجاته .

كان محمد من أعرق أمر قريش ولو شاء الزواح من أخرى لكان أمرا هيبا ميسورا ، ولكنه عاش مع زوجة واحدة عيشة كلها إحلاص وألفة وود طوال حياتهما الزوجية ، فلما ماتت تروح من سيدة طاعة في السن هي سودة وكانت كل مؤهلاتها أنها زوجة أحد الدين هاحروا إلى الحبشة متحملين الأذى في سبيل الدين .

وإن هذه الفترة فترة الخامسة والعشرين إلى الرابعة والخمسين هي فترة الزوجة الواحدة ، وهي القاعدة في الحياة الزوجية .

وفي السنة الثانية للهجرة بدأ القتال مع قريش والقبائل العربية الأخرى فأدى ذلك إلى قتل كثير من الذكور وهم عماد الأسرة واستمرت هذه المعارك حتى السنة الثامنة للهجرة ، وفي هذه الفترة بالذات تزوج السبي تلك المرات العديدة التي قد تبدو عربية أمام العقلية الحديثة ولكنها كانت أمرا عاديا لا غبار عليه ولا ينتقد . ومن ذا الذي ينتقده إذا فهم أن الدافع إلى ذلك هو الرحمة والشفقة لا الحسود إلى المتعة واللذة ؟ وقد اعترف

أحد الكتاب المسيحيين بذلك ضمنا عندما قال : « من الممكن تفسير نزوح السبي المرات المتتالية بشتى التفسيرات ولكن يجب ألا يعزب عن البال أنها كانت وليدة الشفقة والمؤاساة نظرا للحالة التعمسة التي كانت عليها من نزوح منهم فقد كن من الأراامل ، لا مال ولا جمال ، بل كن على القيص من ذلك يستحقن كل عطف » .

سقى لنا القول بأنه ما كان يخشى على رجل قضى حياته حتى الخامسة والخمسين وهو على حير ما يكون من الطهر والعفاف أن يعمس بعد ذلك في البدات . فإذا كانت فتنة النساء لا تؤثر فيه وهو حتى ممتلئ الشباب فكيف بها نأسره وهو رجل رريس كامل النضج العقلي ؟

قد عاش السبي طوال هذه السنين في المدينة وما كانت حياته سهلة ممتعة بل كانت على العكس من ذلك حياة كعاج وبصال ، فقد كان في هذه المرة فترة تعدد الزوجات بحوص معارك لا تقطع ، معارك موت أو حية للإسلام أو المسلمين . فقد عوديت المدينة في هد الحقة ومشت إليها حيوش لحب للقضاء على المسلمين ، ورمته العرب جميعا عن قوس واحدة فما كان الشئ أما لخصه . لقد كانت المعارك تلى المعارك وكل معركة أشد من سابقتها ، وكانت العروات تعد سرعة . وقال له أصحابه بأنهم ملوا من حمل السلاح آناء الليل وأطراف النهار ، فكان يواسيهم ويطمشهم ويشرهم باقتراب زمن السلام الذى يتمكن فيه المسافر من قطع الحزيرة من أدياها إلى أقصاها دون الحاجة إلى حمل سلاح

وكان اليهود والصارى كذلك يناصونه العداء ، وكان حيرة أصحابه يقتلون الواحد إثر الآخر في المعارك أو غيلة . أفكأت هذه الحياة حياة لدة وممتعة أم كانت حياة شدة وكرم ما بعدها شدة (صليح الحديدية)

وكره ؟ وإذا شاء الخوارج إلى حياة اللذة والمتعة وهو ما لم يحدث بشهادة جميع الثقة أفككت الظروف تواتيه ؟ إنها الحرب في انتظاره دائما ، الحرب مع المنافقين الذين يهددون بالانفجار الداخلي ، والحرب مع أعداء حافين به من كل حاسب . لقد كانت الأنباء تتراعى إليه دائما أن العدو يحشد جيوشا هائلة للقضاء عليه وعلى الإسلام وكان عدد المسلمين ضئيلا . فكان عليه دائما أن يعمل على درء الخطر الساحق . فلو أن هذه الظروف حاقت برجل ماحن لبدلته وغيرته فما بالك برجل شهد الجميع بطهارته ونفائه ، رجل ما كانت لتؤثر فيه المغريات حتى تصوره ماجنا أو عبدا لشهواته .

عرفنا كيف يقضى النبي مهارة في كساح مضى شديد ، فكيف كان يقضى ليله ؟ قد كان له عدد من الروجات الخليلات المحصيات أمكان يقضى ليله يتمتع بهن ؟ اسمع إلى شهادة القرآن وهو أصدق القائلين . ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ • قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا • نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا • أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ ^(١) . ﴿ إِنْ رَبُّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنَصْفَهُ وَثُلُثُهِ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِلْمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ ^(٢) . وجاء في الحديث أنه كان يقضى نصف الليل بل أكثر من نصفه في الصلاة وتلاوة القرآن وهو قائم حتى تتورم قدماءه ، فهل بعد هذا يمكن القول أن هذا الرجل الكريم إنما اتخذ هذا العدد من الروجات للتمتع بهن ؟ كلما يعرف أدق حصائص حياته ، لقد كانت نضالا كلها ، كما حيا كلها ، نصبا كلها ، ليس فيها

(٢) المزمّل ٢٠ .

(١) المزمّل ١ : ٤

منعة ، أو لذة حسية .

وللدكتور بـت الشاطىء رأى فى التعدد ، وهى تقول فى كتابها « نساء النبى » : وفى مسألة التعدد جانب دقيق غفل عنه كثيرون ... ذلك هو أن الرجال ليسوا سواء ، وقد تؤثر أنثى — راضية — أن يكون لها حظ النصف من حياة رجل على أن يكون لها غيره كاملا .

وليس معنى هذا أن نساء النبى كن سعيدات بحياة الضرائر ، ولا هو يقتضى أن تستريح إحداهن إلى هذه المشاركة فى الزوج ، ولكن معناه على التحديد أن محمدا « كان من ذلك اعطى الفريد بين الرجال الذى تؤثر الروحة أن يكون لها أى مكان فى بيته ، على أن تكون ها مع غيره ممسكة مستقلة تنفرد بها دون مشاركة » .

وليس من بين روحاته — ^{صلى الله عليه وسلم} — من دحنت بيته وفى حماسها أن تنفرد به ، فقد كانت مسألة التعدد تبدو طبيعية إلى حد يسهل غيبا تصويره لو ذكرنا أن حولة بنت حكيم اقترحت على الرسول أن يعطى عائشة بنت أبى بكر وسودة بنت زمعة فى وقت واحد ، وأن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث هى التى عرضت أن تتزوج الرسول وفى بيته عشر نساء : ثمانى روحات واثنان ملث يمين . وأن عمر بن الخطاب عرض بـتة حفصة على أبى بكر وعده « أم رومان » حمة النسي — ^{صلى الله عليه وسلم} ، وأن أبى بكر وعمر صهرى الرسول رغبا فى الزواج من أم سلمة بنت أبى أمية راد الركب حين مات زوجها وفى بيت كل منهما أكثر من روجة

ولو حيرت روحات النبى بين حياتهن تلك المشتركة فى بيت واحد ومع روح واحد وبين حياة أخرى مفردة فى غير ذلك البيت ، لما رضى

عن حياتهن بديلا ...

وكى مع ذلك مرهقات بهذه المشاركة ، تصيب العيرة ويشغبى ألا تفرد كل من يقب روحها . وقد شهد بيت الرسول من عيرة سائه المجتمعة ما يخيّل إليها معه أنها جعلت من هذا البيت ميدانا لمعارك بسوية لا تهدأ ولا تفتر ، وإن لم ترفه الطبيعة سوى أثر الحيوية هؤلاء السيدات ومظهر من مظاهر التنافس على حب زوجهن والرغبة فى الاستئثار به . وما من شك فى أن الرسول قد عانى من ذلك كثيرا ، لكنه راض نفسه على احتماله تقديرا للدوافع الطبيعية التى كانت تدفع إليه قسرا ودون احتيار . وما تزال الإنسانية تصعى حتى اليوم وغدا ويعدّه إلى كمنته فى زوجته عائشة حين لجت بها غيرتها :

« ويحها لو استطاعت ما فعلت ! » .

وترى فيها آية على سلامة الفطرة وصحة الفهم وعمق الفهم بطبيعة حواء . وقد كان ساقه يعرف هذا فى روحهن الرسول ويلد به كلما أخرجتهن طبيعة حواء عما يحب لزوحات سبي من مسألة ووليام ، ويدرك أن العيرة مهما تجمع من فمثل رسول الله من يعدر ويقدر ويرحم ، دون أن يرى فى ضعف البشرية إنما لا يختص أو يحد فى فطرة حواء ما يدعو إلى الازدراء .

وكتب ر . ف . بودنى فى كتابه « الرسول . حياة محمد » عن زواح محمد — ^{صلى الله عليه وسلم} — من عائشة : « وشغلت مسألة زواح الرجل الذى كان فى سن الخمسين من الفتاة التى كانت فى العاشرة بعض مؤرخى محمد ، كما شغلهم الإسرائ وحالة الصرع . وكان المؤرخون يظنون إلى كل حالة من وجهة نظر المجتمع الذى يعيشون فيه . فسم ينظروا إلى هذا الزواح على

أنه كان ولا يزال عادة آسيوية ، ولم يفكروا في أن هذه العادة لا زالت قائمة في شرق أوروبا وكانت طبيعية في أسيايا والبرتغال إلى سبب قليلة ، وأنها ليست غير عادية اليوم في بعض المناطق الحبلية البعيدة في الولايات المتحدة . وبعض النظر عن العادة فإنهم لم يطوروا نظرة اعتبار إلى ظروف هذه الحالة الخاصة . فهناك أول شيء أبو بكر أبو الروحة وكان من المفهوم أنه ينبغي أن يرتبط ارتباطا سياسيا دائما بقائده وقد أعانه وساعده في أحلك أيامه ، وقد يكون هناك دوافع أخرى مادية أقل أهمية فهو يؤمن بمحمد ويحترمه ويحبه فكان واثقا من أن ابنته ستجد الرعاية الطيبة في دار صديقه .

ويجب ألا يهمل محمد نفسه ، فحتى تلك اللحظة لم يكن في حياته شيء مثل أو يبيع بل كانت حياته كذا وبصا فكان يستحق بعض ما يرفقه غير التعذيب والحكم عليه بالاعدام ، وما كان له حتى نصيبه العادي من النساء فقد بقي حتى السابعة والعشرين عفيفا كعائشة ، وحتم ذلك العفاف بالتزوح بأرملة تكبره بخمس عشرة سنة .

والقطة الثالثة التي تنسى عادة والتي يجب لذلك تأكيدها ثانية هي أن عائشة على الرغم من أنها طفلة بالنسبة لسنها فإنها لم تكن طفلة لا حول لها تركت تحت رحمة شيخ هرم ، فلو أن هناك شابة عرفت ما هي مقبلة عليه لكانت عائشة بنت أبي بكر ذات العينين الواسعتين والقسمين الصعيرتين والشعر الخمد . فلقد كونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذي دخلت فيه دور البنى اللاصقة بالمسجد وراحت تديرها ، فعاملت سودة العجوز كما تعامل حادما مكلمة القيام بجميع أعمال المنزل . ولما هجر محمد نساءه لم تحفف عائشة من غلوائها فقد كانت تعلم أنه سيعود إليها

دواما .

ولولاي محمد على رأى في من عائشة عندما بهى بها رسول الله ﷺ ، فهو يقول في كتابه : « محمد رسول الله » عندما كان يتحدث عن زواج السى — ﷺ — من عائشة بنت أبى بكر : « كان لفقد خديجة وقع أليم في نفس السى فحزن عليها حزنا عميقا ، فلما رأت إحدى المؤمنات ذلك أشارت عليه أن يتروح من عائشة ابنة صديقه أبى بكر وفتحت أبا بكر في ذلك ، وكان لعائشة مواهب باررة لمسها السى كما لمسها أبوها ، وكانت هذه المواهب كفيلة بأن تجعلها سيدة مستقبل الجديرة أن تكون زوجة الهادى الأعظم الذى سيكون له أبلغ الأثر في هداية البشر ، وكان في طريق إتمام هذا الزواج عقبتان : أولاها أن عائشة كانت محظوبة لحبر مما كان في استطاعة أبيها أن يقلل ترويحها حتى يفصل في أمر جبر ، ولكن كان جبر نفسه يرفع في قسم رباط الخطيئة لأن الهوة التي بين المسلمين والمشركين قد اتسعت . وأما العقبة الثانية فهي عدم بلوغ عائشة السن التي تؤهلها للزواج وقد أمكن تدليل هذه العقبة تأجيل الدخول بها ، وعلى هذا فإن حمل الزواج لم يكن في الواقع سوى حمل حطية وكان ذلك في التاسع من شوال في السنة العاشرة من نزول الوحي .

وإنها لفرصة طيبة لدفع أكلوبة شاعت وراحت عن سن عائشة ، فمن المسلم به أنها لم تبلغ السن التي تؤهلها للزواج ، وكذلك من الواضح أنها لم تكن في سن السادسة كما رعموا فإنها كانت في السن التي تجبر حطيتها فحطبها جبر ، وعلى ذلك فإنها كانت على أبواب السن التي تؤهلها للزواج . ومن الثابت أن فاطمة بنت السى تكرها محمدا

سنوات . ومن الثابت أيضا أن فاطمة ولدت أيام إعادة بناء الكعبة أي قبل أن يرسل النبي بحمس سنوات ، فتكون عائشة قد ولدت سنة نرول الوحى فكانت سنها لا تقل عن العاشرة عندما زوجت من السى فى السنة العاشرة للرسالة ، وإن شهادة عائشة بنفسها لدليل على ذلك ، فقد قالت إنها كانت تلعب مع أترابها عند نرول سورة القمر وهى السورة الرابعة والخمسون ، وإنها كانت تحفظ بعض آيات السورة ، وهذه السورة لم ترل إلا فى السنة الخامسة للرسالة ، وعلى ذلك فما قيل من أنها كانت تلعب السادسة فى السنة العاشرة للرسالة عندما تزوجها السى إن هذا إلا قول كاذب ، وإلا كان مولدها يوم نرول سورة القمر وهو ما تنفيه هى بقولها إنها حفظت بعض آياتها عند نرولها

من هذا كله يفهم أن سها لم تكن أقل من عشرة أعوام نعال عندما خطبها السى ، ولما كانت المدة بين الخطبة والدخول بها لا تقل عن خمس سنوات فما دخل السى بها إلا فى السنة الثانية للهجرة ، وعلى ذلك يكون سها يوم بائه بها خمسة عشر عاما ، أما دعوى أنها كانت فى السادسة عند عقد الزواج وأن السى بنى بها وهى فى التاسعة فهى دعوى خاطئة لأن معنى هذا أن الفترة بين العقد والزواج كانت ثلاثة أعوام ، وهذا حصا تاريخى لاشك فيه .

ويقول المعتزلة بعدم جواز أن يتزوج الرجل زوجة ثانية ما دامت الأولى فى عصمته ، وسبب ذلك أنهم نظروا نظرة سطحية إلى ما يحمله التعدد — فى نظرهم من مفساد ومضار ، ولم يرد فى القرآن نص يحرم

تعدد الزوجات ، إنه اشترط العدل بين الزوجات ﴿ فَإِنْ حَفِظْتُمْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ ^(١) ولا ريب أن هناك ظروفا اجتماعية أو اقتصادية تبرر تعدد الزوجات ، فقد قرر أساتذة علم الاجتماع أمثال « جيز برح ووستر مارك » أن تعدد الزوجات كان النظام المتبع في الشعوب المتعدية في حين كان نظام الروجة الواحدة هو النظام المتبع عند الشعوب المتأخرة ، وأن الشعوب التي كانت تحرم الرواح بأكثر من واحدة إنما كانت تتبع تقاليد لا تتصل بالدين من قريب أو بعيد . كما أن الشعوب التي أجارت الرواح بأكثر من واحدة إنما أجارته طبقا لما رأت فيه من فوائد اقتصادية أو عمرانية دون نظر كذلك إلى الدين .

وتقول « ماريون لانجر » العاملة الاجتماعية المتخصصة في استشارات الرواح « إن لدى المجتمع حلين ممكنين بحسب لمعطية القصد المترايد في الرجال ؛ إما تعدد الزوجات ، أو إيجاد طريقة ما لإطالة أعمار الرجال ، فهل يمكن إيجاد طريقة لإطالة عمر الرجال دون النساء ؟ أم ترى هل سيديعا العالم إلى إباحة تعدد الزوجات » .

ويقول الدكتور حسين المعنى في هذا الشأن : « أصبح من المعتاد اعتبار مبدأ تعدد الزوجات مكررا اجتماعيا واعتاد المسلمون أن يبرروا وجود هذا المبدأ في دينهم تبريرا هو أقرب الأشياء إلى الاعتذار وما ذلك إلا لأنهم يسمحون لأنفسهم أن يتأثروا بوجهة نظر الناقدين الذين هم قطعيا يفكرون في أمر الرواج على أساس ميول وعواطف الأفراد ، بينما الإسلام يعالجه على أساس مصلحة المجتمع ، ويضع الحلول التي إن لم

ترض مبول الأفراد فإنها لا تتأق مع حيرهم ثم هى لا ماص منها خير المجتمع .

وقد أسهب المستشرقون فى قصص رواح السى — صلى الله عليه وسلم — من نسائه وحرخوا من دراساتهم المعرصة بأنه كان عليه السلام يجرى وراء لدائه ، وقد هند الأستاذ العقاد مراعمهم فى كتابه : عقريه محمد ، قال : « ... فهو أولا رحل يطلب ما يطله الرجل فى المرأة ، ونحن قل كل شىء لا نرى صبرا على الرجل العظيم أن نحب المرأة ويشعر بمنعتها ، هذا سواء فى العطرة لا عيب فيه . وهذه النفس السوية يكسا أن مهمها بخلاء حين يرى أن المرأة لم تشعله عما تشعل المرأة الرجل المعرط فى معرفة النساء من مهام الأمور والقيام بالأعواء الحسام ، فمهما قال هؤلاء فنن يستطبعوا أن يكرروا أن محمدا قد حقق ما م يحققه بشر قلبه ولا بعده ، ولم يشعله عن هذا شىء لا امرأة ولا غير امرأة ، فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها . ويعطى المرأة حقها ، فالعظمة رححان وليست بنقص ، وهذا الاستيعاء السليم كال وليس يعيب ، ومحمد الذى حير نساءه بين أن يرصين نحية الكفاف أو يسرحهن سراحا حميلا ليس بالصرورة رجلا نخاضعا للذات حسه ، فلو شاء لأعقد عليهن النعمة وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطابب الملذات ، وليس هذا فعل رجل يستسلم للذات حسه » .

ويقول العقاد : « قال لنا بعض المستشرقين : إن تسع روحات لدليل على مرط المبول الجنسية ، قلنا إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتروح قط ، فلا ينبغي أن تصف محمدا بأنه مرط . احسنة لأنه جمع بين تسع نساء . فالسى — صلى الله عليه وسلم — أمكه أن يسوس

تسع زوجات ولم يؤثر عنهن حصام أو نزاع إلا مرات تعد على أصابع اليد ، فمن أتبع له أن يجمع بين عدد من الروحات فعليه أن يقتدى به في معاملة زوجاته بالعدل ومعالجة الشئون المنزلية بالأمانة وسعة الصدر ، وعلى النساء أن يتحدن من زوجات النسي الكثيرات مثالا صالحا يحتديه من العفة والزهد وتدبير المنزل والرضا عما قدرهن من متاع في هذه الحياة الدنيا ، وبذلك تسعد الأسرة بنفامها وتقوم بواجبها نحو الله ونحو المجتمع الإنساني .

ولو أن المسلمين وغيرهم تأملوا في حياة النسي مع نسائه واقتدوا به في معاملة الأرواح والأبناء والأقارب كما أمرهم الله لعاشوا عبثة راضية مرضية .

ووجد المبشرون والمستشرقون في رواح النسي — صلي الله عليه وسلم — من ريب ست جحش مادة للخيال والشهير ، فصوروا قصة عروم مشسوب كذلك القصص الملتبة التي ذاعت في العصور الوسطى والقرن التاسع عشر ، فقد كتب الراهب هيدرو مقدمة ناصية بالحرارة إن دلت فيما تدل على ما كان يقاسيه من كبت حسنى ثم قال : « كان هناك رجل يدعى سيدروس (ريد) له زوجة تدعى ريب وكانت أحمل نساء الأرض في زمانها ، وسمع محمد بحمالها اترائع مشعف بها حبا وشاء أن يراها فانطلق إلى دارها في عياب روحها يسأل عنها ، ولم تحف المرأة بحر تلك الزيارة عن زوجها وقد سألتها عند عودته : هل كان رسول الله هنا ؟ قال : نعم . قال : هل رأى وجهك ؟ قالت : نعم . وأطال إليها النظر ، قال : هذا فراق بيني وبينك .

واستمر الراهب في سرد قصة لعب الخيال فيها أكثر دور ، وراح

يدرس بعض ما جاء في سورة الأحزاب عن رواح السي — عليه السلام — من ريب ليوهم القارىء أنه يسرد واقعة حقيقية مؤيدة بالقرآن .

وحتى بودلى وهو ممن حاولوا أن يصنعوا سبى الإسلام عليه السلام قد صور قصة زواج السي من ريب في صورة روائية وقد يكون له بعض العذر ، فالطبرى وبعض كتاب السيرة سردوا الحادثة سردا قصصيا يوحى بأن السي عليه السلام لما رأى ريب أعجب بحسبها كأنما يراها لأول مرة وكأنها لم تكن ابنة عمته التى رَوَّحها من ريد بن حارثة ، بقول بودلى : « . . . وإن السيدة الثالثة التى صادفت فى نفس محمد هوى قد أحدثت رجة فى دور السي أكبر مما أحدثته أم سلمة

وقد كانت فى الواقع صدمة لكل إنسان وأصحت هدفا للنقد وموضوعا للتندر خارج دائرة الأسرة وكان اسمها ريب ، وما كانت تصل بأى سبب بريب الأخرى (بقصد ريب بنت حزيمة) التى كانت ترقد رقدتها الأخيرة .

كانت ريب هذه حفيدة عبد المطلب وابنة عمه محمد وقد هاجرت إلى المدينة قبل محمد بقليل . ولكنها لسبب من الأسباب لم تتزوج على الرغم من أنها قد اقتربت من الثلاثين ، وقد زوجها محمد عقب الهجرة بقليل من صديقه وعمه المخرر زيد بن حارثة . وكان ريد هذا قبيح المظهر قصيرا أنفى الأنف غير مثقف ، ولو نحيا أمانته للإسلام وميده وشجاعته الشخصية العظيمة لما كان له إلا القليل ليقدمه إلى سيدة حدابة شريفة كريم . وقد قبلت ريب الزواج بسبب إصرار محمد ولكنها لم تحب ريدا أبدا ، وما كان ريد نفسه يهمه الناس فلم يكن يدرى كيف يعامل زوجه المدللة .

ودأت يوم ذهب محمد ليرور ريدا ، فلما لم يحه أحد طرق الباب وبادى ، ثم دخل بيت زيد حيث اطلع على زيب الفاتنة وكانت نصف عارية ، فأثر هذا فى عواطفه حتى قال : « سحاح مقلب القلوب » . ثم هرول خارجا فى ارتباك .

رأت ريب نظرة محمد فى عيها ، وقد سمعت ما قال ولاحظت كيف نطق بما قال فقدرت ما سيقود إليه ذلك القول . فلما عاد روحها إلى البيت أباته بما حدث فما تركت تفصيلا وأصافت تفاصيل قليلة من عدها . وإن أول شيء فكر فيه زيد بعد أن انتهت من سرد قصتها كان سيده الحبيب ، فانطلق إليه ولم يلو عن شيء وعرض عليه أن يطلق روحه ، فأثرت تصحية زيد بنفسه فى محمد فأخبره أن يعود إلى ريب وألا يفكر فى ذلك ثانية .

وكانت لريب أفكار أحر ، كانت تعرف ما يحسه محمد نحو النساء وكانت متيقنة من إحساسه نحوها ، وكانت قد ضاقت درعا بريد وترغب فى أن تعيش كما يؤهلها كرم مولدها فابتدأت بحمل حياة زيد ححيما فطلقها لير من الاصطهاد المظم

وانظر محمد حتى انقضت الفترة المقررة بين الطلاق والزواج ثم صم ريب إلى روحاته ، فابتدأت المتاعب وكانت الشائتان (عاثشة وحفصة) مثيرتها وقد نعمتا أن لبعيرة أى دخل فى هذا ، فراحتا تديعان فيما حولها أن هذا الرباط رباط فسق فإن زيدا ابن محمد ، والرواح من روحته يباى جميع الشرائع فى العالم ، وإها لعصبة وإن شيئا كهذا لا يمكن أن يحتمل !

وما كان زيد ابن محمد فقد تساه فصار وريته فى نفس الوقت الذى

تحرر فيه ، وما كانت هناك رابطة دم وعلى الرغم من ذلك كانوا يدعونه
 بابن محمد ، وما كان كثير من المسلمين يدرون كيف صار اسمه ، فلما
 رفعت عائشة وحفصة صوتهما بالاحتجاج احتج المحتجمون في المسجد
 للصلاة فأصبح محمد في مأرق ، ولكن جاءه الوحي سريعا ولم يدع
 الوحي أى شك في التفريق بين الاس المتسى والابن المولود ، وقد قرر
 زيادة على ذلك بأن أرملة الابن المتسى أو مطلقة لا تدخل فيمن حرم
 الزواج به .

اعتاطت الشاتان وقالت عائشة لروحها : « ما أرى ربك الا يسارع
 في هوائك » . ولكن ذلك لم يغير من الأمر شيئا فقد كانت زينب مرحة
 وقالت لكل من قابلته إن الله تدخل مصلحتها وقد روحها بمسحه . وقد
 صحت عائشة وكذلك فعلت حفصة ولكن قضى تماما على كل ما
 أثارتاه .

وهذا الرواح من زينب مكس العربيين وعلى الأحص الذين يعتقدون
 أن محمدا لا يصلح لشيء طيب من أن يقولوا : « لقد قلنا لكم ذلك ! فما
 الذى تنظرونه غير ذلك من هذا المحال الكبير » .

وهؤلاء الرجال على كل حال ليسطرون إلى الأمر النظرة الحائنة ،
 فإنهم لا يقلون أنفسهم إلى مجتمع ذلك الوقت أو حتى إلى المجتمع
 الشرق ، فإن للعرب اليوم وللرجال العظام أمثال ابن السعود وللحكام
 أمثال سلطان مراكش أن يعيدوا قصة زينب عدة مرات في حياتهم التى
 يحبوها في القرن العشرين هذا ، فلو أن عائشة لم تصع النقط فوق
 الحروف لكان من المحتمل ألا يقول أحد شيئا عن ذلك في المذبة عام
 ٦٢٦ .

كانت العلاقة الجنسية شغل العرب الشاغل في ذلك الوقت كما هي اليوم إلى حد ما ، وما كان التحدث فيها محرما كما هو حادث بين كثير من الغربيين ، وكانوا يفتخرون إليها كعامل من عوامل السرور والطرب والإلهام ويعتبرونها شيئا عاديا .

وأما لما يذهل العرب بفاق الغربيين العجيب فيما يتعلق بالعلاقة الجنسية ، فإنهم ليروا أن رجال القارة الأوروبية والقارة الأمريكية وساءهما لا يختلفون عنهم في شيء فإن هم نفس شعورهم ، ولكنهم ينظرون إلى جميع الأمور المتعلقة بالعواطف الجنسية المردوحة للذكر والأنثى كطهرهم إلى رذيلة كشر الحمر سرا ، ولذلك يبدو لكثير ممن كتبوا عن محمد أن ارتباط محمد بن عبد الله بن محمد بن عائشة ومحمد بن حوييرة بنت الحارث وقد أسرت في غارة ولم تدفع دينها وأصبحت زوجة محمد الثامنة بعد ربيب شيئا غير عادي ، ولكنه ليس بشيء غير عادي إذا قورن بعادات رواح الحكام الآخرين في هذا الجزء من العالم كسليمان وداود ، فلم يكن لمحمد حريم كبير كحريم سليمان أبدا ، وإن قصة ربيب أكثر بساطة ولا ريب من قصة بنشيبا أو أحوم روح أبيحيال التي أعجب داود بها ليلة عرسه .

ويسعى ألا يظفر إلى حياة محمد الروحية من وجهة النظر العربية وألا تقاس بالشرائع المسيحية ، فإن هؤلاء الرجال والنساء ما كانوا عربيين فقد كانوا يعيشون في زمن ولي قنطر لا يعرف فيه إلا أقيستهم الأخلاقية فحسب . وحتى إذا كان ذلك فليس هناك من سبب لاعتبار الأحكام الأوربية والأمريكية أعظم من الأحكام العربية . إن عدد رجال العرب الشيء الكثير الذي يعطونه لأهل الشرق وبهم في احتياح إلى أن يأخذوا

عهم الشيء الكثير أيضا . وإلى أن يستطيعوا أن يبرهنوا على أن طريقة عيشتهم أعلى خلقيا من أى شعب آخر فعليهم أن يحتفظوا بحكمهم على العقائد والطوائف والبلاد الأخرى .

ويقول الأستاذ العقاد عن شطحات الخيال التى وصفت زواج السى عليها السلام — من ابنة عمته زهب وصفا قصصيا لعب الغرام فيه دورا رئيسيا : « ليس أسهل من شيوع هذه الأكذوبة وترويجها وتنميقها وإخراجها فى قصة غرام تذايع للتشهير برسول الإسلام كما شاعت فى القرون الوسطى . وليس أسهل من إسقاطها وإسقاط المروجين لها بحجر واحد لاشك فيه من أحبارها الكثيرة ، وهو أن روجة ريد كانت بنت السيدة أميمة بنت عبد المطلب عمه السى عليه السلام ، وأن السى عليه السلام هو الذى زوجها من ربيبه وعتيقه ريد . وما كان حماها حميا عليه قبل تزويجها بمولاه لأنها كانت بنت عمته يراها من طولتها وتراه . ولم تفاحشه بروعة لم يعهدا وهو لا يطمع إلى الرواح من مثلها ، ويكفى أن يعرف هذا الحمر لتسقط الأكذوبة كلها . وشيء من التفصيل القليل لهذا الحمر يعكس الفصيحة على المبطلين ليعلموا حقيقة القصة المخرفة ويعلموا أنها آية الخلق الكريم فى نبي المسلمين ، وأن زيدا الذى زوجه السى من بنت عمته لم يكن إلا أسيرا عتيقا رباه السى فأخلص له ولدينه .. وآثر المقام إلى جواره على الرجوع إلى أهله بعد تسريحه ، ورفع السيد الكريم عن عبده العتيق دلة الرق بمصاهرته والمساواة بينه وبين كرام أهله ، وأطاعت الزوجة السى كما ينبغى لمثلها مع مثله . ولكنها عاشت مع روحها كسيرة الحاطر . لما كانت تنبئه من نظرات لدايتها وقريناتها إليها ، ويشعر زيد مما تضره من الحزن والأنفة فيهم بتطليقها ولكنه يستكر أن

يقابل جميل النبي برفض الزوجة التي احتارها له وميزه بها على صحبه ،
فارتفعت بنبي الإسلام مروءته إلى حيث يسعى أن ترتفع مروءة الأنبياء ،
وأحل زيدا من حرجه وعوض ريب عن مهانتها ويعلم الناس أنها كفاء
له وإن كان قد احتارها لفتاه الذي كان يتباه ، ولولا ذلك لعاشت
الزوجة المطلقة معضلة بين لذاتها وأثرها وهي لا تطمع في الزواج من
كفاء لها بعد تطليقها ، وليس مما يحير خاطر الكسير أن يساق إليها
الروح الذي يكافئها وتكافئه مأمولا بزواجها .

تلك قصة أرسلوها في عياهب القرون الوسطى ليطر الناس في ظلماتها
إلى وصمة إنسانية يعرف من أحلها خلق الإنسان ويعاف الدين الذي
يدعو إليه من أجله . ويريد عليها خير صغير لاشك فيه فإذا هي شهادة
بالسوء كأحسن ما تكون الشهادة للأسياء ، لأنها شهادة بعافية البر
والإحسان إلى الأسير الضعيف الغريب عن أهله ووطنه ، وعاية البر
والإحسان إلى المرأة المجرّحة في عرتها بعد أن غلبها ضعف الأنوثة
والعرف على شعورها برغم إرادتها ، وكانت فصيلة الصدق مع فصيلة
العفة أكبر الأهداف التي تعمدتها أصحاب هذه المكيدة بالإيثار فيما
زيفوه من القصص المخرفة عن صفات النبي .

وقد دافع بعض المستشرقين عن مدأ تعدد الزوجات ، فالمستشرق
« ألفونس أتين دينيه » في كتابه « محمد رسول الله » يقول : « ولن
نحاطر لها محاولين عن عادة يحمل عليها الناس مثل هذه الشدة ، ولكما
نقتصر على عرض بعض الملاحظات :

فالواقع يشهد بأن تعدد الزوجات شيء ذائع في سائر أرجاء العالم
وسوف يظل موجودا ما وجد العالم مهما تشددت القوانين في تحريمه ،

ولكن المسألة الوحيدة هي معرفة ما إذا كان من الأفضل أن يشرع هذا المبدأ ويحدد أم أن يظل نوعاً من الففاق المستتر لا شيء يقف أمامه ويحدد من جماعه .

وقد لاحظ جميع الرحالة العربيين ونحس منهم بالذكر « جيرال دى بيرهال » و « اليدى موحان » أن تعدد الرواح عند المسلمين — وهم يعترفون بهذا المبدأ — أقل انتشاراً منه عند المسيحيين الذين يزعمون أنهم يحرمون الرواح بأكثر من واحدة ، وليس ذلك بالأمر الغريب على الفطرة البشرية فالمسيحيون يحدون لذة الثمرة المحرمة عند حروجهم على مبدئهم في هذا .

ودافع أفرانس أنيبس دينيه في كتابه « أشعة حاصدة سور الإسلام » عن مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام قال : « لا يتمرد الإسلام على الطبيعة التي لا تلعب وإنما هو يسائر قوانينها ويرتول أرقامها بخلاف ما تفعله الكيسة من معالطة الطبيعة ومصادمتها في كثير من شئون الحياة ، ومثل ذلك الفرص الذي تفرسه على أبنائها الذين يتحدون الرهبة فهم لا يتزوجون وإنما يعيشون غرباء » .

على أن الإسلام لا يكفيه أن يسائر الطبيعة ولا أن يتمرد عليها وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولاً وأسهل تطبيقاً في إصلاح و نظام و رصاً ميسور مشكور ، حتى لقد سمى القرآن لذلك « بالهدى » لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة ولأنه الدال على أحسن مقاصد الخير .

والأمثلة العديدة لا تعوزنا ولكنا للقصير نأخذ بأشهرها وهو التساهل في سبيل تعدد الزوجات ، وهو الموضوع الذي صادف الفد الواسع والذي جلب للإسلام في نظر أهل العرب مثالب حمة ومطاعن كثيرة (صلح الحديثة)

ومما لاشك فيه أن التوحيد في الزوجة هو المثل الأعلى ، ولكن ما العمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة ويصادم الحقائق ، بل هو الحال الذي يستحيل تنفيذه ؟ لم يكن للإسلام أمام الأمر الواقع وهو دين اليسر إلا أن يستبين أقرب أنواع العلاج فلا يحكم فيه حكما قاطعا ولا يأمر به أمرا باتا .

والدى فعلة الإسلام أول كل شيء أنه أنقص عدد الزوجات الشرعيات وقد كان عبد العرب الأقدمين مباحا دون قيد ، ثم أشار بعد ذلك بالتوحيد في الزوجة في قوله : « وإن حفتم ألا تعدلوا فواحدة » . وأنى رحل في الوجود يستطيع أن يعدل بين زوجاته المتعددت ؟ ولذا كان التعدد بهذا الشرط مستحيل التنفيذ ، ولكن انظر كيف وضعه الإسلام وضعا هو غاية في الرفقة والدقة والنظف مع الحكمة ، ثم انظر هل يحقق أن الديانة المسيحية بتقريرها الحرية لمردية الزوجة والتوحيد فيها وتشديدها في تطبيق ذلك قد سمحت تعدد الزوجات ؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه انصحك مأخذه ؟ وإلا فهو لاء ملوك هرسا ، دع عث الأفراد ، الدين كانت لهم الزوجات المتعددت والساء انكثيرات وفي الوقت نفسه هم من الكيسة كل تعظم وإكرام وإن تعدد الزوجات قانون طبيعي سيقى ما بقى العالم وبذلك فإن ما فعلته المسيحية لم يأت بالغرض الذى أرادته فانعكست الآية معها وصريا تشهد الإعرء بجميع أنواعه ، وكان مثلها في ذلك مثل الشجرة الملعونة التى حرمت ثمراتها فكان التحريم إعرء . على أن نظرية التوحيد في الزوجة وهى النظرية الآخذة بها المسيحية طاهرا تنطوى تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأحص في ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر حسيمة

البلاء ، تلك هى الدعارة والعوانس من النساء والأبناء غير الشرعيين .
كان رجال الكنيسة يرون أن المرأة شيطان وأنها جسد بلا روح ،
ويقول « سان بوناكتور » إلى تلاميذه « إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم
ترون كائنا بشريا بل ولا كائنا وحشيا وإنما الذى ترونه هو الشيطان بذاته
والذى تسمعون هو صائح الأفعى » . وكان ينظر إليها فى الأرمان العابرة
كما ينظر إلى الرقيق فهى متاع الروح وليست ندا له ، وكان من حق
الرجل وحده أن يملك متاعا فى حين كان محظورا على المرأة أن تملك أى
متاع أو أن تقوم باسمها بمباشرة أية عملية تجارية ، وعلى ذلك لم تكن
شخصا بمعنى الكلمة ، وكان لها أحقر نصيب من الحقوق كاسنة
وكروجة أو كأُم فكانت وهى ابنة ملكا للأب وهى روجة مملوكا
للروح ، فكان نصف الجنس البشرى ، النصف الهام المسئول عن إعداد
الجنس البشرى جميعا ملقى به فى روايا العبودية والرق ، فإذا ما كان هذا
نصيب المرأة من الماديات فكيف كانت تستطيع أن تنهأ لتلقى
الروحانيات ؟ وكان ينصر للرواح على أنه حجر عثرة فى سبيل انتقام
الروحى للإنسان حتى فى المسيحية التى كان ينظر فيها إلى الرواح على أنه
شر لا يهد منه .

فلما ضعف سلطان المسيحية وقرى عود المادية المادية استطاعت
امرأة أن تناضل من أجل حقوقها فطمرت بعض منها ، ولكنها ميتة
بالخية بعد ذلك العوز إذ فقدت الاستقرار والهاء المنزلية ، فقد أضعفت
المادية من قوة الدين الوارعة وأدت إلى حالة مححلة فى العلاقات بين
الروحانيين ، فكان من نتيجة ذلك أن خصصت فى أوروبا حصوعا مطردا
للإباحية وطرح الزواج جانبا لا يعيب طمعى فيه ولكن لأنه يلقى بعض

المسئوليات على كاهل الإنفيم البدين يفكران في إنشاء بيت . فالنظرة المادية جعلت من الإنسان أنانيا كبيرا ، فيما يحرق وراء كل متعة فإنه يتملص من مسئوليات الحياة الجديدة حتى يحيا حياة حالية من المتاعب . ولكن الحياة لها نصيبها من الأتراح ، والرواح إذ يقوى من روابط الحب المتبادل بين الرجل والمرأة ويريد في سعادتهما يتطلب منهما أن يتقاسما المتاعب والأحزان معا ، فالإنانية تجعل كلا احسب أنانيا إلى أقصى حد لأن الرجل والمرأة إذا ما أصحبا إلقيين لمتعة فقط ترك كل منهما الآخر وحيدا لأحزانه .

وقد لعب النظام الإسلامى الاجتماعى دورا هاما في تطعيم العلاقات فبدأ بتدعيم الأسس باعتبار المرأة مخلوقا حرا له حق الاحتفاظ بما يملك أو بيعه إذا شاء ، وهذا الحق أصبحت المرأة متساوية للرجل فقصى على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة في القيمة الإنسانية المشتركة كما قصى على مبدأ التفرقة بينهما أمام القانون والحقوق العامة . وقد تقرر مركز المرأة في الإسلام من ثلاثة عشر قرنا فقد أنزل الله على رسوله ﷺ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللساء نصيب مما اكتسبن^(١) . وهكذا أصبح في استطاعة المرأة أن تكتسب المال وأن تحوزه كالرجل ، ولم يميز النظام بين الجسدين في هذا الحق ففى وسعها أن تبيع وأن تشتري وأن تهب ماله لمن تشاء ، ﴿ فَإِنْ طَلِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَلْيُكُلُوهُ هُنَيْئًا مَرِيَّتًا ﴾^(٢) . شرع الإسلام المساواة بين الرجل والمرأة فيما هو من خصائص

(١) النساء ٣٢ .

(٢) النساء ٤

الإنسانية في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض ﴾ (١) ﴿ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ويرزقون فيها بغير حساب ﴾ (٢) . ﴿ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجيبه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٣) .

وأباح الإسلام للمرأة التعلم بمختلف أنواعه ومراحلها بل جعله فريضة عليها في الحدود الضرورية لها في شئون دينها ودنياها ، وفي هذا يقول صلوات الله وسلامه عليه : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) . وكانت أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنها تتعلم الكتابة في الجاهلية على يد امرأة كاتبة تدعى الشفاء العدوية ، فلما تزوجها عليه السلام طلب إلى الشفاء أن تعلمها تحسين الخط وتربيته كما علمتها أصل الكتابة .

وجعل الإسلام الأنثى ترث كالذكر بعد أن كان العرب يحضرون لتقليد بقدسونه وهو ألا يرث إلا كل من يستطيع أن يحمي دمار قبيلته ويدفع عنها عدوان العدو وهو ما لم تعد الطبيعة المرأة له ، ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ (٤) .

ولم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة

(١) آل عمران ١٩٥ . (٢) النساء ١٢٤ .

(٣) البقرة ٩٧ . (٤) النساء ٧ .

مراعاة طبيعة كل من الحسنيين وما يصلح له وكفالة الصالح العام وصالح الأسرة وصالح المرأة نفسها ، وترجع أهم الواجبات التي قرر فيها الإسلام هذه التفرقة إلى خمسة أمور : الأعباء الاقتصادية ، والميراث ، والقائمة على الأسرة ، والشهادة ، والطلاق .

ففي الأعباء الاقتصادية كان الإسلام رحيما بالمرأة وكفل لها من أسباب الرزق ما يصونها عن التبذل ويحميها من شرور الكدح في الحياة ، فأعفاها من كافة أعباء المعيشة وألقاها جميعا على كاهل الرجل .

فما دامت المرأة غير متروكة ولا معتدة من روح صفقتها واجبة على أنصوها أو مروعها أو أقربائها حسب ترتيب العقيدة الإسلامية لهم في وحبو الفققة . فإن لم يكن لها قريب قادر على الإعاق عليها صفقتها واجبة على بيت المال .

وكذلك شأها في جميع مراحل الزوجية سواء في ذلك مرحلة الإعداد للزواج ومرحلة الزواج ومرحلة انفصامه بالطلاق ، فقد ألقت الشريعة الإسلامية على كاهل الرجل واجبات اقتصادية هي مقدم الصداق وإعداد منزل الزوجية دون أن تكلف المرأة أو أهنها أى عبء من هذا القليل . وفي أثناء الزوجية أعفت الشريعة الإسلامية المرأة من أعباء المعيشة واحتفظت لها بحقوقها المدنية كاملة غير منقوصة . فلها شخصيتها المدنية وثروتها الخاصة ولا تكلف أى عبء في نفقات الأسرة مهما كانت موصوفة .

وليس الزواج في الإسلام حائلا في سبيل السمو الروحي ولكنه

وسيلة تؤدي إلى زيادة هذا السمو ، فقد خلق الله الزوجين ليسكن بعضهما إلى بعض : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ (١) .
 ويظهر الإسلام إلى الزواج على أنه الوسيلة المثلى لرق الإنسان ،
 الوسيلة الوحيدة لتنمية عواطف الحب والخير ، فالزواج حسب النظام
 الإسلامى الاجتماعى هو الحالة الطبيعية التى ينبغى لكل رجل وامرأة أن
 يندمج فيها . قال عليه السلام : (إني أنزوح النساء فص رعب عن سنتي
 فليس مني) .

ويعتبر الزواج في النظام الاجتماعى الإسلامى ميثاقا يعقد على أساس
 الحب المتبادل بين الرجل والمرأة في حضور شهوده ، من المهم إعلان
 ميثاق الزواج فالإعلان هو العارق الوحيد بين الزواج والسفاح ، ويجب
 إعلان كل عقد زواج ولو بدق الدفوف . (أعلنوا هذا الكاح واجعلوه
 في المساجد واضربوا عليه بالدفوف) .

ولا تغنى شخصية المرأة في الرجل بالزواج ، فيها لا تفقد شيئا من
 حقوقها المكتسبة كفرد في الهيئة الاجتماعية الشريفة فإن حياتها الجديدة
 تلقى عليها مسئوليات جديدة كما تجلب لها حقوقا جديدة : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ
 الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (٢) .

وقد وضحت هذه النظرية جيدا في الحديث الشريف : (كلكم راع
 ومسئول عن رعيته ، فالإمام راع ، والرجل راع ومسئول عن أهله ،
 والمرأة راعية ومسئولة عن بيت زوجها) .

والبيت هو الدولة في صورة مصفرة ويسيطر عليه الرجل والمرأة
 معا ، ولكن ما لم يكن هناك تعاوت في القوة بينهما فسيضطرب نظام

(١) البقرة ١٨٧ .

(٢) البقرة ٢٢٨ .

هذه المملكة : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾^(١) .

وبعض النظام الإسلامى بشدة على معاملة الزوجة معاملة طيبة ، فإما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان : ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ﴾^(٢) . ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾^(٣) ، والرحمة بالمرأة واجبة حتى في حالة الكراهية : ﴿ فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾^(٤) . قال ﷺ : (خياركم خياركم لساتمهم) ، وقال ﷺ ، في حطمة الدواع : (أما بعد أيها الناس فإن لكم على نساتكم حقا ولهن عليكم حقا ، فاستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا) .

وإذا ما اعصمت الروحية بالطلاق يتحمل الروح وحده في الإسلام جميع الأعباء الاقتصادية ، فعليه مؤخر صداق زوجته وعليه نفقتها من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ما دامت في العدة ، وعليه نفقة أولاده وأحور حصانتهم ورصاعتهم في دور الحضانة ، وعليه وحده نفقات تربيتهم بعد ذلك ، فوضعت الشريعة الإسلامية المرأة في أعلى مرتبة من قبل الزواج ومن بعده وسمت بها في الحاليتين إلى مستوى رفيع لم تصل بها إلى مثله بل لم تصل بها إلى ما يقرب منه أية شريعة أخرى من شرائع العالم قديمه ومتوسطه وحديثه .

إن الإسلام يعرف ضرورة ترك الباب مفتوحا لفصم عرى الزواج في

(٢) البقرة ٢٢٤ .

(١) النساء ٣٤ .

(٤) النساء ١٩ .

(٣) النساء ١٩ .

ظروف استثنائية ، فقد كان الناس على طرفي نقيض قبل الإسلام فيما يختص بالطلاق . ففي الشريعة الهندوسية لا يعصم الزواج الذي يعقد بتاتا ، والطلاق في الشريعة الموسوية في يد الرجل وحده يستعمله وقتما يريد ، أما في المسيحية فإن الطلاق لا يكون إلا إذا حدثت حياة من الطرفين ولا يسمح مطلقا للمطلقين أن يتزوجا ثانية . أما الإسلام فقد اتخذ موقفا وسطا بين هذه الآراء المتعالية ، فهو يسمح بالطلاق ولكن يعتبره أمرا مكروها ويتمسك السبل الممكنة لإصلاح ذات البين ، فإذا يقر حق الزوجة في الطلاق لسبب وجيه يحد من حق الزوج .

والزواج في الواقع اتفاق بين الرجل والمرأة على أن يعيشا زوجين ، فإذا وجد أحد الطرفين أنه لا يستطيع أن يحيا مثل هذه الحياة وحب الطلاق . والعقيلة الإسلامية على العموم تعض الطلاق : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ولا يجوز الطلاق قبل محاولة الإصلاح : ﴿ وإن حقت شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ﴾ (١) .

قال ابن عابدين : « أما الطلاق فالأصل فيه الخطر أي الحرمة والإباحة للحاجة إلى الخلاص ، فإذا كان بلا سبب أصلا لم يكس فيه حاجة إلى الخلاص بل يكون حمقا وسفاهة رأى ومجرد كفران للنعمة وإيقاع الأذى بها وبأهلها وأولادها . ولذا قالوا إن سببه الحاجة إلى الخلاص عند تباين الأخلاق وعروض البغضاء الموحية عدم إقامة حدود الله تعالى ، فحيث تجرد عن الحاجة

المسيحة له شرعا يبقى على أصله من الخطر ، ولذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ ^(١) .

ولم يفرق الإسلام بين الزوج والزوجة في حق طلب الطلاق ، فقد جاءت جملة زوجة ثابت بن قيس إلى النبي — ﷺ — تطلب الطلاق من زوجها قائلة :

— يا رسول الله إني لا أجد عيبا في ثابت في خلقه أو دينه ، إلا أني لا أطيقه .

فلما سئلت هل ترد له الخائض (البستان) الذي أمهرها إياه ؟ وأجابت بنعم ، أمر النبي ثابتا أن يسترد بستانه ويطلقها .

وقد أسهب الدكتور على عبد الواحد وإني في كتابه « حقوق الإنسان في الإسلام » عند التحدث عن تفرقة الإسلام بين الرجل والمرأة في حق الطلاق ، قال : « يأخذ كثير من علماء الفرقة المسيحية على الإسلام أنه أباح الطلاق وجعله حقا للرجل وحده ، ويتابعهم في ذلك بعض المنعرجين من أبائنا المصريين والمنعرجات من بناتنا المصريات ؛ فيجأ هؤلاء وأولئك بالشكوى من الوضع الإسلامي ويطلبون إلى المشرع المصري أن يتدخل في هذا النظام ليقبمه على القواعد التي تسير عليها أمم العرب المسيحية ؛ فيرفع بذلك بلدنا المتخلف السائس إلى مصاف الشعوب المتحضرة الراقية !

وقبل أن نرد على الفرقة والمنعرجين والمنعرجات ، ونبين لهم الوضع الصحيح لنظام الطلاق في الإسلام ، وهو الوضع الذي يجهله كثير

مهم ، ويتحمله بعضهم مكثيرة وعاددا واندفاعا وراء رعايتهم الآتية في الكيد للإسلام وتشويه تعاليمه وتوهين منزلته في نفوس معتنقيه ، قبل أن مرد عليهم ونبين لهم الوضع الصحيح لنظام الطلاق في الإسلام وأنه أمثل نظام عرفته الشرائع ، يحدّر أن تلقى نظرة محملة على نظام الطلاق في أمم الغرب المسيحي ، وهو النظام الذي يريدوننا على السير عليه ويطلبون إلى أولياء أمورنا أن يستوردوه إلى مصر .

ترجع جميع المذاهب المسيحية التي تعتنقها أمم الغرب المسيحي إلى ثلاثة مذاهب : المذهب الكاثوليكي ، والمذهب الأرثوذكسي ، والمذهب البروتستانتي .

فالمذهب الكاثوليكي يحرم الطلاق تحريما تاما ولا يبيح فصح الزواج لأي سبب مهما عظم شأنه . وحتى الحياة الزوجية نفسها لا تعد في نظره مررا للطلاق ، وكل ما يبيحه في حالة الحياة الزوجية هو التفرقة الحسمية (حسب تعبيرهم) بين شخصي الزوجين مع اعتبار الزوجية قائمة بينهما من الناحية الشرعية ، فلا يجوز لواحد منهما في أثناء هذه التفرقة أن يعقد زواجه على شخص آخر لأن ذلك يعتبر تعددا للزوجات ، والديانة المسيحية لا تبيح التعدد بحال . وتعتمد الكاثوليكية في مذهبها هذا على ما جاء في إنجيل متى على لسان المسيح إذ يقول : « لا يصح أن يفرق الإنسان ما جمعه الله » وبعض الفرق التي انشعت عن الكنيسة الكاثوليكية تبيح الطلاق في حالة الحياة الزوجية من الروح أو الزوجة ، ولكنها تحرم كذلك على كلا الزوجين أن يتزوج بعد ذلك . والمذاهب المسيحية الأخرى الأرثوذكسي والبروتستانتي يبيحان الطلاق في بعض حالات محدودة من أهمها الحياة الزوجية ، ولكنها

كذلك يحرمان على الرجل والمرأة كليهما أن يتزوجا بعد ذلك
وتعتمد المذاهب المسيحية التي تبيح الطلاق في حالة الخيانة الزوجية
على ما ورد في إنجيل متى على لسان المسيح إذ يقول : « من طلق امرأته
إلا بسبب الزنا يجعلها تزني » .

وتعتمد المذاهب المسيحية في تحريمها الزواج على المطلق والمطقة على
ما ورد في إنجيل متى كذلك إذ يقول : « من يتزوج مطلقة يزني » .

هذه هي مسيحياتهم وهذه هي أباحيلهم ، وأقول « مسيحياتهم » لأن
المسيحية الحاضرة التي يعتقونها تختلف كل الاختلاف عن النصرانية التي
يحدثنا عنها القرآن ويذكر أن الله أرسل بها عيسى إلى قومه ، فالقرآن
يحدثنا عن ديانة سماوية ممحقة قائمة على الاعتقاد بوحداية الله ورعاية
مصالح العباد ، أما نصرانيتهم فهي أمشاح من التثليث الهندي والوثنية
الرومانية القديمة وعناصر أخرى أخذت من ها وهاك ومرج بعضها
بعض في تكوين متاهل غريب . وهي فيما يتعلق بالتشريع الديوى لا
تقيم وزنا لطبيعة الإنسان ولا تزعى مصالح العباد كما سيظهر لنا ذلك من
تحليلنا لما تذهب إليه بصدد الطلاق . وأقول « أباحيلهم » لأن هذه
الأباحيل تختلف كل الاختلاف عن الكتاب المقدس الذي يحدثنا القرآن
أن الله أنزله على عيسى . وهي في معظم ما تحتوي عليه تحريف لكلم الله
عن مواضعه وتلفيق من صنع بابواتهم وكنايسهم ومخامعهم ، بل إن
مسيحيهم نفسه ليختلف كل الاختلاف عن المسيح الذي يحدثنا عنه
القرآن ، فالمسيح في القرآن إنسان من البشر يأكل الطعام ويمشي في
الأسواق ، أما مسيحيهم فهو كائن غريب تحار في إدراكه العقول : هو
ابن الله (أرسله أبوه إلى بنى آدم ليقتلوه أو يصلبوه فيكفر بدمه الخطيئة

التي ظلت عالقة بهم جميعا منذ أن عصى أبوهـم آدم وأكل من الشجرة ،
والتي كانت ستظل عالقة بهم إلى يوم يعثون لولا أن اعتداهم الله
بالتنصحية بأنـه العزيز) ، وهو في الوقت نفسه إله ، أو جزء من إله أو
إنسان وإله في آن واحد .

ولكن لترك هذا الموضوع فالحديث فيه طويل ودو شحون ،
ولنتأمل فيما تقررـه مسيحيتهم وأناجيلهم في الموضوع الذي نحن بصددـه
وهو نظام الطلاق .

فإذا بلغ الشقاق بين الزوجين إلى حد استحـال عـده الصلح
وأصبحت معه الحياة الزوجية جحيما لا يطاق ، وأصبح أفراد الأسرة
جميعا دكورهم وإناثهم صغارهم وكبارهم مهددين من جراء ذلك بأسوأ
التـاثـع وشر الكوارث في مختلف فروع حياتهم المادية والمعنوية والحلقية ،
فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل تحرم على هذين الزوجين الطلاق
وتأمرهما أن يبقيا معا على هذه الحال وفي هذا الحميم وليكن ما يكون من
معقـلات ، لأن « ما جمعه الله لا يـفـرقه الإنسان »

وإذا تنافرت طباع الزوجين كل التـافـر ، أو ألقى في نفس أحدهما أو
كـلـيـهـما كراهية شديدة للآخر حتى إنه ليفصل أن يرى الموت ولا يراه ،
وعجزت جميع الوسائل الإنسانية عن علاج هذه الحال لأن القلوب بيد
الله ولا سلطان لأحد على كثير من شئونها ، فإن هذه المسيحية وهذه
الأناجيل تحرم على هذين الزوجين الطلاق وتأمرهما بأن يقصيا حياتهما
على هذه الحال وفي هذا العذاب ، لأن « ما جمعه الله لا يـفـرقه
الإنسان » .

وإذا فسدت أخلاق أحد الزوجين ولم يـرع لعقد الزواج عهدا ولا

حرمة ، واندفع في تيار المسق والمحور وأصبح فصيحة الفصائح لكل من يرمى إليه ومصدر شر وبيل لكل من يتصل به ، وعمرت جميع وسائل التقويم عن إصلاحه ورده إلى الطريق المستقيم ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل تحرم الطلاق منه وتوجب على الزوج الآخر أن يبقى معه على هذه الحال . وقد تتساهل أحيانا فتسمح له بالانفصال عنه بحسبه فحسب أو بطلاق صوري بدون أن تسمح له بأن يستأنف حياة أخرى صالحة مع روح آخر أو زوجة أخرى ، لأن « ما جمعه الله لا يفصله الله » . ولأن « من يتزوج مطلقة يزني » .

وإذا جن أحد الزوجين جنونا مطلقا وفقد جميع مميزات الحيوان الناطق ، بل أصبح في تصرفاته أصل سيلا من الأنعام ومصدر خطر كبير لكل من يعاشره ، أو أصيب بمرض معد خطير لا يرحى برؤه ، أو فقد مقومات جسده ، أو كان عقيما لا يلد فأصبح لا يحقق أهم عرض من أعراض الزواج ، أو عاب غيبة طويلة ولم يعرف أحى هو أم ميت أو حكم عليه بالسجن المؤبد ، أو أعسر ولم يستطع الإنفاق على الزوجة وأصبحت الزوجة بذلك معرضة إذا بقيت على دمه لأن تموت جوعا أو تأكل بثديها ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل لا تسمح بطلاقه في حالة من هذه الحالات ، وإن ممحت به لا تسمح للمطلق أن يتزوج لأن « ما جمعه الله لا يفترقه الإنسان » ، ولأن « من يتزوج مطلقة أو مطلقا يزني » ، ولا تسمح بأن يبقى الزوج على زوجة هذه حالها ويتزوج معها زوجة أخرى لأنها تحرم التعدد على أي حال .

وقد رفعت أحيانا سيادة مسيحية مصرية تدعى السيدة زاهية عارر مرقس دعوى أمام محكمة قبا الابتدائية للأحوال الشخصية ضد زوجها

تطلب فيها تطبيقها منه لأنه تركها بدون الإيفاء عليها ، ولم تستطع تعيد أحكام الفقة التي كانت قد استصدرتها صده بسبب إعساره ، وبعد أن استعرضت المحكمة وقائع هذه القضية قضت برفضها اعتيادا على « أن أحكام الشريعة المسيحية مدونة في الإنجيل ، وقد أشار في مواضع متعددة إلى رابطة الروحية فوصفها بأنها رابطة مقدسة وهي سر من أسرار الكنيسة السبعة . وحرم على بى الإنسان التعرض لها أو حل عقدها لأن « ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان » . ومضت المحكمة تقول : « وإنه من العجيب أن بعض القواميس على الدين من رجال الكنيسة وأعضاء المجلس الملى العام قد ساءروا التطور الرسمى فاستجابوا لرغبات ضعيفى الإيمان فأباحوا الطلاق لأسباب لا سد لها من الإنجيل ، وحكم الشريعة المسيحية وى الطلاق قاطع فى أنه غير جائز إلا لعدة الرأى ، ورتب على رواح أحد المطلقين بأنه زواح مدنس بل هو الزنا بعينه » ، وانتهت المحكمة إلى « أنها لا تستطيع ، وقد نيط بها تطبيق أحكام الشريعة المسيحية مسامرة المدعية فيما تطلبه من طلاق تستد فيه إلى الإعسار ، وهو سب لا يمت إلى علة الرأى بصلة من أى نوع كانت ، ومن ثم يتعين الحكم برفض الدعوى » .

وإذا كان مسلك أحد الزوجين أو كليهما حيال الآخر أو معاملته له تنطوى على ضرر بليغ أو على صرار متبادل وعجرت جميع طرق العلاج عن إصلاح هذه الحال ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل تحرم كذلك الطلاق « لأن ما جمعه الله لا يصح أن يفرقه الإنسان » .

وإذا رأى الزوجان نفساهما أن استمرار زوجيتهما متعذر من جميع الوجوه ، وأراد كل منهما أن يفارق الآخر بالمعروف ليفضى الله كلا من

سعته ، فإن هذه المسيحية وهذه الأنجيل لا تقرهما على ما يريدان وتأمرهما بأن يبقيا رغم أنفسهما على حال يتعذر الإبقاء عليهما ولا يريد أحد منهما أن يبقى عليهما ، وليكن ما يكون من معقبات لأن « ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان » .

وليت شعري ! ما بال إلههم هذا الذى يلع و يهجو وعمره أنه يجمع ولا يستطيع أن يفرق ؟ ثم لماذا يسون الجمع لله ويهسون التفرقة للإنسان ، حتى التفرقة اتى يقتضيها الصالح العام ويتحقق بها الخير والاستقرار العائلى والاجتماعى ؟

ولما كانت الحالات التى ضربنا أمثلة لها ليست حالات حيالية بل كثيرا ما تحدث وتحدث أشباهها ونعائير فى حياة الآدميين ، ولما كان العربيون من قصيدة بى آدم وليسوا من قصيدة الجن أو الملائكة ، فقد رأوا أنه من المتعذر عليهم ما دامت طبيعتهم من طبيعة الإنسان أن يسروا على تعاليم هذه المسيحية وهذه الأنجيل فى شئون الطلاق ، فاستحدثوا من القوانين المدنية ما يبيح لهم حل عقدة الزواج فى هذه الحالات وما إليها ، وساروا على هذه القوانين فى حياتهم العملية وتركوا قواعد الكنيسة تنعى من أقامها .

وفى نقد هذا النظام الكسبى يقول واحد من كبار فلاسفة المسيحيين أنفسهم وهو العلامة الإنجليزى بسنام Pentham فى كتابه « أصول التشريع » :

« حقا إن الزواج الأبدى هو الأليق بالإنسان والملائم لحاجته والأوفق لأحوال الأسرة والأولى بالأحد .. ولكن إن اشترطت المرأة على الرجل

ألا تفصل عنه حتى لو حلت في قلوبهما الكراهة الشديدة مكان الحب
لكان ذلك أمرا منكرا لا يسيغه أحد من الناس . على أن هذا الشرط
موجود بدون أن تطلبه المرأة . إذ القانون الكسبي يحكم به فيتدخل بين
العاقدين حال التعاقد ويقول لهما : أنما تقررنا لتكونا سعداء فلتعلما
أنكما تدخلان سحبا سيحكم إغلاق بابيه .. ولن أسمح بمخروجكما وإن
تقاتلتا بسلاح العداوة والبغضاء .. » . ويعلق الفيلسوف الإنجليزي على
هذا الوضع بقوله : ولو كان الموت وحده هو المخلص من زواج هذا شأنه
لتنوعت صنوف القتل واتسعت مذاهبه .

ولكن لحسن الحظ استحدث المسيحيون من القوانين المدنية ما يفتح
لهم أبوابا للطلاق ويعمهم من أن يلجئوا إلى القتل أو الانتحار للخروج
من هذا السجن .

وهذه الظاهرة وهي السير في الأحوال الشخصية وفق قانون مدني
يختلف عن تعاليم الدين لا تكاد توجد في غير شعوب العرب المسيحية .
فجميع أهل الملل والنحل الأخرى حتى الرهبيون والوديون والوثنيون
والنحوس يسرون في أحوالهم الشخصية وفق تعاليم دياناتهم . وقد نجد من
بينهم من استحدث في الأحوال العينية قوانين مدنية تختلف عن تعاليم دينه
ولكنا لا نكاد نجد من بينهم من استحدث قوانين مدنية في الأحوال
الشخصية أي في شئون الزواج والطلاق .. وما إلى ذلك . وأمكن لهذه
الملل والنحل أن تسير الحياة العملية وتجاري طيبة البشر في هذه الشئون .
والمسيحيون وحدهم هم الذين كفروا بدينهم من الناحية العملية في
الأحوال الشخصية على العموم وفي شئون الطلاق على الخصوص لأنهم
هم أنفسهم قد وحدوا أن تعاليمهم في هذا الصدد تنكر الواقع وتتجاهل
(صلح الحديبية)

طبيعة الإنسان ولا تصلح للتطبيق في الحياة

ولم يستطع رجال الدين المسيحيون سبيلا إلى صد هذا التيار ولا إلى الوقوف في وجه المسطق والعقل وضرورات الحياة ، فتركوا الأمور تجري في أعنتها واكتفوا بأن يظهرُوا من حين لآخر على مسرح الحوادث حينما يتعلق الأمر بملك أو أمير أو عظيم ، وحينما تكون الظروف السياسية موالية لظهورهم ليثبتوا وجودهم وليبقوا على شيء من سلطانهم الديني كما حدث في موضوع ملك إنجلترا الأسبق إدوارد الثامن الذي أراد أن يتزوج بمطابقة ملكت عليه قلبه ، وكانت الظروف السياسية موالية حينئذ لإخراج هذا الملك والوقوف في سبيل رعاياه فظهرت الكنيسة مهددة بأباحيلها وبأن « من يتزوج مطابقة يرى » . فحير بين أن يمثل لهذه الحرافات ويحتفظ بالعرش أو يرل على حكم عقله وقلبه ويتارل عن الملك فأثر العقل على الحرافة والقلب على التاج ، ومن الغريب أنه كان معروفا لدى الخاص والعام ولدى الكيسة والشعب أن هذا الملك كان يعاشر خليلته هذه وهي لا ترال في عصمة زوجها قبل أن تطلق مه وكان لها حياح خاص في قصره ولم يرتفع صوت من الشعب ولا من رجال الكيسة بالاحتجاج على ذلك ؛ لأن هذه الأمور تعد في عرفهم من الهبات الهيات ، ولكن حينما أبدى رغبته بعد أن تمت إحراءات طلاقها من زوجها الأول بأن يتزوجها على سة الأب والابن وروح القدس ، وبأن يعاشرها معاشرة مشروعة ، معاشرة الزوج لزوجه لا معاشرة الخليل لخليته ، قامت في وجهه الكيسة وقام في وجهه رجال الدين . وقد حدث مثل ذلك أخيرا للأميرة مارجريت أحت ملكة الإنجليز الحالية . فقد أرادت أن تتزوج من ضابط أحبته وأحبها (الكاتسن

تاونسد) فقامت قيامة الكنيسة في وجهها لأن هذا المضابط قد طلق روجة من قبل ، وقاعدة الكنيسة أن من يتروح مطلقا يزي ؛ مع أن طلاقه هذا كان قد تم وفق الأوضاع المدنية والكنيسة نفسها لأن روجته السابقة قد ثبتت عليها الخيانة الزوجية بأدلة قاطعة ، والكنيسة البروتستانتية نفسها التي يدين بها الإعلير تبيح الطلاق في هذه الحالة . وهكذا لا يظهر رجال الكنيسة بسحافتهم هذه إلا حبيبا يكون الأمر متعلقا بملك أو أمير أو عظيم وحبيبا تكون الظروف السياسية موالية لظهورهم ، ولا يقصدون بذلك إلا انتهاز الفرص لإثبات وجودهم في صورة بارزة والإبقاء على شيء من سلطانهم الديني والظهور أمام الشعب معطهر الخلال والقدسية ، وإقامة الدليل له بطريق عملي على أن مكائهم فوق مكانة التبحان ومنزلهم فوق مرلة الأمراء والملوك . ولا أدل على ذلك من أن آلافا من حالات الطلاق ورواح المطلقين والمطلقات تحكم بها المحاكم الأوربية والأمريكية وتفذهها الهيئات المدنية في مختلف شعوب العرب المسيحي على مرأى من الكنيسة ومسمع منها بدون أن تحرك ساكنا أو تقوى على الاعتراض على القوانين التي تبيح ذلك أو على حالات تطبيقها . ولا أدل على ذلك أيضا من أن رئيس وزراء إنجلترا (سير أنغلون في إيدن) قد طلق زوجته الأولى التي هربت مع عشيق لها إلى أمريكا وهو الآن متروح غيرها ، ولم يرتفع صوت من الكنيسة بالاعتراض عليه ولا على توليه أكبر منصب في الدولة لأن الظروف السياسية غير موالية لارتفاع مثل هذا الصوت .

هذا هو النظام المسيحي الذي أهله أهله أنفسهم ، لما تبين لهم من فسادهم وعدم ملائمتهم للحياة الواقعية ، ولكهم يريدون أن نسير عليه

وأن ترك نظاما الإسلامى ، ويتابعهم فى هرائهم هذا المتفرنجون من أسائنا والمتفرنجات من بناتنا وهم لا يدرون أن الفرجة لا يقصدون بذلك إلا الكيد للإسلام وتشويه تعاليمه القديمة وتوهين منزلته فى نفوس معتقيه وإشاعة الفوضى والاحلال فى الأمم الإسلامية .

قد يقول السمعاء من الفرجة والمتفرنجين والمتفرجات إنهم لا يريدون أن تسير على النظام المسيحى بل يريدون أن يسير على غرار النظم المدنية التى تسير عليها أمم العرب فى شئون الطلاق ولكن هل نجحت هذه النظم لديهم حتى نستوردها منهم ؟ الحقيقة أنها قد أحقت لديهم إحفاقا ميبا كما أحقت بنظامهم الدينى ، وصاعت بين هذا وذاك مقومات الأسرة عندهم وأصبحت مهددة بالانهيار ، بل إهارت بالفعل فى كثير من شعوبهم ولم يبق منها إلا صور فاسدة قد بعدت كل البعد عن النظام العائلى السليم وأصبحت لا تحقق شيئا من أهدافه .

فقد انقسمت قوانينهم المدنية فى شئون الطلاق إلى طائفتين :

فأما الطائفة الأولى فقد حرطت كل التفريط فى احترام عقد الزواج فسم ترع ما له من حرمة وقدمية وجلال ، فأجازت الطلاق لأنفسه الأسباب كما هو الشأن فى بعض ولايات أمريكا الشمالية . فلم يصعب غريبا فى هذه الولايات أن تتزوج المرأة فى الصباح وتطلق من زوجها فى المساء وهذا هو قصارى ما يصل إليه الاستهتار بمظم الاجتماع الإنسانى والانهيار فى قواعد الأسرة .

وأما الطائفة الثانية فقد توسعت بعض التوسع فى شئون الطلاق بالقياس إلى النظام المسيحى ، ولكنها لا تزال متأثرة بروح الكنيسة فلم تح الطلاق إلا فى حالات محدودة وبطرق وإجراءات معقدة كل

التعقيد ، ولا تنهى إلى الطلاق إلا بعد أمد طويل كما هو الحال في فرنسا ومعظم الأمم الكاثوليكية . فالقانون المدني الفرنسي لا يسمح الطلاق إلا لواحد من ثلاثة أسباب : أحدها الرنا من أحد الزوجين ، وثانيها تجاوز الحد والإهانة البالغة في معاملة أحد الزوجين للآخر ، وثالثها الحكم على أحد الزوجين بعقوبة قضائية مهينة ، فالمرض والإصابة بعاهة والجنون معه حتى لو أدى إلى تجاوز الحد في المعاملة والغيبة الطويلة والشقاق البالغ واتفاق الطرفين على الفرقة ... كل ذلك وما إليه لا يسمح الطلاق في نظر القانون . وأحد الأسباب الثلاثة التي ذكرها هذا القانون وهو الحكم بعقوبة قضائية مهينة لا يتحقق إلا في حالات المخرمين . والسبب الثاني وهو تجاوز الحد والإهانة البالغة في معاملة أحد الزوجين للآخر يصعب إثباته ، ولذلك يعتمد معظم من يريدون الطلاق هناك على السبب الثالث وهو الزنا فيجمعون الأدلة اللازمة لإثباته وإقناع القضاء به إن كان قد حدث بالفعل من أحد الزوجين ، أو ينفقونه تلميقا ويقدمون لإثباته أدلة مزيفة ووثائق مختلفة ويقرون باقتراه كذبا أمام القضاء لتسهيل عليهم الفرقة . فلا يكاد يستطيع الطلاق إذن بحسب هذه الطائفة من القوانين إلا إذا تهيأ لها سبب واحد وهو عار الأبد للزوج والروجة وأولادهما ونسلهما وأسرتهما وجميع من يلوذ بهما . مع ذلك لا يتم الطلاق إلا بنفقات باهظة لا يقوى عليها إلا كبار الأغنياء ، وبعد إحراعات طويلة معقدة تستغرق في الغالب عدة سنين ، ويحكم فيها أولا بالفرقة الجسمية فحسب *Separation de corps* ثم تستغرق مدة أخرى حتى يحكم بالطلاق .

ومن ثم كثر في هذه الشعوب اتخاذ الزوجات للأخلاء واتحاد الأزواج

للحليلات وهجر الأرواح والروحات لمس الزوجية ومرار الزوجات مع عشاقهن والأرواح مع عشيقاتهم ، وأصبحت هذه الأمور وما إليها في كثير من بلاد أوربا وأمريكا شيئا عاديا ، وأصبحت الأسرة شيئا لا قيمة له ، وأصبحت علائق النسب الصحيح بين الآباء والأولاد موطن الشك وغريسة الارتباب .

هذه هي نظمهم المدنية : طائفة منها تحرد عقد الزواج مما له من حرمة وقدمية وحلال فتصبح اطلاق لأنفسه الأسباب ، وطائفة أخرى تشدد كل التشدد فلا تكاد تبيحه إلا لفصيحة تلحق لأسرة في حاصرها ومستقبلها ، وباجراءات معقدة طويلة ، هذه بدعت حد الإفراط وتلك بلغت حد التعريط ، وكلاهما يؤدي إلى شر مستطير ، ومن ثم اضطرب نظام الأسرة واهارت قواعدها في معظم أمم العرب المسيحية .

هذه الأمم لم نخرج إذن عن نظام الكهنة العاسد في شئون الطلاق إلا لتسير على نظم مدنية لا تقل عنه كثيرا في فسادها وما تؤدي إليه من اضطراب في شئون الأسرة وإسهار في مقومات الأخلاق .

والآن وقد تبين لنا فساد نظامهم المسيحي ونظامهم المدني كليهما في الطلاق ، وظهر لنا أن استيراد أحدهما كما ينادى بذلك المهلة مس المتفرنجين من أبائنا المصريين والمتفرنحات من بناتنا المصريات ، سيؤدي حتما إلى إسهار الأسرة والقضاء على جميع مقوماتها . الآن وقد تبين لنا كل ذلك يجدر أن نعرض نظام الطلاق في الإسلام ، وهو النظام الذي يقدمه المرجلة والمتفرنجون والمتفرنجات ويزعمون أنه قائم على عدم المساواة بين الزوج وروحه ، ليظهر لنا إن كانوا في مقدم إياه على هدى أو في ضلال ميس .

أجل ! لقد أباح الإسلام الطلاق لأنه دين يشرع للحياة الواقعية التي يضطرب فيها بنو الإنسان ، ولأنه كثيرا ما يحدث في هذه الحياة ما يقتضى الطلاق ، بل ما يجعله ضرورة لازمة ووسيلة متعينة للاستقرار العائلي والاجتماعي .

ولكن الإسلام لم يوجه على الإطلاق بل قيده بقيود تكفل تحقيق الصالح العام وصالح الأسرة نفسها ، وتكفل تحقيق التوازن في حقوق كل من الزوجين وواجباته والمساواة بين كفتيهما في هذه الشؤون .

فالإسلام يحيط عقد الزواج بسياح من القدسية ، ويضمي عليه من اجلال ما يميزه عن سائر العقود ، ويسمو به فوق ما يرتبط به الناس في شئون حياتهم من التزامات ، وينزله في النفوس منزلة المهابة والإكبار . ولذلك وصفه القرآن بما لم يصف به أى عقد آخر فسماه بالميثاق العليط ، قال تعالى : ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا عليطا ﴾ (١) . وعنى عن البيان أن ميثاقا ينظر إليه الإسلام هذه الطرة لا يمكن أن يكون قصمه من الهات الهيات .

ولذلك بغض الإسلام الناس في الطلاق وصوره في أبشع صورة وحث المسلمين على اتقائه ما استطاعوا سبيلا إلى ذلك . وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام : (أنقض الحلال إلى الله الطلاق) ، ويقول : (تروحووا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له عرش الرحمن) .

ولم يكنف الإسلام بهذا الحرر وهذا الوعيد بل اتخذ من الطم و شئون الأسرة ما يكفل تحاشي الطلاق إلا لأسباب قوية قاهرة .

(١) النساء ٢١ .

فقرر أنه لا يصح الالتحاء إلى الطلاق لأسباب يمكن علاجها ، أو
 لأمر يمكن أن تتغير في المستقبل ، أو لا تحول بطبعها دون استقرار الحياة
 الزوجية على وجه ما ، وحتى الأمور التي تتعلق بعاطفة الزوج نحو
 زوجته أو بكراهيته لبعض أحوالها لا يعدها الإسلام من مبررات
 الطلاق . فالإسلام يرى أنه لا ينبغي أن يفكر الأزواج في الطلاق بمجرد
 تغير عاطفتهم نحو زوجاتهم أو طروء كراهية لهن ، أو بمجرد عدم ارتياحهم
 إلى بعض أحوالهن وأخلاقهن التي ليس فيها ما يمس الشرف أو الدين ؛
 لأن هذه العواطف متقلبة متغيرة ولا يصح أن تبنى عليها أمور خطيرة
 تتعلق بكيان الأسرة ، وبغيبض الإنسان اليوم قد يصبح حبيبه يوما ما ،
 والزوج إن كره من امرأته حلقة فقد يكون فيها حلقة آخر يرضيه ، وفي
 هذا يقول الله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَى
 أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝ ﴾^(١) . ويقول عليه الصلاة
 والسلام : (لا يفرك^(٢) مؤمن مؤمنة إن كره منها حلقة رضى منها
 آخر) ، أى لا ينبغي للمؤمن أن يكره زوجته لخلق واحد لا يعجبه منها
 ويتعاضى عما بها من أخلاق أخرى فاضلة تعجبه . وجاء رجل إلى عمر
 ابن الخطاب رضى الله عنه يستشيره في طلاق امرأته ، فقال له عمر لا
 تفعل ، فقال ولكى لا أحبها ، فقال له عمر ويحك ألم تبس البيوت إلا على
 الحب فأبى الرعاية وأبى الندم ١٩ . يقصد أن البيوت إذا عر عليها أن

(١) النساء ١٩ .

(٢) ترك الرجل زوجته ، من باب سمع ، كرهها وأبعثها وفركته كذلك ،

(انظر القاموس المحيط) .

نسى على الحب فهي خليفة أن تنسى على ركنين آخرين شديدين : أحدهما الرعاية التي تبث المراحم في حوائبها ويتكافل بها أهل البيت في معرفة ما لهم وما عليهم من الحقوق والواجبات ، وثانيهما التذم والتحرج من أن يصبح الرجل مصدرا لتفريق الشمل وتقويض البيت وشقوة الأولاد وما قد يأتي من وراء هذه السيئات من نكد العيش وسوء المصير .

ومن الظلم التي قررها الإسلام كذلك لتحاشى الطلاق أنه أمر الزوجين عندما يحدث بينهما شقاق أو نفور أن يعملوا على إزالته بإثارة دواعي الرحمة والوئام ، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير ﴾ (١) .

ومن الظلم التي قررها الإسلام كذلك لتحاشى الطلاق أنه أوجب على الزوجين إذا لم يستطعوا أن يصلحا ما بينهما بنفسيهما ويتحققا الوفاق بوسائلهما الخاصة ، أن يعرضا أمرهما على مجلس عائلي يتألف من حكّمين : حكم من أهل المرأة وحكم من أهل الرجل ، ليعثا أسباب الشفاء ويعملا على القضاء على مثيراته ويوفقا بين رعبات الزوجين حتى يخل الصفاء والوئام محل النفور والخصام ، ولا ينتظر الإسلام حدوث الشقاق بالفعل لإجراء هذا التحكيم بل إنه ليأمر به عند مجرد الخوف من حدوث الشقاق ، أي عند وجود بوادر تنذر به ولا يمكن للزوجين القضاء عليهما بوسائلهما الخاصة . وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فبعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدوا إصلاحا

يوفق الله بهما إن الله كان عليما خيرا ﴿١﴾ .

ومن الأمور التي قررها الإسلام كذلك لتحاشي الطلاق أنه قد رتب عليه من الساحيتين المالية والاجتماعية نتائج خطيرة وألقى بسببه على كاهل الزوج أعباء ثقيلة ، وأن من شأن هذه النتائج والأعباء أن تحمل الزوج على ضبط النفس وتدبر الأمر قبل الإقدام على الطلاق . فقد قرر أنه يجب على الزوج إذا طلق زوجته أن يوفىها مؤجلا صداقها ويقوم بنفقتها من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ما دامت في العدة ، وتكون حضانة أولادها الصغار لها ولقربائنها من بعدها حتى يكبروا ، ويقوم بفقة أولادها مه وأحور حضانتهم ورضاعتهم في دور الحضانة حتى لو كانت الأم نفسها هي التي تقوم بذلك ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَا لَكُمْ فَاتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ ﴾ (٢) .

فإذا لم يستطع مجلس التحكيم أن يوفق بين الزوجين ولم تجد الوسائيل السابقة جميعا ولم تنس الروح عن عزمه على الفرقة ، كان في ذلك دليل على قيام حالة خطيرة تهدد استقرار الأسرة ، وعلى أن الحياة الزوجية قد فقدت أهم مقوماتها .

فحينئذ يحيز الإسلام للزوج الطلاق لمصلحة الأسرة نفسها ولتحقيق الصالح العام .

وحتى في هذه الحالة قد احتاط الإسلام للأمر فوضع للطلاق نظاما تتيح للروح في أثناء إحراعات الفرقة فرصة طويلة ليراجع نفسه ويعدل عما شرع فيه إن كان ثمة سبيل للإبقاء على الحياة الزوجية .

(٢) الطلاق ٦ .

(١) النساء ٣٥ .

فقد قرر أن يبدأ الرجل بعد استفاد الوسائل السابقة جميعا بتطبيق زوجته طليقة واحدة رجعية في طهر لم يتصل بها في أثناءه . وإنما قرر ذلك لأن الطهر هو خيرة كمال الرغبة في المرأة ، والرجل لا يقدم على طلاق امرأته في فترة كمال رغبته فيها إلا لشدة الحاجة إلى العفقة ، ففي ذلك دليل على قيام حالة خطيرة تستدعي الطلاق

فإذا أوقع هذه الطليقة الرجعية الأولى كان محبرا بين أمرين : الأمر الأول أن يراجع زوجته في أثناء عدتها ، والعدة لعير الحامل تستغرق مدة طويلة تبلغ ثلاثة قروء أي نحو ثلاثة أشهر . فالإسلام قد أعطى المطلق حتى بعد الطلاق فرصة طويلة يراجع فيها نفسه ويرد في أثناءها زوجته إليه إن كانه ثمة سبيل للإبقاء على الحياة الزوجية ، ولتسهيل الإبقاء على الحياة الزوجية يقرر الإسلام أن هذه المراجعة لا تحتاج إلى أي إجراء وأنها تتم بمجرد اتصال الرجل بمطلقته أو تقبيله إياها . وما إلى ذلك ، كما تتم بمجرد قوله راجعت امرأتى أو عارة من هذا القبيل . وكفى تكثير بواعث المراجعة ودواعي الإبقاء على الروحة أوجب الإسلام على الروح ألا يخرج زوجته المطلقة من منزل الروحية ما دامت في عدتها ؛ قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتِ السَّاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ . ﴾ إلى أن قال : ﴿ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بَيْوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِهَا حُشَّةٌ مِيبَةٌ ﴾ (١) . ويشير القرآن الكريم إلى تمصيل المراجعة والإبقاء على الروحية إذ يقول : ﴿ وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴾ (٢) ، فوصف الرد بأنه إصلاح لما حدث . ويشير القرآن إلى

ذلك أيضا إذ يقول في آية الطلاق : ﴿ يَا أَيُّهَا السَّيِّئُ إِذَا طَلَقْتُمُ السَّاءَ فطَلَقُوهُم لَعْنَتُهُمْ وَأَحْصُوا الْعُدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَحْرِجُوهُمْ مِنْ بيوْتِهِمْ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ . ويحتم الآيات بقوله : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ ^(١) . فالقرآن الكريم يشير إلى أن الله قد شرع الطلاق في أول العدة أى في طهر لم يمس الرجل روحته في أنثائه ، وشرع أن تظل المرأة من بعده في منزل الروحية طوال مدة عدتها ، وشرع كل ذلك ليعطى الزوج فرصة طويلة للتأمل ولتكثر بواعت الرجعة ودواعي الإبقاء على الزوجة ، فعلم الله يحدث أمرا بعد ذلك فيرجع الروح عما أبرمه ويراجع زوجته .

والأمر الثاني الذى يباح للزوج أن يفعله بعد هذه الطلقة أن يترك روحته حتى تبلغ أجلها وتقضى عدتها فتطلق منه طليقة ثانية ، وحتى بعد ذلك يظل الإسلام حريصا على الإبقاء على الروحية وعلاج ما حدث ، فيجبر للروح أن يعيد روحته إلى عصمته بعقد ومهر جديدين فإذا راحها إلى عصمته في أثناء عدتها أو تزوجها مرة ثانية بعقد ومهر جديدين بعد انقضاء عدتها ثم شحر بينهما ما يجعله يعزم الطلاق من جديد ، وحسب عليه أن يسير في هذه المرة الثانية على الأوضاع نفسها التى شرعت له في المرة الأولى ، ويعطيه الإسلام في هذه المرة الثانية من فرص المراجعة وإعادة الزوجية ما أعطاه في المرة الأولى .

وإذا عاد إلى معاشرته زوجته عمراحتها في أثناء عدتها أو بالعقد عليها بعد نكسائها وبعد أن طلقها مرتين فإنه لا يبقى له عليها بعد ذلك إلا

طلقة واحدة .

فإذا أوقعها عليها في الأوضاع السابق بيانها كان ذلك دليلا على أن الحرق قد اتسع على الرافع ، وأن الحياة الزوجية قد أصبحت غير محتملة بين الزوجين ، وأنها كلما حاولا جبرها احتل عليهما نظامها ، فحيث يقرر الإسلام الفرقة بينهما نهائيا ولا تحل له بعد ذلك حتى تمحى آثار العقد الأول والحياة الزوجية الأولى النجاء تاما ، وذلك لا يكون إلا إذا تزوجت من شخص آخر وانتهى الأمر بطلاقها منه طلاقا عاديا ، ورأى كلاهما بعد هذه المدة الطويلة وبعد تغير الأحوال على هذا الوجه أنه من الممكن استعادة الحياة الأولى على وضع أقوم وأمثل .

وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ الطلاق مرتان ، فإمساك معروف أو تسريح بإحسان ﴾ ، إلى أن يقول : ﴿ تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ ، فإن طلقها فلا تحل له من بعد ﴿ (أى من بعد هذه الطبقة الثالثة) ﴾ حتى تكسح روجا غيره فإن طلقها ﴿ (أى هذا الزوج الآخر طلاقا عاديا وانقضت عدتها منه) ﴾ فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون ﴿ ^(١) . وقال تعالى : ﴿ يأيها النسي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ ^(٢) أى طلقوهن في قبل عدتهن أى في أول مرحلة فيها ، وذلك لا يكون إلا إذا طلقها في طهر لم يمسه فيها ، لأن الحيض والطهر الذي يمسه الرجل المرأة في أنثائه لا يحسبان من العدة ﴿ وأحصوا العدة وانقوا

(١) البقرة ٢٣٠ .

(٢) الطلاق ١ .

الله ربكم لا تجزوه من بيوتهن ولا يجرهن إلا أن يأتي بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴿١﴾ . وروى مالك في الموطأ عن نافع « أن عبد الله ابن عمر طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله — ﷺ — فسأل عمر بن الخطاب رسول الله — ﷺ — عن ذلك فقال عليه السلام : مره فليراجعها فليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر . ثم إن شاء أمسكها بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء » . ويشير عليه السلام بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ يأتيا السي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ ، أي يجب أن يكون الطلاق في أول عدة أي في طهر لم يمس الرجل امرأته في أثناءه .

هذا هو نظام الطلاق في الإسلام وهذه هي إجراءاته المخصوص عليها في الكتاب والسنة ، وإيقاع الطلاق على غير هذا الوجه مخالف لما شرعه الإسلام بل لا تترتب عليه العرق في بعض المذاهب ، وهي مذاهب تنفق مع نصوص الكتاب والسنة السابق ذكرها ، ولا أدل على ذلك من أن الرسول عليه السلام لم يعتد بالطلقة التي أوقعها ابن عمر على روحه في حالة الخيص ولم يعتد بها طليقة ، فقد روى ابن جريج عن ابن الزبير أنه سمع عبد الرحمن بن أبيس يسأله عن ذلك فقال له إن رسول الله عليه السلام « ردّها عليّ ولم يرها شيئاً » أي لم يعتد بهذه الطليقة .

صحيح أن عمر بن الخطاب قد أنقذ في أيام خلافته أنواعاً من اطلاق

(١) الطلاق ١ ، ٢ .

لا تتفق مع هذا النظام المشروع ، منها طلاق الرجل لامرأته ثلاث طلاقات متتاليات في مجلس واحد أو في طهر واحد . ولكن السبب في ذلك يرجع إلى أن كثيرا من الناس في عهده كانوا قد استهانوا بحرمه الزواج وكثر إيقاعهم للطلاق في صور غير مشروعة ليحوفوا روجاتهم بذلك ويوقعوا الرعب في قلوبهن حتى يحشين الرجال ويحاذرن إعصاهم حرصا على الزوجية . فأراد عمر أن يشدد عليهم وأن يعاقبهم من حسن عملهم حتى يرتدعوا ويرجعوا عن غيهم ويحفظوا للزواج حرمة وقدسيته ولا يتلاعبوا بألفاظ الطلاق . فأنفذ ما كانوا يوقعونه من طلاق مخالف لنوحه المشروع ، وقال في ذلك قوله المشهورة التي تبين بأوضح عبارة عن مقصده : « أيها الناس ! قد كان لكم في الطلاق أداة ، وأنه من تحلل أداة الله في الطلاق ألزمناه إياه » . — فكان ذلك من عمر رضى الله عنه مجرد إلزام بحكم السياسة الشرعية في النظر إلى المصالح ومجرد إجراء مؤقت للرجوع ولعلاج حالة طارئة وعادة سيئة انتشرت حينئذ ، ولتحويف الناس من نتائج التلاعب بالطلاق . ولم يكن عرضه أن يقرر تشريعا دائما للمسلمين ولا أن يعير شريعة الله في الطلاق .

ولقد أحسن المشرع المصري صمما إذ قرر في القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ أن الطلاق المقترن بعدد لفظا أو إشارة يقع طلاقا واحدة . ويسمى ألا يقتصر المشرع المصري على ذلك وأن يصدر قوانين أخرى تخطر جميع أنواع انطلاق المخالفة للنوع المبيح في الكتاب والسنة والذى أشربا إلى أوصافه فيما سبق ، ولا تعتد بعيره من أنواع انطلاق وتعمل ما عداها عبارات من منكر القول ولغو الأيمان ، فعلى ذلك إحقاق للحق ورجوع ببطء انطلاق إلى الأوضاع الصحيحة التي سبها الإسلام وعرف عنها

المسلمون . فليس المقصود من الطلاق اللعب والنهوض حتى يرغم الرجل لنفسه أنه يملك الطلاق كما شاء وكيف شاء ومتى شاء ، وإنما هو تشريع منظم دقيق من لدن حكيم عليم شرعه الله لعباده معا لمخرج وعلاجا شائبا لما يكون في الأسرة بين الزوجين من شقاق وصبر ، ورسم قواعده وحد حدوده بميران العدالة الصحيحة التامة ، وهي عن تجاوزها وتوعد على ذلك . ولذلك تنهى آيات الطلاق دائما بذكر حدود الله والهي عن تعديها والتحذير من المضارة ، فيقول الله تعالى عقب آيات الطلاق : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ (١) ؛ ﴿ وتلك حدود الله سبها لقوم يعلمون ﴾ (٢) ؛ ﴿ وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ (٣) ؛ ﴿ ولا تمسكوهن صرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتحدوا آيات الله هروا ﴾ (٤) ؛ ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ (٥)

وحتى لا يكون الطلاق بروة عابرة ، وحتى يكون للروح فرصة للتراجع وللمتصلين بالزوجين فرصة للتدخل حتى بعد استفاد وسائل التحكيم السابق ذكرها ، يهي القرآن على أن يقع الطلاق على يدي شاهدين ، فيقول تعالى في آية الطلاق : ﴿ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ (٦) ولا مانع عدى من أن يؤول المخرج في

(٢) البقرة ٢٣٠ .

(١) البقرة ٢٢٩ .

(٤) البقرة ٢٣١ .

(٣) الطلاق ١ .

(٦) الطلاق .

(٥) البقرة ٢٣٤ .

الآية بالخرج من الطلاق لتلازمه مع إيقاع الطلاق أمام شاهدين . وقد ذهب الشيعة الإمامية إلى وجوب الإشهاد في الطلاق وأنه ركن من أركانه ، وأن كل طلاق بدون إشهاد يقع باطلا ولا يترتب عليه شيء . وحيدا لو أخذ المشرع المصري بهذا الرأي الذي يتفق مع صريح القرآن ويتبع لمن يعزم الطلاق فرصة أخرى للتأمل والتدبر والتراجع عما اعتزمه ، كما يتبع فرصة أخرى للإصلاح بين الزوجين عن طريق الشاهدين اللذين يستدعيان للشهادة على الطلاق وهما يكونان عادة من ذوى الصلة الوثيقة بالزوجين .

هذا لم يدحر الإسلام وسعا في إحاطة المرأة المطلقة بعطف كريم ورعاية رحيمة وفي العمل على حفظ حقوقها وحمايتها من الإضرار بها ، وذلك بما سببه من نظم رشيدة في النفقة والحضانة والعدة والإرصاع وضيق إيقاع الطلاق ورسمه .. وما إلى ذلك ، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَقْتِ الْمَرْأَةَ فَمَلَّصْ مِنْهَا فَمَا تَكُونُ عَلَيْهَا مِنْ شَرِّ حَافِلٍ وَأَنْ تَصْلَحْ بَهَا فَإِنْ فَتِنَتْهَا فَلَا مَكْرَهَ عَلَيْهَا أَنْ يَتَّخِذَ مِنْهَا مَا يَصْلَحُ بِهَا وَنَسَى مَا فَتَنَهَا وَكَانَ طَلَقًا مُبِينًا ﴾ (١) . وإذا طلقتم النساء فملصن أحلهن فأمسكوهن معروف أو سرحوهن معروف ولا تمسكوهن ضرارا تعتدوا ومن يعمل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا وادكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعطاكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم . وإذا طلقتم النساء فملصن أحلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿ (١) . ويقول . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتِ الْمَرْأَةَ فَطَلِّقْوهَا فِي مَقَامِهَا وَتَكُونُ الْوَدْعَةُ الْوَدْعَةَ ﴾ (٢) .

(١) البقرة ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(صلب الحديدية)

واتقوا الله ربكم لا تحرحوه من بيوتهن ولا يجرهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ولا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً = فإذا بلغ أهلهم فأمسكوهم معروف أو فارقوه بمعروف ﴿١﴾ . ويقول : ﴿أسكوهن من حيث سكتن من وجدكن ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يصرن حملهن فإن أرصدن لكم فأتوهن أجورهن واتمروا بكم معروف وإن تعامرتم فسترضع له أخرى ﴿٢﴾ . ويقول : ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتن إحداهن قطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً فأتأخذوه بهتاً وإثماً مبيناً . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأحدن مككم ميثاقاً عظيم﴾ (٣) .

ونجاء هذا النوع من الطلاق الذي شرعه الإسلام بعد الدخول بالزوجة وتوثق رباط الزوجية بينهما ، أحرر الإسلام طلاق الرجل لمن عقد عليها قبل أن يدخل بها إذا كان ثمة ما يدعو إلى ذلك ، حتى يتعرف ويعي الله كلا من سعته ، قبل أن يتم الدخول فيؤدي ذلك إلى الإضرار بكل منهما وإبدائه في مستقبله . ومع ذلك فقد أوجب الإسلام على الرجل في هذه الحالة نصف المهر المتفق عليه ، كما أوجب عليه المنفعة للزوجة وهي تعويض الجبر إنحاش الطلاق بقدره الحاكم حسب الظروف وحسب حالة الروح المالية وحسب ما لحق المرأة من ضرر (٤) . وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو

(١) الطلاق ١ ، ٢ .

(٣) النساء ٢٠ ، ٢١ .

(٢) الطلاق ٦ .

(٤) يرى أبو حنيفة أن متعة كسوة كاملة يقدمها الزوج لمطعمته .

تعرضوا لمن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسين . وإن طلقتهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعمن أو يعمو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفو أقرب للتقوى ولا تسوا الفضل بيكم إن الله بما تعملون بصير ﴿١﴾ .

ونحاسب هذين النوعين من الطلاق اللذين وكل الأمر فيهما إلى الزوج وحده في الحدود السابق بيانها ، شرع الإسلام أربعة أنواع أخرى من الطلاق :

(أحدها) طلاق تستد به المرأة ، وذلك إذا كانت قد اشترطت في عقد الزواج أن تكون عصمتها بيدها أى أن تملك حق الطلاق وقبل روحها ذلك . معنى هذه الحالة يكون لها حق الطلاق في بعض المذاهب بشروط وأوضاع خاصة .

(وثانيها) طلاق يقع عند الإخلال بشرط اشترطته المرأة في عقد الزواج . فإذا أحل الزوج هذا الشرط وقع الطلاق في بعض المذاهب ، عن ألا يكون هذا الشرط شرطا فاسدا يتعارض مع مقومات الزوجية وحدود الله .

(وثالثها) طلاق يوقعه القاضي لإعسار الزوج وعدم قدرته على العققة أو لانتفاء الضرر أو الصرار أو لغية الروح غيبة طويلة ، وقد أخذ بذلك القانون المصري رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠ .

(١) البقرة ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(ورابعها) طلاق يقع عن تراض من الرجل والمرأة كليهما ، ويتم في الغالب عن طريق تنازل المرأة عن جميع ما لها عند زوجها أو بعضه أو عن طريق إعطائه شيئا من المال يتراضيان عليه ، ويسمى هذا باخلع ، ويحدث عندما ترى الزوجة تعدر الحياة الزوجية وتحاف إن أقامت مع زوجها على هذه الحال ألا تتمكن من إقامة حدود الله . وإلى هذا النوع يشير القرآن الكريم إذ يقول : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يعاقبا ألا يقيما حدود الله فإن عصمت ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما اتحدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ . البقرة ٢٢٩ (١)

(١) انظر في الأوصاف التي شرعها الإسلام بصلاق عشا فيما تصديقا العاصل العلامة الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر بعنوان « نظم الصلوق في الإسلام » ، وقد كان هذا البحث من أهم مراجعنا في هذه لفقرة هذا وبجانب هذه الأنواع من لفقرة ثلثي شرعها الإسلام من قبل الدخول و من بعده ، ويوجد نوعان من الإيمان لم يقرهما الإسلام ولكن رتب عليهما بعض النتائج .

أحدهما : الإيلاء ، وهو أن يقول الرجل لامرأته : « والله لا أفركك » أو « لا فركك أربعة أشهر » فصاعدا فإذا قاربها في أثناء أربعة أشهر لا يحسب ذلك طلاقا عليه ، وإنما نحب عليه الكفارة عن حثه في عيه إن كان قد أقسم بالله . وإن لم يقرها حتى مضت الأشهر الأربعة اعتبرت مطلقة في مذهب أبي حنيفة طائفة واحدة نائية ، « لأنه ظنمها بمع حقها » كما يقول فقهه ، هذا المذهب « محاراه الشرع بروايل بعة الزواج عند مضي المدة » (السامع جزء ثالث ، ص ١٧٠ =

هذا النظام الرشيد الذى سنه الإسلام لطلاق ، فماذا يأخذ الفرقة
والمفترخون على هذا النظام الإلهى الحكيم ؟
يأخذون عليه ، فيما يتعلق بالموضوع الذى نحن بصدده على
الأخص ، وهو موضوع المساواة ، أنه قد جعل الطلاق حقا للرجل
وحده ، وحرم المرأة من ممارسته ؛ ويقولون إنه لما كان كل من الرجل
والمرأة طرفا فى عقد الزواج وشريكا مع الآخر فى الحياة ، فإن منح حق
الطلاق لأحدهما دون الآخر يتعارض مع أصول التعاقد ومع ما يبنى أن
تكون عليه المساواة بين الجسدين ، وأن الوضع السليم هو ألا يفسخ العقد
إلا برضا الطرفين المتعاقدين معا ، أو إذا منح هذا الحق لأحدهما يجب أن
يُسمح كذلك للآخر .

= وتوابعها ، والميدان على القدورى ، باب الإلهاء) وعد الشافعى إذا
مصت الأشهر الأربعة ولم يقرها فى أثناءها يوقف أمرها ويحجر بين الميء والتطليق .
(البدائع ، جزء ثالث ص ١٧٢) وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ للذين يؤولون من
سألتهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا ﴾ أى فإن رجعوا عما أقسموا عليه بأن فاءوا
زوجاتهم ﴿ فإن الله عفو رحيم ﴾ وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴿ (البقرة
٢٢٦ ، ٢٢٧) . ويفصل الإسلام أن يبحث الرجل فى يمينه فى هذه الحالة ليبقى
على الروحية . بدليل قوله تعالى : ﴿ فإن فاءوا فإن الله عفو رحيم ﴾ وبدليل قوله
عليه الصلاة والسلام (من حلف مكم يميناً ورأى غيره حراماً فليفعل ما هو خير
وليكفر عن يمينه) (أو كما قال) .

وثابعا : (الظهار) وهو أن يقول الرجل لزوجته : أنت على كظهر
أمى . أو عبارة من هذا القبيل . فلا يجوز فى هذه الحالة أن يقرها حتى يكفر عن
حرام الكفارة التى نص عليها القرآن . وقد استشكل القرآن الظهار فى عبارات =

وقد فانت هؤلاء أمور كثيرة : فاتهم أن المرأة إن ترم مع الرجل عقد الزواج على سنة الله ورسوله ووفق الشريعة الإسلامية تقبل بذلك أن يتولى الرجل وحده شئون الصلاق في الحدود التي قررها الإسلام ، وتتسارل تبعاً لذلك فيما يتعلق بالطلاق عن جميع الحقوق التي يمكن أن تنشأ عن اشتراكها في عقد الزواج . فالروح إذ يمارس الطلاق وحده إنما يمارسه بناء على رضا الزوجة ذلك الرضا الذي ينصنه عقد الزواج نفسه . وفاتهم كذلك أن الإسلام قد راعى في هذا الموضوع أن المرأة تغلب عليها العاطفة وسرعة الانفعال ، وأنه لا يقع عليها عزم مالى من الطلاق فلا يصح مع هذه الأوضاع وهذه الحالات النفسية والقانونية للمرأة أن يوضع في يدها حق التصير كحق الطلاق ، وإلا لأصحت الأسرة مهددة بالانهيار لأضعف بروة عابرة وأوهى انفعال طارئ . على حين أن الرجل لا يدفع في العادة مع عواطفه ووجداناته وانفعالاته اندفاع المرأة ؛ وهو وحده من جهة أخرى الذى سيقع عليه غرم الطلاق ؛ هذا إلى أنه القوام على الأسرة التصير بشئونها المقنن لجميع

= قوية كما استكر الإهلاء . وإن كان قد رتب على كل منهما النتائج السابق بيانها ، وفي الظاهر يقول الله تعالى : ﴿ الذين يظاهرون من سائهم ما هم بمهاتهم ﴾ إن أمهاتهم إلا اللات ولدهم . وإهم يقولون مكراً من القول ورورا وإن الله لعفو عموهم . والذين يظاهرون من سائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقة من قبل أن يتأسا ، ذلكم توعطون به والله بما تعملون حير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتأسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكياً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله . وتلك حدود الله وللذين كفروا عذاب أليم ﴿ (الزمالة ٢ - ٤)

ظروفها ، فانقصت الحكمة الإلهية أن يمنع هذا الحق بالقيود التى ذكرناها ، وهى قيود تكفل عدم استخدامه له إلا حيث يقتضى ذلك صالح الأسرة والصالح العام ، وتكفل عدم الإصرار بالمرأة . هذا إلى أن الإسلام كما تقدم قد أباح الطلاق عن تراضى الطرفين و صورة الخلع ، بل أباح أنواعا من الطلاق تستأثر بها المرأة إذا تبارل لها الروح عن هذا الحق ويجعل العصمة بيدها ، وأباح لها أن تشترط فى عقد الزواج شروطا خاصة على أن يفسح العقد عند عدم الوفاء بهذه الشروط كما سبق بيان ذلك .

وقد ظهر مد عهد قريب فريق من ائتمرنجين المصريين والمتعرجات امصريات يصحون لأولياء الأمور بأن يسرعوا هذا الحق من يد الروح والروحة كاهما ويضعوه فى يد القضاء . فلا تطلق المرأة إلا بدعوى تقام أمام القضاء وتفتش فيها المحكمة بوحاجة الأسباب التى تدعو إلى ذلك . وهم بدلت يريدون أن يقللوا إلى مصر أحكام القانون المدنى الفرنسى فى الطلاق ويستبدلوه بشريعة الله وإن كانوا لخشهم لا يعصرون بذلك . ومن المؤسف أن إحدى اللجان الحكومية التى ألفت أخيرا قد أحدثت نقاد لهذا رأى .

وقد عرضا فيما سبق للقوانين الأوربية التى تذهب هذا المذهب وعلى الأحص القانون المدنى الفرنسى ، وبيئا بالدليل القاطع ما أدت إليه هذه القوانين من تقويض لسلامة الأسرة وإهيار لمقومات الأخلاق . هذا إلى أن معظم أسباب الطلاق تمثل فى أمور لا يصح إعلاها حفاظا على كرامة الأسرة وسعة أفرادها ومستقبل بناتها وبناتها ، فلو فرض على الناس

ألا يطلقوا إلا بعد إعلان هذه الأسباب أمام المحاكم وتقديم الأدلة القاطعة عليها واقتناع القضاة بها لوقعوا بين نارين : فإما أن يؤثروا عدم فضيحة أنفسهم وروحانيتهم وأولادهم بإعلان أسباب الطلاق أمام المحاكم فيبقوا بذلك على أوضاع تأبأها الكرامة ويأبأها الخلق العاقل وتأبأها مصلحة الأسرة نفسها ، وإما أن يؤثروا إعلانها فيسحلوا بذلك عارا أبديا على أنفسهم وجميع أفراد أسرهم .

هكذا إلا أن الإسلام قد قرر نظام التحكيم بين الزوجين فيما يشعر بينهما من خلاف ولكنه قرره في صورة كريمة نبيلة لا تطوى على شيء من هذه المساوىء . فقد قرر أن يتألف مجلس التحكيم من حكيمين : حكم من أهل الروح وحكم من أهل الروحة ، أى من رجلين لا يرى كلا الزوجين غضاضة في الإقصاء إليهما بدات نفسيهما وبأسباب شقاقهما ، وهما من جهة أخرى لا يقلان عن الزوجين في حرصهما على كتمان كل ما يسيء إلى سمعة الأسرة المتخاصمة وعدم إذاعته بين الناس لأن كل ما يسيء إلى سمعة هذه الأسرة يسيء إلى سمعة الحكيمين نفسيهما لارتباط كليهما بهذه الأسرة برابطة القرابة .

وفصلا عن هذا كله فإن الإسلام قد أجاز تدخل القضاء في هذه الشؤون حينما تدعو إلى ذلك ضرورة ويتوقف على تدخله تحقيق الصالح العام وصالح الأسرة ، فأجاز للقضاء أن يطلق على الزوج في حالة إعساره وعدم قدرته على العفة وفي حالة عييته غيبة طويلة وحيث يدعو إلى الطلاق انقضاء الضرر والضرار كما سبق بيان ذلك .

•••

هذا هو نظام الطلاق في الإسلام كما تدل عليه الأدلة الصحيحة الثابتة

من الكتاب والسنة ، وهو كما رأينا طريق قويم لا عوج فيه ولا أمت ، وجادة واضحة مستقيمة يسير الإنسان فيها على هدى وور مبين . نظر فيه إلى صالح المجتمع وصالح الأسرة وصالح الزوجين ، وحفظت فيه حقوق كل منهما بما يطابق العدالة التامة لا يعين أحدهما الآخر ولا يفي القوى منهما على الضعيف . أعطى الرجل بعض المزايا ومنح المرأة في مقابل ذلك حقوقا تستعيز بها عما يلحقها من استعمال الرجل حقوقه . وقد لحص القرآن الكريم هذا كله في عبارة موحزة بليغة إذ يقول : ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عسى درجة ﴾ ^(١) .

هذا هو نظام الطلاق في الإسلام ، وهو كما رأينا حل يطر إليه الإسلام كما يطر إلى جراحة لا بد من إحرائها فلا يقرها إلا إذا تعدر الشفاء بعيرها ، وسط بين الإفراط والتعريط لا تسد مسامده حتى تشقى الأسرة بتحريمه كما هو شأن النظام المسيحي ، ولا تتسع كل الاتساع حتى يعقد معه ميثاق الزواج ماله من حرمة وجلال كما هو شأن النظم المدنية في بعض أمم الغرب ، ولا تنوعر طريقه حتى يتلمسه الزوجان المتكارهان في الاتفاق على دعوى الخطيئة ووصم الأسرة بعار أبدي كما هو شأن النظم المدنية في أمم أخرى من أمم الغرب .

ومن هذا يظهر أن خير ما يقدمه القادة والمصلحون إلى أوطانهم في هذا الموضوع هو عدم الانقياد لاتجاهات المتفرغين والمتصنعات ، والعمل على إشاعة المفهم الصحيح لنظام الطلاق في الإسلام ، وإقامة

إصلاحاتهم وأحكامهم في هذا الصدد على قواعد من دينا الحيف .
 ويعرق الإسلام بين الرجل والمرأة في الميراث ، فجعل الإسلام نصيب
 الذكور في الميراث أكثر من نصيب نطائهم من الإناث في معظم
 الأحوال ، فلذكر مثل حظ الأنثيين في الأولاد والإخوة والأخوات .
 وللروحة من زوجها المتوفى نصف نصيب الروح من تركه زوجته ،
 ونصيب الأب من تركه ولده يزيد أحيانا على نصيب الأم ولا ينقص عنه
 في أى حال .

وقد بنيت هذه التفرقة على أساس التفرقة بين أعاء الرجل الاقتصادية
 في الحياة وأعواء المرأة ، فمستولية الرجل في الحياة من الباحة المادية أوسع
 كثيرا في الأوضاع الإسلامية من مسئولية المرأة ، فالرجل هو رب الأسرة
 وهو القوام عليها والمكلف بالإعاق على جميع أفرادها بالفعل إن كان
 متروحا أو سيصبح مكلما بذلك بعد الرواح ، وعلى الرجل وحده تحب
 نفقة الأقرباء على حين أن المرأة لا يكلفها الإسلام حتى الإعاق على
 نفسها ، فكان من العدالة إذن أن يكون حظ الرجل من الميراث أكثر من
 حظ المرأة حتى يكون في ذلك ما يعينه على القيام بهذه التكاليف الثقيلة
 التي وضعها الإسلام على عاتق الرجل وأعصى منها المرأة رحمة بها وحدا
 عليها وضمانا لسعادة الأسرة .

وقد قال واصف باشا بطرس غالى في كتابه مروسية العرب المتوارثة :
 ﴿ كان محمد يحب النساء ويفهمهن ، وقد عمل جهد طاقتيه
 لتحريرهن ، ورغم أن ذلك بالقوة الحسنة التي استنها فوق ما هو
 بالقواعد والتعاليم التي وضعها ، وهو بعد بحق من أكثر أنصار المرأة
 العاملين إن لم يكن أولهم ، فقد كان بين رحيمها وعلين حليما ، وكان

لبن الخائب كثير المعصف عليهن عظيم الاحترام والتكريم لهن ، لم يكن ذلك خاصا به بزوجاته بل كان ذلك شأنه مع جميع النساء على السواء .

هذا ما قاله واصف باشا بطرس ، ولا تملك إلا أن نستشهد بقول الله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى ﴾ (١)

القاهرة في : ٧ / ٦ / ١٩٦٩ .

(١) الحجم ٣ ، ٤ .

المراجع

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

صحيح البخارى

السيرة النبوية

إنسان العيون (السيرة الحلبية)

بلوغ الأرب

نهاية الأرب

إيران في عهد الساسانيين

مور الأبخاز في مناقب آل بيت السي

اختار

إحياء علوم الدين

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام

حقوق الإنسان في الإسلام

محمد رسول الله

الرسول . حياة محمد

الإسلام والنظام العالمى الجديد

الدين القيم

المستشرقون والإسلام

نساء النبي

عقريه محمد

لابن هشام

لعلى بن يرهان الدين الحلبى

للألويسى

للتزويرى

لكريستنس - ترجمة د . يحيى الخشاب

للشيخ الشبلحي

للغزالى

لنقى الدين محمد بن أحمد العاسى

للدكتور على عبد الواحد واى

مولاي محمد على

ر . ف . بودلى ترجمة : محمد محمد

فرج وعبد الحميد جوده السحار

مولاي محمد على

ترجمة أحمد جوده السحار

لأبى الأعلى المودودى

للمهندس زكريا هاشم زكريا

للدكتورة بنت الشاطئ

لعباس محمود العقاد

للمسحلي	الروض الأنف
للدكتور زكريا إبراهيم	تاريخ الطبرى
لعباس محمود العقاد	مشكلة الحرية
للواحدى	فاطمة الزهراء والفاطميون
لابن أبى الحديد	أسباب النزول
للمهر ستانى	شرح نهج البلاغة
	الملل والنحل

للاستاذ عبد الحميد جوده السحار

الطبعة الاولى

أحمد بن بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفاري		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
في الوظيفة	مجموعة القصص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبي وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة القصص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبي بكر الصديق		أكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد) ترجمه مع محمد محمد فرج يناير سنة ١٩٤٧		
في حافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل البيت		مايو سنة ١٩٤٨
قميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارح الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدي السنين	مجموعة القصص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قائمة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقح	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧

الطبعة الأولى

يناير سنة ١٩٥٨		أم العروسة
مارس سنة ١٩٥٨	قصة	وكان مساء
يونيو سنة ١٩٥٨	قصة	اندرع وسيقان
سنة ١٩٥٩	مجموعة اقصيص	أرملة من فلسطين
سبتمبر سنة ١٩٥٩	رواية	المصباح
سنة ١٩٦١		القصة من خلال تجاريس الذاتية
أكتوبر سنة ١٩٦٢	قصة	جسر الشيطان
ديسمبر سنة ١٩٦٢	مجموعة اقصيص	ليلة عاصفة
يناير سنة ١٩٦٤	قصة	النصف الآخر
يونيو سنة ١٩٦٥	رواية	السهول البيضاء
يوليو سنة ١٩٦٧		وعد الله واسرائيل
يناير سنة ١٩٧٢	قصة	عمر بن عبد العزيز
أكتوبر سنة ١٩٧٢	قصة	الحفيد

القَصَصُ الدِّينِي

(للأطفال)

في ١٨ جزءا	قصص الأنبياء
في ٢٤ " "	قصص الصيرة
في ٢٠ " "	قصص الخلفاء الراشدين
في ٢٤ جزءا	الحرب في أوروبا

محمد رسول الله والذين معه

أكتوبر ١٩٦٥	١ — إبراهيم أبو الأنبياء
مارس ١٩٦٦	٢ — هاجر المصرية أم العرب
سبتمبر ١٩٦٦	٣ — بنو إسماعيل
فبراير ١٩٦٧	٤ — العدنانيون
مايو ١٩٦٧	٥ — قريش
يوليو ١٩٦٧	٦ — مولد الرسول
أكتوبر ١٩٦٧	٧ — اليتيم
يناير ١٩٦٨	٨ — خديجة بنت خويلد
مارس ١٩٦٨	٩ — دعوة إبراهيم
يونية ١٩٦٨	١٠ — عام الحزن
سبتمبر ١٩٦٨	١١ — الهجرة
نوفمبر ١٩٦٨	١٢ — غزوة بدر
يناير ١٩٦٩	١٣ — غزوة أحد
مايو ١٩٦٩	١٤ — غزوة الخندق
يونية ١٩٦٩	١٥ — صلح الحديبية
نوفمبر ١٩٦٩	١٦ — فتح مكة
فبراير ١٩٧٠	١٧ — غزوة تبوك
مايو ١٩٧٠	١٨ — عام الوفود
نوفمبر ١٩٧٠	١٩ — حجة الوداع
ديسمبر ١٩٧٠	٢٠ — وفاة الرسول

رقم الإيداع ٣٠٢٣ / ٧٨

الترقيم الدولي ٧ — ٢٤٢ — ٣١٦ — ٩٧٧